شهريّات

بقلم رئيس التحرير

مؤتمر الادباء وحرية التعبير ...

هذا الشهر ، خضنا في مؤتمر الادباء العرب التاسع في تونس ، معركة من أقسى المعارك آلتي خضناها دفاعا عن حرية الفكر والتعبير .

وفي البيان آلذي أصدره اتحاد الكتّاب اللبنانيين بعد عودة وفده من المؤتمر وصف ضاف لهذه المعركة وللموقف الذي اتخذناه في المؤتمر والخطوات التي سنخطوها في المستقبل .

وهذا هو نص البيان :

انسحب وفد اتحاد الكتّاب اللبنانيين من مؤتمر الادباء العرب التاسع الذي انعقد في تونس من ١٨ الى ٢٥ آذار .

كيف حدث ذلك ، ولماذا ؟

هذا ما يود وفدنا ان يوضحه في البيان الآتي ، ايمانا منه بواجبه في اطلاع الرأي العام اللبناني والعربي ، واستباقا لما سيقع من تشويه للوقائع والدوافع .

تلبية لدعوة اتحاد الكتّاب التونسيين ، سافر الى تونس في السابع عشر من آذار وفد اتحاد الكتّاب اللبنانيين المؤلف من ستة أعضاء هم : أحمد ابو سعد ، فؤاد الخشن ، الدكتور ميشال سليمان ، الدكتور ميشال عاصي ، انطوان ملتقى ، والدكتور سهيل ادريس الامين العام للاتحاد رئيسا للوفد . وتخلف عن السفر الدكتور خليل حاوي ، بسبب المرض ، وادونيس لظرف عائلي طارىء . وكان رئيس الوفد تلقى تذكرة سفر خاصة من اتحاد الكتّاب التونسيين . اما التذاكر الخمس الباقية فدفع ثمنها صندوق اتحاد الكتّاب اللبنانيين ، على قلة موارده ، وحلّ أعضاء الوفد ضيوفا على المؤتمر، كجميع الاعضاء الآخرين .

وكان الوفد اللبناني مصمما على ان يثير في المؤتمر موضوع حرية التعبير في البلاد العربية ، انسجاما منه مع كل مواقفه السابقة ، ومتابعة منه لموقفه آلاخير الذي شاركه فيه كثير من الادباء والكتّاب اللبنانيين والعرب احتجاجا على تدابير القمع التي اتخذت في الشقيقة مصر حيال عدد من الكتّاب والصحفيين والفنانين .

وقد التقى اعضاء الوفد اللبناني في تونس بكثير من الادباء العرب المشاركين في المؤتمر ، واطلعوهم على نيتهم اثارة الموضوع منذ حفلة الافتتاح ، فوجدوا لديهم من التقدير لهذا الموقف والتشجيع ما زادهم ايمانا وتصميما . بل ان خمسة على الاقل من رؤساء الوفود وعدوا رئيس وفدنا وعدا قاطعا بتأييد كل ما سيقترحه في هذا الصدد ، حتى ولو أدى الامر الى الانسحاب من المؤتمر . وكان منهم رئيس وفد اتحاد الكتّاب والصحفيين الفلسطينيين ، لكنه عاد فوقف ، مع الاسف ، موقفا يتناقض مع الموقف الذي سبق ان وقفه الامين العام لاتحاد الكتّاب الفلسطينيين في بيروت .

وحين وصل الامين العام لاتحاد الادباء العرب الاستاذ يوسف السباعي ، تبادل مع رئيس الوفد اللبناني التحية بالعناق لصداقتهما القديمة . لكنه أتاه في اليوم التالي متجهم الوجه يسأله هل صحيح ما سمعه من ان الوفد اللبناني سيثير موضوع حرية الفكر في مصر ، ويستغرب ألا يكون رئيس وفدنا ، حتى ذلك الحين ، قد فاتحه بذلك وطلب منه المعلومات ، فأجابه ان الوفد سيثير الموضوع ، وان المعلومات عنه متوافرة لا نحتاج منها الى المزيد . فانقلب يهدده بأنه سيهاجمه هجوما عنيفا حتى لو أدى الامر الى « تخريب » المؤتمر . واكتفى رئيس وفدنا ، وقد ساءه منه ذلك ، بأن يذكره بأنه الامين العام لاتحاد الادباء العرب ، وان رئيس وفدنا بصفة كونه امينا عاما مساعدا

للاتحاد ، حريص على انجاحه ، وعلى ان نجعل لمؤتمرات الادباء العرب شأنا غير شأنها الهزيل ، بحيث تكون اداة فعالة في خدمة الادب والادباء .

وقال الاستاذ السباعي : ـ ستكون منزعجا جدا اذا علمت ان التدابير المتخذة في مصر هي في طريق الالغاء ، أو ألغيت فعلا .

فأجابه بهدوء : ـ بل سأكون سعيدا جدا . انني أطلب منك ان تعلن رسميا عن الغائها او قرب الغائها حتى الغي الكلمة التي سألقيها في حفلة الافتتاح واستبدل بها اقتراحا قوامه توجيه الشكر والتحية الى المسؤولين في مصر على هذا الموقف .

فقال الامين العام : انني لا أملك ذلك !

وأعتبر رئيس وفدنا الحوار منتهيا ، ففارقه .

وفي كلمة الوفد اللبناني في حفلة الافتتاح ، جاء ان الادباء العرب ظلوا طوال الاعوام العشرين التي انقضت منذ انعقاد المؤتمر الاول للادباء في لبنان ، يضطهدون في حريتهم ويخضعون لشتى ألوان الارهاب والقمع. واستطرد الوفد الى القول بأننا ونحن نأتمر في تونس التي تفتح لنا صدرها واسعا، يعاني عدد من الادباء والمفكرين والصحافيين من كبت حرية التعبير لديهم ، أما بالاعتقال ، كما حدث اخيرا في البحرين ، واما بمنعهم من ممارسة حقهم في الكتابة وتهديدهم في قوتهم ورزقهم ووسائل عيشهم واما بالايعاز بحجب اصواتهم في المجلات والصحف والاذاعة والتلفزيون ووسائل الاعلام الاخرى ، يستوي في ذلك بعض ممثلي التيارات الادبية الحديثة الذين يرسمون خريطة مستقبل الادب العربي ، وبعض رواد الادب الكبار الذين صنعوا ، على صعيد الانتاج الرفيع ، مجد البلد الذي ينتمون اليه .

وأضاف ان الامانة تقتضينا ان نعترف بأن مؤتمرات الادباء العرب قصَّرت تقصيرا فادحا في تطبيق أهم هدف من اهداف الاتحاد العام للادباء العرب ، وهو الذي تنص عليه المادتان العاشرة والحادية عشرة من اهداف الاتحاد في نظامه الاساسي حين تقرران الدعوة الى « العمل على رعاية الاديب وحماية حقه في حياة حرة كريمة ، والعمل على حماية حق الاديب في حرية التعبير في نطاق المثل القومية العربية والانسانية » .

وجاء في كلمة الوفد اللبناني بعد ذلك : « لئن قصَّرنا في هذه السنوات العشرين الماضية في اداء واجبنا ، رغم ان صوتنا كان دائما يرتفع بالدعوة الى حماية حرية التعبير ، فان الاتحاد العام للادباء العرب مدعو اليوم ، اذا أراد لنفسه الكرامة والاحترام ، واذا أراد لمؤتمراته وقراراته الجدوى والفعالية ، ان يتخذ موقفا واضحا وحاسما في هذا الصدد » .

وبروح من هذه الفكرة ، اقترح الوفد اللبناني على المؤتمر التصديق على « ميثاق شرف » ينص على ان يتعهد الاتحاد العام للادباء العرب بالمبادرة الى شجب كل محاولة، في أي بلد عربي ، لقمع حرية الفكر ، واتخاذ جميع الخطوات الضرورية لرفع هذا القمع .

وجاء في كلمة الوفد : « ان معركة الحرية الفكرية جزء لا يتجزأ من معركة التحرير ، فاذا تقاعس فيها الاديب او هادن ، فانما يتخلى عن واجبه في معركة التحرير . فلنبدأ في هذا المؤتمر بالذات معركة حريتنا الفكرية ، ولنهب بكل سلطة تحاول ان تقمع الفكر ان تتراجع عن محاولتها ، بل ينبغي الا نتردد في ان نطالب الشقيقة الكبرى مصر ، طليعة معركة التحرير ، بأن تلغي التدابير التي اتخذتها بحق عشرات من ادبائها وصحافييها وفنانيها المبدعين . ولنحذر كل سلطة عربية اخرى من اتخاذ أي اجراء يطعن حرية الفكر وكرامة الادباء » .

وانتهت كلمة الوفد بالقول :

« اننا نحن ممثلي اتحاد الكتاب اللبنانيين نعاهدكم ، أيها الزملاء الكرام ، أن نمضي في معركة الدفاع عن حرية الاديب العربي الى آخر الشوط ، وانه ليسعدنا أن ندعو مؤتمر الادباء العرب القادم الى الانعقاد في لبنان تحت شعار « حرية الكلمة العربية » .

وقوبلت كلمة الوفد اللبناني بترحيب كبير من اعضاء المؤتمر والمدعوين ونالت من التصفيق والاستحسان ما لم تنله أية كلمة . وكان المؤتمرون يحيون اعضاء الوفد اللبناني على موقفهم الشجاع المسؤول . وكانت الوفود الوحيدة التي وقفت موقفا عدائيا من كلمة وفدنا هي وفود مصر والسعودية والكويت .

وابتدأت من بعد حملة الضغط علينا ، وتدخل فيها بعض المسؤولين التونسيين وبعض السفارات العربية... وكانت تتلخص في قولهم : لقد سجلتم موقفكم . حسنا . ان هذا يكفي !

وكنا نبتسم ، ولم تكن ابتسامتنا تخلو من اشفاق : فلو اننا جئنا حقا لنسجل موقفا فحسب ، لكان سيادة الامين العام الاستاذ يوسف السباعي على حق في اتهامنا بالتمثيل بل بالتدجيل !

لقد كنا نريد ان نضع المؤتمر واتحاد الادباء العام عند مسؤوليتهما ، ونحملهما على اتخاذ موقف يؤدي حقا الى حماية حرية الاديب ورفع قمع السلطات عنه . من اجل ذلك تقدمنا الى لجنة الصياغة بأربع توصيات ، تحمل الاولى مشروع قانون من مادة وحيدة يتضمن « ميثاق الشرف » الذي أشرنا اليه في كلمة الوفد في حفلة الافتتاح ، وهو ينص على ان :

« يتعهد الاتحاد العام للادباء العرب بجميع هيئاته : المؤتمر العام ، والمكتب الدائم ، والامانة العامة ، بأن يبادر الى شجب كل محاولة ، في أي بلد عربي ، تستهدف قمع الفكر او ارهاب الادباء او التضييق على حرياتهم ، كما

يتعهد ببذل كل مساعيه واتخاذ جميع الخطوات الضرورية للدفاع عن حرية المفكرين والادباء العرب . ويكلف الاتحاد العام الامين العام للادباء العرب تنفيذ الاجراءات التي يقتضيها هذا الميثاق » .

وتنفيذا لهذا الميثاق ، قدمنا اقتراحات بارسال برقيات الى المسؤولين في ثلاثة بلدان عربيه نعرف ان فيها تدابير قمعية ضد المفكرين والادباء في هده الفترة . وكان نص البرقيه المقترحه الى الرئيس السادات كما ياتي بتوقيع رئيس المؤتمر :

« سيادة الرئيس انور السادات ، رئيس جمهورية مصر العربية .

باسم وفود الادباء المجتمعين في العاصمة التونسية في المؤتمر التاسع للادباء العرب ، نحيي نضال جمهورية مصر العربية لقيادة معركة التحرير الكبرى ونناشد سيادتكم الغاء التدابير المتخذة بحق عدد من المفكرين والادباء والصحافيين المصريين ليتمكنوا من اداء واجبهم بالكلمة الشريفة المسؤولة في معركة التحرير » .

وكان هناك اقتراحان اخران بارسال برقيتين اولاهما الى أمير دولة البحرين تناشده وقف حملة التهديد والتفتيش والاعتقال بحق الادباء والشعراء في البحرين وتطالبه باطلاق الشاعر قاسم حداد عضو وفد البحرين لمؤتمر ادباء العرب الذي اعتقل قبل ايام من انعقاد المؤتمر . والبرقية الاخرى المقترحة موجهة الى وزير خارجية المغرب تطالبه برفع الضيم عن الكاتب المغربي عباس برادة .

وفي جلسة رؤساء الوفود التي انعقدت لتدارس البيان الختامي وقعت مشادة بين الامين العام الاستاذ السباعي وبين رئيس وفدنا حين وصف موقفه بالدفاع عن حرية التعبير واقتراحه الغاء التدابير المتخذة ضد الادباء المصريين بأنهما عبارة عن « اطلاق رصاصتين على مصر » ثم النزول عن المسرح . وحين اجابه ان موقفه من مصر وتقديره لمصر وايمانه بأنها طليعة معركة التحرر لا تحتاج الى بيان ، أصر على اتهامه ، فكان أن أجابه انه لا يحتاج منه الى « شهادة حسن سلوك » .

وهنا بدأت روح « التسوية » و « الحل الوسط » و « الاخوانيات » و « الاسرة الواحدة » تطغى تدريجا على الاجتماع . وأذهلنا ان نرى حتى الوفود « الثورية » تشارك في اللعبة ، فتقدم اقتراحات التسوية التي تجعل اقتراحنا ميثاق الشرف فاقدا لكل فعالية . واقترح البعض تقطيع أوصال الميثاق وأخذ كلمة من هنا وكلمة من هناك ، رغم انه واضح وجلي وشديد الاعتدال ، وليس فيه ايذاء لاحد ، ووصف رئيس وفد مصر الشاعر عزيز اباظة اقتراح ارسال البرقية الى الرئيس السادات بأنه هجوم مركز على مصر ، متجاهلا ان البرقية تحمل تحية وفود الادباء « لنضال جمهورية مصر العربية لقيادة معركة التحرير الكبرى » ومشوها المناشدة بالغاء التدابير باعتبارها هجوما . وظل رئيس وفدنا يدافع عن اقتراحاتنا ويعتبرها وحدة لا تتجزأ لان اقتراح البرقيات ليس الا بدءا لتنفيذ « ميثاق الشرف » ، واستخففنا باقتراح يوصي بتأليف « لجنة للاستقصاء والتحقيق » تسافر الى البلاد العربية المقصودة، مشككين بفعاليتها ووقوع اعضائها في أسر السلطات ، وتخوف الادباء المضطهدين من التعرض لمزيد من الاضطهاد اذا كشفوا الحقائق كلها . الى ان اقترح البعض قفل باب المناقشة واجراء التصويت على اقتراحات الميثاق والبرقيات . فأدركنا فجأة ان الوفد اللبناني وقع في ما يشبه الغفلة حين نسي ان الوفود وفود « رسمية » ، وان التأييد الذي حظي به موقفنا من قبل يتوقف حين يصل الى حدود « الرسميات » ، وان الوفد اللبناني وحده يتمتع بحرية التصرف والسلوك لعدم ارتباطه بالسلطة .

قد يقال ان هذا وضع مؤتمر الادباء العرب منذ نشأته ، وسيبقى كذلك حتى النهاية . فنقول اننا كنا نامل مع ذلك ان يستطيع المؤتمر ان يتخذ موقفا واضحا مسؤولا في أهم قضية تواجهه : قضية حرية التعبير ، والا فما قيمته وما شأنه ؟

وطرح اقتراح « ميثاق الشرف » على التصويت ، فسقط . نعم ، سقط ميثاق الشرف !

ونهض رئيس الوفد اللبناني قائلا انه ينسحب من المؤتمر ، فاحاط به « أصدقاؤه » يقنعونه بالبقاء وبقبول التصويت « الديموقراطي » ، فقال بأنه يرجىء اعلان موقفه النهائي الى جلسه المؤتمر الاخيرة ، ريثما يتشاور مع أعضاء الوفد ، وطلب ان يحتفظ بحقه في أعلان ذلك ، فوافق رئيس المؤتمر .

وبالاتفاق مع الوفد اللبناني ، أعد الكلمة القصيرة الآتية :

« أيها الزملاء ، أعضاء المؤتمر التاسع للادباء العرب .

لقد حرص الوفد اللبناني ، منذ وصوله الى تونس ، على ان يطرح قضية اضطهاد الفكر والادب في بعض البلدان العربية ، ويقنع رؤساء الوفود باتخاذ موقف حاسم منها ، لكنه لم يوفق الى ذلك .

ولما كانت غايته الاساسية من المشاركة في هذا المؤتمر الدفاع عن حرية التعبير والعمل على اتخاذ توصية برفع القمع والارهاب في هذه البلدان ، مما لم يتوصل اليه مؤتمركم في البيان العام الذي يميّع هذه القضية الرئيسية من قضايا الادب العربي اليوم ، فان الوفد اللبناني يعلن انسحابه من المؤتمر ، معاهدا نفسه ان يواصل في ميادين اخرى كثيرة الدفاع عن حرية الفكر وكرامة الادب » .

لكن رئيس المؤتمر رفض ان يعطي رئيس الوفد اللبناني الكلمة حين طلبها في الجلسة الاخيرة ، فذكره

بأنه وعده بذلك في جلسة الصباح ، فأجاب رئيس المؤتمر ان الامين العام يقول ان هذا خرق لبروتوكول المؤتمر ، فقال ان هذا غير صحيح ، وانه يطلب الكلمة بصفته امينا عاما مساعدا ، لكن رئيس المؤتمر ظل يمنعه ، بينما كان الامين العام على منصة الرئاسة ممتقعا لا يفوه بكلمة . وقال رئيس وفدنا اخيرا انه يحتج على الرئاسة لهذا الموقف ويعلن انسحاب الوفد اللبناني من المؤتمر .

وخرجنا من القاعة ، فانسحب معنا الشاعر علي عبد الله خليفة رئيس وفد البحرين ، والشاعرة مليكة العاصمي والكاتب عبد الجبار السحيمي عضوا وفد المغرب الذي يرئسه الاستاذ عبد الكريم غلاب ، كما انسحب معنا عضوان من الوفد التونسي هما جلول عزونه ومحمود التونسي .

وصباح اليوم التالي ، كان اعضاء الوفود يستعدون للسفر الى القيروان لمتابعة مهرجان الشعر فيها ، بينما غادر الوفد اللبناني العاصمة التونسية عائدا الى لبنان .

هذا ما حدث في مؤتمر الادباء العرب في تونس ، أوردناه بصدق وامانة ، ومنه نخرج بالاستنتاجات الآتية :

اولا – ان الاتحاد العام للادباء العرب يكرس نفسه نهائيا مؤسسة رسمية تابعة للحكومات العربية ويجعل اعضاءه مرتبطين حكما بالسلطة ، بل هو جعل من نفسه عميلا للسلطة في وجه الاديب ، يساعدها على قمعه وارهابه .

ثانيا – ان الامين العام للاتحاد يخون واجبه ويخرق مهمته حين يمارس نوعا من الديكتاتورية يخضع لها المؤتمر ، وحين يمنع الامين العام المساعد الاول من الكلام ، ثم انه كان عليه في هذا المؤتمر الا يغتصب دور رئيس الوفد المصري ، بل ان يتجرد ويقف فوق الجميع ، لمصلحة الجميع .

ثالثا – ان مؤتمرات ادباء العرب اصبحت في شكل نهائي مجمعا للراغبين في السياحة والنزهات والاستمتاع بالضيافة العربية والكرم الحاتمي .

رابعا – ان كثيرا من الوفود ، بحكم انها وفود رسمية تابعة للحكومات العربية ، تضم بين اعضائها عناصر مخابرات مهمتها وضع التقارير عن نشاط الوفد الذي تنتمي اليه لمزيد من الارهاب والضغط . وكان يسيرا علينا ان نرى كيف كان بعض الاعضاء ، ممن يؤيدون موقفنا الى ابعد الحدود ، يلتزمون الصمت ويتحاشون لقاءنا خوفا من عين المخابرات اليقظة التي تحصي عليهم انفاسهم .

من اجل هذا كله ، يعلن اتحاد الكتاب اللبنانيين انه قرر اتخاذ الخطوات الآتية :

اولا – بعد انسحاب اتحادنا من مؤتمر الادباء العرب التاسع ، يعلن انسحابه كذلك من الاتحاد العام للادباء العرب بكل هيئاته ، ويعلن استقالة امينه العام من مجلس تحرير مجلة « الادباء العرب » . وقد ارسل الاتحاد برقية بهذا المعنى الى مقر الاتحاد العام في القاهرة .

ثانيا – يعلن اعضاء الاتحاد المنتسبون الى اتحاد الكتاب العرب في سوريا استقالتهم من هذه العضوية ، وقد ارسلوا برقية بهذا المعنى الى مقر الاتحاد في دمشق .

ثالثا – يتبنى الاتحاد قضية كل مثقف عربي يقع تحت ارهاب السلطات ويقوم بالدفاع عنه بشتى الاساليب التي تحمل تلك السلطات على رفع القمع عنه . وقد بدأ الاتحاد فعلا تنفيذ ذلك فأرسل البرقيات الثلاث التي قدمها وفده الى مؤتمر الادباء العرب فجبن عن تبنيها .

رابعا – يسعى الاتحاد الى تأمين كل مساعدة مادية ممكنة لاي مثقف عربي يضام في رزقه او معاشه بسبب افكاره او اتجاهاته .

خامسا – يتبنى الاتحاد نشر كل مادة ادبية أو فكرية ينتجها اي مثقف عربي ولا يستطيع نشرها في بلده بسبب الارهاب ، شريطة أن يتوافر لهذه المادة المستوى الفني المطلوب . ولا يرى الاتحاد مانعا من السعي لدى المجلات ودور النشر التي يشرف عليها أعضاء في الاتحاد لنشر بعض المواد غفلا من أسماء كتّابها شريطة ان يكون متأكدا من معرفة هذه الاسماء في شكل سري .

سادسا – يعلن الاتحاد ، انطلاقا من هذا الموقف ، انه سيقيم صيف كل عام ملتقى ادبيا يطلق عليه « ملتقى الادباء العرب الاحرار » يدعى اليه أدباء ومفكرون من العالم العربي معروفون بتحررهم واستقلاليتهم . وسيقام الملتقى الاول في الصيف المقبل تحت شعار « حرية الكلمة العربية المسؤولة » . ويرجو الاتحاد ان يتخذ الخطوات الضرورية لاقامة اتحاد بديل للادباء العرب في المستقبل القريب .

سابعا – يعلن الاتحاد انه ، مع تقديره لما يتمتع به الادباء في لبنان من حرية نسبية في التعبير ، سيستمر في مشاركته في معركة الحريات التي تخوضها الصحافة اللبنانية في هذه الفترة التي يبدو ان موجة سياسة القمع والارهاب تقترب فيها من شواطئنا ، لفرض حلول استسلامية معروفة .

ثامنا – يحرص الاتحاد أشد الحرص على أن يوضح ان جميع خطواته السابقة وخطواته الآتية انما تستوحي منطلقاته الاساسية في تأييد الاتجاه القومي العربي والايمان بدور مصر الطليعي وبتركة عبد الناصر التاريخية ، وفي محاربة الاستعمار والصهيونية العالمية ، وفي ادانة الانعزالية المحلية والرجعية العربية وتدعيم الاتجاه التقدمي والمقاومة الفلسطينية ، والعمل على تجسيد ذلك كله في الانتاج الادبي اللبناني والعربي .

هذه هي الخطوط العامة لنشاط اتحاد الكتاب اللبنانيين المقبل ، آملين ان يكون هذا النشاط ، بمنطلقاته وانجازاته الممكنة ، عنوانا جديدا لمجد الحرية في لبنان والوطن العربي كله .

« اتحاد الكتاب اللبنانيين »

* * *

كان أكثر ما آلمني ، بالاضافة الى ما أورده البيان ، موقفان وقفهما الاستاذ يوسف السباعي وكان متجنيا علي فيهما كليهما :

الاول أصراره على اتهامي بالهجوم على مصر وبما سماه تصويب « رصاصتين » اليها ، ومحاولة القيام بدور البطولة في المؤتمر ... انه يخالف في ذلك ضميره ويخادع نفسه ، لانه يعرف جميع مواقفي في الدفاع عن مصر ، وفي تلقي السهام دونها في صدري ، وفي تعريض كثير من مصالحي للاذى في سبيلها . وليست صداقتي الشخصية له الا مظهرا من مظاهر محبتي لمصر . ولكن مصر ليست هي يوسف السباعي وحده ، ولا صالح جودت وانيس منصور وعزيز أباظة وعبد العزيز الدسوقي وحدهم . انها ايضا نجيب محفوظ ويوسف ادريس والفريد فرج وأحمد عبد المعطي حجازي ورجاء النقاش وأمل دنقل وسواهم كثير . وحين ننهض للدفاع عن حق هذه الفئة الاخيرة في حرية التعبير ونناشد المسؤولين الغاء الاجراءات المتخذة بحقهم ، فانما ندافع ايضا عن مصر ونعبر عن حبنا لها . وقد كان أحرى وأجدر بالاستاذ السباعي ، وهو الامين العام للادباء العرب ، ان يسعى لرفع هذه الاجراءات قبل انعقاد مؤتمر الادباء العرب في تونس . ولكنه بدلا من ان يقدر لنا موقفنا في الدفاع عن عشرات المثقفين المصريين المرموقين ، ويلتزم جانب الموضوعية ، يهاجمنا ويتجنى علينا بالتهم الباطلة ...

قال لي الاستاذ السباعي ، في المقابلة القصيرة التي تمت بيننا قبل بدء المؤتمر :

ـ لولا انهم أصدقاؤك ، ما رفعت الآن صوتك ... والا فلماذا لم ترفعه من قبل احتجاجا على اعتقال أدباء وكتاب آخرين ؟ لماذا لم تتكلم حين ظل انيس منصور أربعة أعوام في السجن ؟

فأجبته : ـ ان لي بالطبع أصدقاء كثيرين بينهم . ولكن بيني وبين بعضهم الآخر خلافات في الاتجاه والنزعة . انما المسألة مسألة مبدأ الدفاع عن حرية التعبير لدى الجميع . وأما اني لم أرفع صوتي دفاعا عن انيس منصور حين اعتقل ، فقد يكون هذا صحيحا ، ويجب ان نتدارك بعد اليوم هذا التقصير ، لا ان نتمادى فيه ، فنسكت عن تدابير الارهاب الجديدة ، لمجرد اننا سكتنا عن مثلها في السابق !

وفاتني ان أسأل الاستاذ السباعي : هل احتج هو أو رفع صوته مدافعا عن انيس منصور ، وهو الامين العام لاتحاد الادباء العرب ورئيس اتحاد الادباء المصريين ؟

على اني ذكرته ، في معرض ردي على تهمة « تمثيل » دور البطولة ، ان صوت وفد لبنان الى مؤتمرات الادباء العرب كان دائما يرتفع بمهاجمة سياسة القمع والارهاب لدى السلطات العربية ، واني كنت شخصيا ارفع هذا الصوت ، حتى انه (اي الاستاذ السباعي) كان غالبا ما ينزعج من كلمة الوفد اللبناني في المؤتمرات ... ومع ذلك ، فانه لم يتهمنا من قبل قط بمثل ما يتهمنا به اليوم من « تمثيل » و « بطولة » .. فلماذا ؟

ليسمح لي الاستاذ السباعي ان أورد له نبذة عن مواقفنا السابقة كلها ...

في المؤتمر الاول للادباء العرب الذي انعقد في مصيف بيت مري بلبنان من ١٨ الى ٢٦ ايلول ١٩٥٤ ، القيت كلمة قصرتها على موضوع حرية الفكر « الذي هو أخطر موضوع نواجهه » مشيرا الى الارهاب الفكري الذي كان قائما آنذاك في العراق ، داعيا الادباء الى توحيد جهودهم للدفاع عن الحرية الفكرية « التي هي حظهم الاول وقوام حياتهم الفكرية في تأدية رسالتهم » (١) .

وفي صيف ١٩٥٧ جرت محاولات لاضطهاد الفكر والمفكرين في لبنان ، فأصدر ادباء لبنان مذكرتي احتجاج بعثوا بهما الى السلطة اللبنانية ، وكنت من الذين وقعوهما دفاعا عن حرية الفكر (٢) .

وفي يوليه ١٩٦٤ احتجت « الآداب » على استجواب القصاصة ليلى بعلبكي في بيروت ومصادرة كتابها « سفينة حنان الى القمر » وطلبت من المسؤولين رفع يدهم عن حرية الفكر في لبنان .

وفي مؤتمر الادباء العرب الخامس الذي عقد في بغداد عام ١٩٦٥ ، أثرت موضوع عدد من الادباء والمثقفين العراقيين الموجودين خارج العراق ، كان اسقاط الجنسية العراقية عنهم يحول دون عودتهم الى وطنهم . وقد أثرت مرة أخرى في « الآداب » هذا الموضوع (٣) وطالبت الحكومة العراقية بالغاء ذلك القرار اللاانساني والسماح لاولئك المفكرين والمثقفين العراقيين بالعودة الى الوطن (وقد الغي القرار بعد ذلك فعلا) .

وفي المؤتمر السادس للادباء العرب الذي انعقد في القاهرة في شهر مارس ١٩٦٨ ، قلت في كلمة الوفد اللبناني :

« اذا كان من حقنا ان ندعي ان السلطات في معظم البلاد العربية كانت تحول دون أن يتمتع المفكر بحرية التعبير التي هي الشرط الاساسي للانتاج الحقيقي ، فمن واجبنا ان نعترف بأنهم قلة نادرة اولئك المفكرون والادباء الذين ناضلوا دفاعا عن حرية الفكر او قاموا بتضحية من أجل المحافظة على حقهم في تلك الحرية ... ولا نحسب ان من حق اديب ان يطلب من الجندي في الساحة ان يستشهد دفاعا عن حرية الوطن ، اذا لم يكن هو نفسه مستعدا أن يستشهد دفاعا عن حرية الفكر .. يجب ان نعترف اننا نادرا ما وقفنا في وجه الارهاب الذي كانت تمارسه السلطات على فكرنا حين تهددنا باعتقال حرياتنا وألسنتنا ، وتمنع أشخاصنا من عبور اراضيها ، وتمنع صحفنا وكتبنا لمجرد اننا كنا ننتقد احيانا أنظمتها أو تصرفاتها ... » (٤) .

---

(١) راجع « الآداب » ، العدد العاشر ١٩٥٤ .

(٢) راجع « الآداب » ، العدد التاسع والعدد الثاني عشر ١٩٥٧ .

(٣) راجع « الآداب » ، العدد العاشر ١٩٦٦ .

(٤) انظر « الآداب » ، العدد الرابع ١٩٦٨ .

وفي المؤتمر السابع للادباء العرب الذي انعقد في بغداد في نيسان ١٩٦٩ قلت في كلمة الوفد اللبناني للمؤتمر :

« ... ان النضج الفني لكل أدب يتطلب شروطا لا تتوفر لكثير من نتاجنا الحديث ، أولها وراسها الحرية، حرية التعبير عن الراي وحرية النقد ، ذاتيا كان ام موضوعيا . ويجب أن نعترف هنا بأن هذه الحرية ما تزال مضطهدة في كثير من البلدان العربية ، وان عدم توفرها بالقدر الكافي هو الذي يزهد كثيرا من الادباء في الانتاج والابداع » (٥) .

وفي مؤتمر الادباء العرب الثامن الذي انعقد في دمشق (ديسمبر ١٩٧١) قلت في كلمة الوفد اللبناني :

« ... الذي لا شك فيه هو ان مؤتمرات أدباء العرب لم تستطع حتى اليوم ان تنفذ التوصية الهامة التي لا بد من تنفيذها ليكون لكل مؤتمر أدبي شأنه وقيمته في حياتنا الثقافية العربية : توفير حرية التعبير للاديب العربي ليتمكن من القيام برسالته في معركة المصير (...) والحق ان الاديب العربي يشكو منذ فترة طويلة ، وفي معظم البلدان العربية ان لم نقل فيها كلها ، من ان هذه الحرية غير متوفرة له ، لان هناك دائما سيفا مصلتا عليه، يتخذ مرة صورة الارهاب ، ومرة صورة المحاكمة ، ومرة صورة الرقابة ... ويكون ذلك تارة بحجة الدفاع عن الدين ، وطورا بحجة صيانة الاخلاق ، بل حتى بحجة صيانة الثورة طورا آخر ... وما من شك في ان هذه الحجج كثيرا ما تكون وهمية ، وانها تخفي وراءها نزعة الى القمع هي نزعة السلطة اجمالا حين يوجه لها النقد . ويستوي في ذلك جميع السلطات القائمة ، ولا أستثني من ذلك سلطة بلدي لبنان الذي ، على ما فيه من حريات ، لا يتورع أحيانا عن سجن كاتب وارهابه اذا املى عليه اجتهاده أن ينتقد بعض رؤساء الدول (...) وعلى ذلك يبقى اديبنا العربي تحت شبح الارهاب والقمع ، فيؤثر في كثير من الاحيان الصمت أو يلجأ الى المداورة... وينعكس هذا الوضع على الموقف الادبي عامة ، هذا الموقف الذي يعاني الآن ازمة في الابداع لعلها اشد الازمات التي مرت بالفكر العربي منذ نصف قرن . ولسنا نريد ان نخلي الاديب نفسه من بعض هذه المسؤولية ، فانهم قلة أولئك الذين يتخذون الأدب رسالة ليناضلوا بالكلمة ويدافعوا عن حقهم فيها ... ولكن يبقى مع ذلك ان سلطة السلطة هي الاقوى . فلئن كان ثمة أديب يجرؤ على التعبير عن رأيه ويجد ناشر مجلة او كتاب يجرؤ على تقديم انتاجه ، فسيدركه سيف الرقابة والمنع ، اذا لم يدركه سيف المحاكمة والقمع ! (...) لنتدارس قضية الرقابة ، ولننظر في أمر الغائها او تقليصها او نقلها الى اتحادات الكتّاب ، ولنتح للافكار ان تتصارع وتتحاور ، ولنرفع عن فكر الكاتب كابوس الخوف ليجد الطمأنينة التي تتيح له الانطلاق في سماء الابداع والخلق ، ولكن لا بد لنا ، ونحن نطالب بذلك السلطات ، من أن نتعهد بأن نناضل من أجل أمتنا ، ونكافح من أجل شرف الكلمة » (٦) .

هذه نبذة عن مواقف الوفد اللبناني الى مؤتمرات الادباء العرب وسواها ، وقد كان الاستاذ السباعي شاهدا حيا على هذه المواقف باعتباره امينا عاما لاتحاد الادباء العرب . ولكنه لم يتهمنا قط « بالتمثيل » في أي منها ، فلماذا نكون « ممثلين » حين يأتي الحديث فقط عن ارهاب الادباء في مصر ؟

* * *

على ان موقفه الاشد ايلاما لنا كان ذلك الذي اتخذه في الجلسة الختامية للمؤتمر ، حين قرر منعي من الكلام وطلب من رئيس المؤتمر الاستاذ محمد المزالي تنفيذ ذلك.

في تلك اللحظة التي وقفت فيها رافعا يدي أطلب الكلام ، فأشار لي رئيس المؤتمر بيده ان اجلس ، أحسست بما يشبه خنجرا ينغرس في لحمي ... وغشيت عيني غمامة سوداء وانا أصر على طلب الكلام ، ثم تجسدت لي فجأة « مأساة » الاديب العربي كلها ، هذه المأساة التي جئنا الى تونس لنرفع صوتنا احتجاجا على انها ما تزال تفرض على الاديب العربي ، فاذا «بالمسؤولين» يفرضونها علينا نحن ايضا ، فنعيش هذه « المأساة » ، مثالا حيا صارخا ، في المكان الذي جئنا نفضحها فيه .

وكان خضوعنا للصمت يعني قبول الارهاب ...

ولكننا أتينا نكافح الارهاب ونطالب باطلاق صوت الاديب العربي ، أنّى كان .

وفي قاعة مؤتمر الادباء العرب ، ظل صوتنا منطلقا رغم المنع والقمع ، رمزا حيا صارخا على ان صوت الاديب العربي لن يخنق ...

كان صوتا واحدا في وجه الاضطهاد والقهر والظلام، ولكن كانت تتلجلج به صدور كثيرين من اعضاء المؤتمر تحجب اصواتهم موانع وارتهانات يقاومونها في نفوسهم بلا ريب ، وان كانوا لا يستطيعون دائما قهرها ...

وحين غادرنا قاعة المؤتمر وخرجنا الى العراء ، فتحنا صدرنا للسماء وتنشقنا الهواء النقي ، مصممين على ان نمضي قدما في درب الحرية ، وفي الدفاع عن الحرية ، وفي معانقة عشاق الحرية ...

ووجدنا عزاءنا ، نحن اعضاء الوفد اللبناني الذين لم يكونوا يوما متضامنين متعاضدين كما كانوا ذلك اليوم، وجدنا عزاءنا في خمس أيد امتدت الينا من تونس والمغرب والبحرين ، خارقة حجب السلطات ، مجسدة توق العشرات بل المئات من الادباء العرب الى النور والحرية..

سهيل ادريس

---

(٥) راجع « الآداب » ، العدد السادس ١٩٦٩ .

(٦) راجع « الآداب » ، العدد الاول ١٩٧٢ .

على هامش مؤتمر الأدباء ...

نزل رئيس المؤتمر ، من غير تحفظ ولا دراسة ، عند رأي الامين العام لاتحاد الادباء العرب ، بضرورة اقرار البيان الختامي للمؤتمر « بلا مناقشة » بدعوى ان هذا « بروتوكول » .

وفي الجلسة الختامية طالب عضو من الوفد التونسي ، هو الاستاذ جلول عزونة ، ببحث نقطة نظام ، ولكن رئيس المؤتمر لم يسمح له بالكلام ، حتى لبحث « نقطة نظام » . وكان العضو التونسي يريد ان يطالب بافساح المجال امام المؤتمر العام لمناقشة البيان الختامي وكان الجميع يتساءلون من اين اخترع الامين العام حكاية «البروتوكول» هذا الذي يضع حدا للنقاش ؟ ان اللائحة التنفيذية للاتحاد العام للادباء العرب لا تتضمن اية اشارة الى حق الامين العام في منع النقاش في بيان عام .

وعلى هذا ، فان موقف الامين العام ، الذي جاراه فيه رئيس المؤتمر ، انما هو خرق للائحة التنفيذية للاتحاد !..

* * *

لم يضم الوفد المصري الى المؤتمر أي شاعر من ممثلي الشعر الحر ، بل كان كل شعرائه عموديين وهم : عزيز اباظة ، وصالح جودت ، ومحمد عبد الغني حسن ، وأحمد رامي ، ومحمود حسن اسماعيل .. بل ان صالح جودت هاجم الشعر الحر في قصيدته « العصماء » ووصف ممثليه بأنهم « جحدوا التراث وباركوا رجزا متهتك الاقواء والكسر ، متطاولا متقاصرا قلقا مترددا كالمد والجزر ، سموه بالحر الجديد ألا يا رحمتا للشاعر الحر » !

وهكذا اثبت صالح جودت انه ليس رديء الشعر العمودي فحسب ، بل هو لا يفقه شيئا من الشعر الحر !

* * *

لوحظ ان ثلاثة شعراء على الاقل من شعراء الوفد المصري هم شعراء الملوك والامراء ، ولا يزال الناس يذكرون مدائحهم في الملك فاروق ... أهؤلاء اليوم هم شعراء مصر الثورة ؟

ولوحظ كذلك ان قصيدة احمد رامي تنص على قوله « نحن ابناء رمسيس ... » دون اية اشارة الى عروبة مصر ... أهذا هو الآن ممثل مصر العربية ؟

* * *

في جلسة رؤساء الوفود التي سبقت جلسة المؤتمر الختامية ، تمت الموافقة على تكوين « لجنة لتقصي الحقائق » يختار اعضاؤها من بعض الادباء المشاركين ، وتكون مهمتها السفر الى البلاد العربية التي « يقال » ان فيها اضطهادا للفكر ، على ان تقدم تقاريرها فيما بعد الى الامين العام للاتحاد ...

« لجنة لتقصي الحقائق » ؟! كم من لجان لتقصي الحقائق شكلت من قبل في كل ميدان ؟ وما كانت نتائج تقاريرها ؟

على كل حال ، لماذا لم يعلن نبأ هذه اللجنة في البيان العام للمؤتمر ، ولا في التوصيات ؟ أيكون ذلك بدافع من ... الخجل ؟

* * *

تلقى رئيس تحرير « الآداب » من اتحاد الكتاب التونسيين رسالة بتاريخ ١٥ شباط (فبراير) ١٩٧٣ بالنص التالي :
« حضرة ...

تحية طيبة ، وبعد ، اعتبارا لما تبذلونه من جهد في خدمة الادب العربي والفكر الانساني عامة ، وللمكانة التي لكم في نفوس رجال الادب في البلاد العربية وفي تونس على الخصوص ، يتشرف اتحاد الكتاب التونسيين بدعوتكم لحضور المؤتمر التاسع للادباء العرب... »

أيكون منع رئيس الوفد اللبناني ، الامين العام المساعد لاتحاد الادباء العرب ، من الكلام ، تعبيرا عما في نفس رئيس اتحاد الكتاب التونسيين ، رئيس المؤتمر ، من احترام لمكانته ؟

بعد انسحاب الوفد اللبناني من المؤتمر ، نشطت أجهزة اعلام الامين العام لاتحاد الادباء العرب لتفسير موقف رئيس الوفد اللبناني بانه موقف شخصي بحت أملاه عليه منع مجلته « الآداب » من دخول مصر ...

ولكن كثيرين من الادباء اعضاء الوفود كانوا يعرفون ان سبب منع « الآداب » انما يعود الى الموقف السابق الذي وقفه منذ زهاء ثلاثة أشهر اتحاد الكتاب اللبنانيين في بيروت احتجاجا على تدابير القمع التي اتخذت في مصر !

ومهما يكن من أمر ، أليس منع المجلة بذاتــه يندرج أصلا في سياسة القمع والارهاب ؟

* * *

أرسل اتحاد الكتاب اللبنانيين ، فور عودة الوفد الى بيروت ، البرقيات التالية :

سيادة الرئيس انور السادات رئيس جمهورية مصر العربية

باسم اتحاد الكتاب اللبنانيين ببيروت نحيي نضال جمهورية مصر العربية لقيادة معركة التحرير الكبرى ونناشد سيادتكم الغاء التدابير المتخذة بحق عـدد من المفكرين والادباء والصحفيين المصريين ليتمكنوا من اداء واجبهم بالكلمة الشريفة المسؤولة في معركة التحرير .

امين عام الاتحاد

. . . .

سمو الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة امير دولة البحرين

اتحاد الكتاب اللبنانيين يناشدكم وقف حملات التهديد والتفتيش والاعتقال بحق الادباء والشعراء في البحريـن ويطالبكم باطلاق سراح الشاعر قاسم حداد .

امين عام الاتحاد

. . . .

السيد وزير خارجية المغرب الرباط

اتحاد الكتاب اللبنانيين ببيروت يناشدكم الافراج عن جميع الشعـراء والمثقفين المعتقلين .

امين عام الاتحاد

. . . .

الامين العام لاتحاد الادباء العرب ـ ١٠٤ شارع القصر العيني القاهرة

نبرق لكم معلنين استقالة اتحاد الكتاب اللبنانيين من الاتحـاد العام للادباء العرب واستقالتي من الامانة العامة المساعدة ومجلس تحرير مجلة الادباء العرب احتجاجا على موقفكم في مؤتمر تونس .

امين عام الاتحاد

. . . .

وفور الاعلان عن تعيين الاستاذ يوسف السباعي وزيرا للثقافة في جمهورية مصر العربية ، بادر اتحاد الكتاب اللبنانيين الى ارســـال البرقية التالية :

سيادة الاستاذ يوسف السباعي وزير الثقافة ، القاهرة

اتحاد الكتاب اللبنانيين ينـــاشدكم ، وقد اصبحتم في موقع المسؤولية الثقافية ، العمل على الغاء التدابير المتخذة بحق الادبـاء والصحفيين والفنانين المصريين ليشاركوا بالكلمة الحرة المســـؤولة في معركة التحرير .

امين عام الاتحاد

. . . .

* * *

ارسل بعض اعضاء اتحاد الكتاب اللبنانيين البرقية التالية الى اتحاد الكتاب العرب بدمشق :

اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ سوريا

انسجاما مع موقف اتحاد الكتاب اللبنانيين في المؤتمر التـاسع للادباء العرب في تونس

وانسجاما مع مبدأ الدفاع عن حريــة الادباء التقدميين في ان يسهموا باقلامهم في المعركة التي تخوضها امتنا ضـد الامبريالية والصهيونية والرجعية ، وضد مختلف اشكال الكبت الذي يعاني منه أدباء طليعيون في بعض البلدان العربية في هذه الآونة الحرجة مـن تاريخنا الحديث ، يتقدم الكتاب الموقعون ادناه ، وهم اعضاء فـي اتحاد الكتاب العرب في دمشق ، باستقالتهم من الاتحاد المذكـور مؤكدين على الدور الطليعي الذي تلعبه الجمهورية العربية السورية في تدعيم الصمود العربي وفي الوقوف بوجه التوسع الصهيوني ومطامع الامبريالية والعمل على استعادة الحق الفلسطيني المغتصب واطـلاق حركة التحرر العربية نحو مزيد من القوة والفعالية .

احمد ابو سعد ـ ميشال سليمان ـ
ميشال عاصي ـ فـؤاد الخشن .

أبحاث مؤتمر الادباء

تنشر « الآداب » في هذا العدد ما اختارته من الابحاث والدراسات التي استطاعت الحصول عليها من اعمال المؤتمر التاسع للادباء العرب ، باعتبارهـا وثيقة ادبية تضاف الى وثائق مؤتمرات الادباء العرب السابقة التي نشرتها المجلة منذ المؤتمر الاول الذي عقد في لبنان عام ١٩٥٤ .

المصادرة في أزمنة الحمامة المطوقة

حاول أن تتكلم ..
حاول أن يخرج صوتك من ثقب المأساة
حاول أن تخلص احرفك المختومة
من أشراك الشبكة
الاشراك الفاغرة الاشداق تدفق
تبحث في العمران .. تهرول في عقد مفتوحه
.. أغلق فمك الان ليدخل رأسك في دائرة الحلقه
أغلق فمك ليظهر شمع الختم على الشفتين
اقفل عينيك بقفل القبو الراقد في قبضة مفتاحه
حاول أن تخرج نظرة خوف من شق الفكين
أكاد أرى في ثقب الباب التحتي
جرذا أكبر من قبضة عبد اسود
يترك جحر الحائط ويحملق بالاصوات الحائمة الممنوعه
.. حاول أن تدخل في بيت الحلزونة هذه
فيمر الشرطي ولا يشعر بوجودك .. حاول
ان تدخل في خرم الابرة فيناديك الوالي
ويرتق جوربه الاحمر
... لا ابصرك تحاول . انت قليل الخبرة بالطيران الليلي

تحزن ساعة يفرح حراسك . وتغني
ساعة تبكي الحاشية المنشورة بالاسعار البخسه
قد صادرك الوالي عن كل الارصفة وغض الطرف
عن السلع الداخلة من الاسواق الحره
صادرك الشعب القابع في حلقات .. السوق
وطوقك الحراس وتركوا
اقفية عارية محلوقه

حاول أن تخرس .. حاول
صودرت عن الصفحات وتم المنع
ولا ينقصهم غير الشمع الاحمر
حاول أن تعمى وتصم لتدخل في
قالب احذية الجند المنتظرين الامر اليومي
حاول ان يصبح جلدك قبعة او وجه حذاء
او ختما .. او حاول
ان تصبح شلوا من اشلاء النكسه ...

الياس لحود — بيروت

وقائع المؤتمر التاسع للأدباء العرب في تونس

انعقد المؤتمر التاسع للادباء العرب ومهرجان الشعر الحادي عشر في تونس العاصمة من ١٨ الى ٢٥ آذار (مارس) الماضي .

وننشر فيما يلي الكلمات التي القيت في حفلة الافتتاح :

كلمة الرئيس بورقيبة

حرصت كل الحرص ان اكون معكم اليوم في افتتاح مؤتمركم هذا التاسع ، لشغفي ، منذ الشباب الباكر ، بالادب عامة والشعر خاصة ، مما جعلني أميل ، في دراستي ، الى اختيار احد مناهج الثقافة الادبية ، على شدة ولوعي بالعلوم الرياضية .

وان أنس فلا أنسى ما حفظته ، في ذلك العهد ، من قصائد مطولة ، ومقطوعات منتخبة ، من أساطين الشعر العربي ، أمثال السموال التي حفظنا لاميته الشهيرة التي مطلعها :

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه
فكل رداء يرتديه جميل

حيث طلب الشيخ المرحوم محمد العزيز جعيط حفظها في اليوم الاول من بدء دراستي بالمدرسة الصادقية والمتنبي وامرؤ القيس وابي فراس ، وحافظ ابراهيم واحمد شوقي ، وغيرهم ممن تغذت نفسي من معين حكمتهم وجزل خيالهم وفيض مشاعرهم .

وتلك رابطة بين المرء وقومه لا تعدلها رابطة ، في اعماق ضميره ومنعرجات حياته ، مهما تقلبت به الاحوال .

وحرصت ايضا ان احضر بنفسي جلستكم هذه ، لما يكتسيه الادب في نظري من أهمية بصورة عامة ، وفي العالم العربي بصورة خاصة .

فمن طبيعة الحركات الادبية ان تكون دوما في طليعة التحولات الثقافية والانقلابات الاجتماعية ، تمهد لها ، وتعبر عنها . وقد بدأت النهضة عندنا بتيارات ثقافية من أهم عناصرها الاطلاع على عادات الغرب والاخذ منها عن طريق الترجمة او الاقتباس .

فليست الثقافة هي التي يصيبها الوهن في جوهرها، من شدة الهرم ، وانما هو تخلف الامم تسري عدواه الى كل شؤونها . فيضعف سلطان الفكر فيها ، وتعتل ملكة التعبير وتتقلص سيطرة الانسان على الطبيعة ، تلك السيطرة التي هي من قوام الثقافة الانسانية عامة .

لذلك نعتقد أن عملية النهوض والتنمية للخروج من التخلف انما هي عملية واحدة ، شاملة لكل المجالات بالنسبة الى المجموعة ، وشاملة لكل المستويات بالنسبة الى الانسان ، لا سبيل الى التجزئة فيها ، ولا الى التفرقة بينها .

وايماننا الذي لم يزدد الا رسوخا ، منذ مباشرتنا لجهود التنمية ، أن سر كبوتنا انما هو في تعطل حركة « الاجتهاد » عندنا ، في شتى المستويات والمجالات ، وان الشرط الاساسي لاستئناف المسيرة من جديد ، انما يكمن في رفع العراقيل الاجتماعية والتاريخية التي كبلت الفكر العربي ، فثنته عن مسيرته الطبيعية التي كانت بلغت به اوج الزعامة الحضارية طيلة قرون متوالية .

فالمشكل الذي يواجهنا ، في مستوى الثقافة ، يتصل اذن باقامة توازن جديد حركي بين مختلف عناصر الثقافة عندنا ، لاحكام الصلة الضرورية بين مقتضيات الحياة والانتاج الفكري .

ويمكن أن نحلل هذه الصلة على مستويات متعددة.

فاليوم — اكثر من أي وقت مضى — يتعذر على الانسان ان يفهم الكون الذي يعيش فيه ، بدون ثقافة تلم بأهم مكتسبات العلم الحديث ، سواء فيما يتعلق بالمادة او بالحياة او بالفلك الذي يحيط بالكرة الارضية .

اما بالنسبة الى الحياة الاجتماعية ، فان الانسان

يعيش اليوم في محيط صناعي تتوقف عليه حياته اليومية. فنحن اليوم، أحببنا او كرهنا، ترتبط معظم مرافق حياتنا بما يأتينا من الخارج من أدوات وآلات وخبرات، هي من انتاج أمم بيننا وبينها بون يزداد عمقا كل يوم.

فهل يمكن ان يرضى الانسان العربي ان يبقى غريبا في عالم غريب الاطوار، لا يدرك منه الا مظاهر سطحية ملؤها الرموز والالغاز؟

ذلك ان الذين يصنعون هذا العالم السحري الجديد كلهم من غير العرب.

وهنا تعترضنا مشكلة المشاكل بالنسبة الى الثقافة العربية: فهي لم تعد في عصرنا هذا تساهم في الجهد البشري لانشاء الحضارة، اي انها فقدت اولى مقومات الثقافة عامة: أعني السيطرة على المادة، تلك السيطرة التي بها يكون الانسان خليفة الله في الارض، والتي بها سلطانه وشرفه على سائر الكائنات.

ولا مفر للمثقفين العرب من ان يلقوا على أنفسهم هذه الاسئلة: « ماذا يكون مصير الامة العربية عندئذ؟ وما سيبقى مما نعتز به من الحضارة العربية؟ وما تكون منزلة الثقافة العربية اذ ذاك من هذه الثقافات الغازية التي تكتسح العالم غربا وشرقا؟ وما حظ العربية في التعبير عن هذا العالم الجديد الذي يزج بنا فيه ولا ينبغي ان نلجه القهقرى؟ ».

هذه اسئلة لا بد من مواجهتها، اذا اردنا تلافي الامر قبل فواته، فنرغم على الرضى بالدون قسطا لامتنا التي كان لها مجد تليد، ولثقافتنا ولغتنا، وقد كان لهما اشعاع بين الامم غير قليل.

ثم ان للمشكلة جانبا آخر لا يمكن اغفاله في مثل هذا المؤتمر الذي من شعائره الانتصار لقضايا العروبة، والنضال من اجل العزة والكرامة لكافة الشعوب العربية.

فمن أوكد واجباتنا ان نولي قضية المستوى العلمي ما تستحقه — وذلك الآن قبل الغد — وعجلة الزمان لا تدور حتما لصالح العرب ان هم واصلوا مواجهة القضية بسلوك النعامة.

لذلك رأيت ان اغتنم فرصة اجتماع نخبة لامعة من ابناء العرب المثقفين، لاطرح القضية من جديد، وألفت الاهتمام الى ما تكتسبه من خطورة بالغة، بالنسبة الى مستقبل الثقافة العربية وبالنسبة الى مصير الا[illegible] جمعاء.

وليس من علاج للقضية سوى ثورة ثقافية عارمة منظمة، شاملة لكل قطاعات النشاط عندنا، حتى نصلح الاوضاع بغاية السرعة وبكامل الحزم وبأقصى ما نستطيع من روية وبعد نظر.

هذا ما أردت أن أصارحكم به، على عادتي التي عرفت بها في عدم المواربة وفي اجتناب ستر الحقائق المرة.

وأمنيتي في هذا الصدد أن لا نقتصر على مجرد القول الذي لا يتبعه عمل. فكم قيل عنا، معشر العرب، ما يقال عن الكثير من شعوب البحر المتوسط، من انهم يميلون الى الاعتقاد بأن الكلام ضرب من ضروب «الفعل»، الى درجة الاكتفاء بالكلام والاقتصار عليه، وهما وحماسة وغرورا. فالله وحده سبحانه « يقول للشيء كن فيكون ».

وان كنت ولا أزال ممن يكبرون منزلة « الكلام » في النضال وقد كان الكلام اول سلاحي في المعركة التي كرست لها حياتي طيلة ربع القرن، ولا يزال الخطاب عندي الى الآن من أهم وسائل تغيير ما بالنفس البشرية فاني أعتقد مع ذلك ان الكلام وحده لا يكفي لتحقيق كبريات المآرب، اذا العمل لم يدعمه بسند قوي، على مدى طويل، ذلك ان العمل انما هو قوام الامور. « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ».

كلمة رئيس المؤتمر

انه ليوم أغر هذا الذي نفتتح فيه على بركة الله مؤتمر الادباء العرب التاسع، وانه لمن حسن طالع هذا اليوم ويمن بهجته ان يتفضل قائد هذه الامة فيشرف فيه بنفسه على مؤتمرنا هذا ويبرز بذلك — مرة اخرى — مدى تقديره لرجال الفكر والادب، وشديد حرصه على الرفع من مستوى رسالة الاديب، وانه اذ يطيب لي ان اشكر لكم سيدي الرئيس باسمي الخاص وباسم كافة الادباء العرب الحاضرين هنا، هذه اللفتة الكريمة وهذا التشجيع الصادق الذي ما فتئتم تغدقونه على الشعراء والكتاب ورجال الفكر، ليسعدني أن أرحب بضيوفنا الكرام الميامين في وطنهم الثاني تونس الخضراء، ارض اللقاءات والمحبة، وأن أتوجه اليهم بتحية مخضلة العبير فواحة الاريج، تعبق بأجمل ما نكنه لهم في نفوسنا من خالص الود وصادق التعبير.

وعسى أن يتيح هذا الملتقى الفرصة لكافة الادباء العرب ليتعرفوا الى نهضة تونس ومدى ما تشارك به من جهود في خدمة الثقافة العربية والرفع من شأن الانسان، بعد أن توج جهادها الطويل بالفوز المبين اثر كفاح تحريري مرير دام الطور الحاسم منه ما يزيد عن ربع قرن واستشهد في سبيله آلاف التونسيين البررة.

وان من أبعاد هذا النضال الذي اضطلع به الحزب الاشتراكي الدستوري وقاده الزعيم الحبيب بو رقيبة انه فرض ارادة هذا الشعب العربي المسلم الذي أنشد شاعره ابو القاسم الشابي منذ حوالي خمسين سنة:

اذا الشعب يوما أراد الحياة ... فلا بد ان يستجيب القدر
ولا بد لليل ان ينجلي ... ولا بد للقيد أن ينكسر

فاستجاب القدر ونجونا من الفرنسية والمسخ والذوبان التي كانت سياسة نظام الحماية المفروضة بالحديد والنار تسخر من اجلها قواها المادية والبشرية.

على أن النضال لم ينته بالحصول على الاستقلال والفوز بالسيادة وتحقيق الجلاء العسكري ثم الجلاء

التتمة على الصفحة — ٧١ —

في المدينة الهرمة

رحله التداعي في هذه القصيدة تجري بين شارع اوكسفورد في لندن وسوق العطارين في نابلس ، وتبدأ عند اشارة الضوء الاحمر وتنتهي عند اشارة الضوء الاخضر .

وتلقفني في المدينة هذي الشوارع والارصفة
مع الناس ، يجرفني مدها البشري ، أموج
مع الموج فيها ، على السطح أبقى بغير تماس .
ويكتسح المد هذي الشوارع والارصفة
وجوه وجوه وجوه وجوه ، تموج على السطح ،
يقطن فيها اليباس ، وتبقى بغير تماس .
هنا الاقتراب بغير اقتراب
هنا اللاحضور حضور ، ولا شيء الا حضور الغياب
ويحمر ضوء الاشارة والمد يرتد
تعود الخفافيش للذاكره
ونصف مزنجرة تعبر السوق ، أفسح فيه مكانا
لتعبر ، اني تعلمت الا أعرقل خط المرور ..
وعن ظهر قلب حفظت دروس نظام المرور ..
هنا كان سوق النخاسة ، باعوا هنا والدي" واهلي،
فقد جاء وقت سمعنا الذي منع الرق والبيع
نادى على الحر : من يشترى !
وهذي أنا اليوم جزء من الصفقة الرابحه
أمارس حمل الخطيئة .. معصيتي انني غرسة
أطلعتها جبال فلسطين ، من مات امس استراح
(أشك لعل بقاياهمو في القبور تئن وتلعنني
حين افسح في السوق دربا لتعبر نصف
مزنجرة ثم امضي بغير اكتراث)
رسالة عائشة تستريح على مكتبي
ونابلس هادئة والحياة تسير وتجري كماء النهر
يبادلني خاتم السجن صمتا فصيحا ،
يقول لها حارس السجن ان الشجر
تساقط والغابة اليوم لا تشتعل
ولكن عائشة ما تزال تصر على القول ان الشجر
كثيف ومنتصب كالقلاع ، وتحلم بالغابة التي تركتها
تؤج بنيرانها قبل خمس سنين
وتسمع في الحلم زمجرة الريح بين المعابر
تقول لسجانها : لا أصدق ، كيف أصدق من جاء من
صلبهم ؟
تظلون يا حارسي أنبياء الكذب
وتقبع في ظلمة السجن تحلم ، يحضنها الشجر
المنتصب
وتفرحها غابة في البعيد تصلصل فيها سيوف اللهب!

ويخضر ضوء الاشارة ، يجرفني المد ، تهرب ذاكرتي،
والخفافيش تهوي الى قعر بئر غميقة
بغير ظل طريقه
يتابع ظلي ، يوازيه ، يمتد جسر : لعلك مثلي غريبة؟
وتنفصل القطرتان عن المد ثم تغيبان بين زوايا حديقه

— تحبين « أوزبورن »
— ومن لا يحبه ؟
— عجائز أنكلترا المحبطون وضباطها الآفلون مع الشمس
غرب السويس
— ترى من سيزرعها شجرة الفد لهذا البلد ؟
— شباب الهيبيز ...
— لاذع انت لاذع ..
ويجتازنا سيلهم وهو يجرف تربة لندن
ونسمع صوت انهياراتها على وقع دقات «بج بن»
— هنالك في العاصفة الجانبية حانوت خمر
وفي النزل ذوق وتدفئة مركزية
— سدى ما تحاول
(وتعبر سيدة لندنية
تبث" وتشكو الى كلبها وخز عرق النسا
والتهاب المفاصل)
— سدى ما تحاول
— الست ابنة العصر ؟
— كبرت على الطيش ، صيرني الحزن بنت مئات السنين
وارفع عن كتفي ذراعيه ، أفلت خارج طوق التواصل
— تحاصرني وحدتي
— كلنا في حصار التوحد .
وحيدون نحن ، نمارس لعبة هذي الحياة وحيدين نحزن ،
نألم ، نشقى وحيدين
نموت وحيدين ،
وحيدا تظل ولو حضنتك مئات النساء ..
....
وتلقفنا في المدينة هذي الشوارع والارصفه
مع الناس ، يجرفنا مدها البشري ، نموج مع الموج
فيها ، نظل على السطح فيها ، ونبقى بغير تماس (*) .

فدوى طوقان

---

(١) **جون اوزبورن من ابرز كتاب المسرح المعاصر في انكلترا وصاحب الصيحة الغاضبة : لعنة الله عليك يا انكلترا . وفي مسرحيته الاخيرة (غرب السويس) يرسم اوزبورن صورة رمزية للامبراطورية التي انهارت وغربت عنها الشمس ، والسويس هنا هي الحد الذي فصل انكلترا عن حضارة مضت بينما هي الان عاجزة عن اللحاق بحضارة آتية .**

(*) **من ديوان كابوس الليل والنهار » الذي يصدر قريبا عن دار الآداب .**

الأدب العربي والصراع ضد الصهيونية والامبريالية العالمية

بقلم
محمد حنيفي

مهما كان الخلاف على وظيفة الادب ، فلا شك في انه قوة فعالة لها تأثيرها على الفرد والمجتمع ، ومن هنا لا مجال للجدل في وجوب اتجاه هذه القوة الفعالة الى التأثير على كل فرد وعلى كل مجتمع لصالح الوجود العربي والمصير العربي والشعب العربي الذي يعبر عنه هذا الادب .. وحتى لو لجأنا الى الاخذ باي رأي من تلك الآراء التي تتحدث في وظيفة الادب او غايته ، فسوف نرى انفسنا آخر الامر عائدين الى هذا المبدأ الذي لا شك فيه ، وهو وجوب اتجاه الادب بكل طاقته الى خدمة القضية العربية الاساسية وهي قضية مواجهة الصهيونية والامبريالية العالمية ، في مشاركة جادة لكل القوى المناضلة الشريفة ، التي تتصدى لهذا الخطر المحدق .. فاذا قلنا « ان وظيفة الادب التعبير عن مشاعر الانسان ازاء الحياة » فنحن واجدون ان مشاعر الانسان العربي مثقلة دائما بهذا التهديد الذي يواجهها في ضراوة من قبل الصهيونية والامبريالية ، والصدق الفني يقتضي ان يكون تعبير الادب العربي عن هذا التهديد هو التعبير الاساسي الذي يتقدم كل شيء سواه .. واذا قلنا « ان وظيفة الادب نقد الحياة » فنحن واجدون ان الحياة العربية مشحونة بآثام الصهيونية وجرائم الامبريالية ، حتى ما لم يظهر فيه أثر تلك الآثام والجرائم ، فانه راجع في حقيقة الامر الى ماجره علينا هذا الخطر المحدق الذي انتزع اجزاء عزيزة من الارض العربية ، وراح يستعد لانتزاع اجزاء اخرى ، واستطاع بمعاونة الامبريالية العالمية ان يزيح بعض الجولات وان يستنزف الكثير من طاقات الامة العربية التي كان من الممكن ان توجه الى التقدم والرخاء . وهكذا يتحتم على من يرى « الادب نقدا للحياة » ان يكون هذا الخطر الصهيوني الامبريالي مجاله الاول الذي ينتقد آثامه ويجسم جرائمه ، ويبصر بما تركته اياديه الملوثة على ارضنا وواقعنا وتاريخنا من جراح ! ولئن قلنا « ان وظيفة الادب تحقيق التوافق النفسي للانسان » فلا مراء في ان تحقيق هذا التوافق للنفس العربية لا يتم الا بمعالجة الداء الحقيقي الذي تسلل الى تلك النفس في صورة قلق حينا ، وفي شكل احساس بالهوان والهزيمة حينا آخر ، ثم في هيئة حزن قاتل مرة ، وفي قناع استخفاف ساذج مرة اخرى ، حتى كانت النتيجة هي بلبلة هذه النفس ، وتمزقها او عدم توافقها ان صح هذا التعبير .. ومن هنا كان على من يرى « الادب تحقيق التوافق للنفس » ان يعالج هذا الداء ، داء الصهيونية والامبريالية بحيث يحقق بهذا العلاج علاج النفس العربية التي ابتلاها العدو الخسيس بعدم التوافق ..

ونستطيع ان نمضي ما وسعنا المضي مع بقية الآراء المتشعبة في وظيفة الادب وغايته ، لنرى انفسنا آخر الامر عائدين الى الحقيقة التي لا مراء فيها ، وهي وجوب اتجاه الادب بكل قوته الى خوض معركة المصير ، الى جانب القوى الاخرى ـ ضد الصهيونية والامبريالية العالمية .

وسوف يقال ـ كما قيل دائما ـ « ان ذلك توجيه للادب ينافي طلاقته ، أو تقييد يعوق حريته ، او الزام يعارض طبيعته » .. غير ان هذا القول ومثله مما يلقي بحسن نية او بسوء قصد قد فرغ الجادون من تفنيده والرد عليه ، ولم يعد له محل في أي نقاش علمي او ادبي جاد . فالحرية المفروضة للادب لا يعوقها القول بقيمة هذا الادب العظمى وقوته الفعالة ، ووجوب اتجاه هذه القيمة وتلك القوة الى اسعاد الانسان وتحقيق حريته وكرامته ورفاهيته .. على ان المسألة ليس فيها أي الزام او قهر او تسخير ، وانما فيها ترشيد فقط لما ينبغي ان يكون عليه الادب في تلك المرحلة ـ على الاقل ـ من التزام تلقائي يحس به كل اديب نحو وطنه وقومه ، بحيث يجند ادبه باختياره للوقوف به في صف المقاتلين ضد الصهيونية والامبريالية..

وسوف يقال ايضا ـ كما قيل كثيرا ـ « ان ذلك يضعف الادب ، ويجعل فيه كتابات اعلامية ممجوجة ، او في أقل تقدير يهبط به عن المستوى الفني العالي » .. وهذا القول ـ هو الآخر ـ مردود بأن الحديث عن الادب الحق الذي استوفى كل القيم الادبية المطلوبة ، مع اتجاهه موضوعا ومضمونا الى هدف النضال ضد الصهيونية والامبريالية ، ان اي كلام هابط فنيا لا يدخل في حديثنا ، ولا يشفع له حتى نيته أو مجرد معالجته لموضوع نضالي ضد عدونا الضاري .. بل لا بد ان يكون العمل ادبا قبل كل شيء ، ثم يقال عنه بعد ذلك انه ضد العدو وملتزم بقضية العروبة ، او انه يضرب في واد آخر أو يهتم بقضية اخرى ..

وهكذا نرى ان الادب الحق ، والادب الحر ، والادب الصادق ، والادب المعبر ، والادب الناقد ، والادب المفسر ، والادب المعالج ، انما هو الادب الذي يجند نفسه باختياره ليقف في صف المناضلين ضد اعداء العروبة من صهيونية وامبريالية .. وان اي ادب يشغل نفسه بشؤون اخرى ـ ونحن في هذه المرحلة من تاريخنا ـ انما هو ادب أقل ما يوصف به انه ادب مختلف ، او منفصل عن الواقع ، او

غير ملب لمتطلبات العصر .. ان النار اذا شبت في قرية ، فالعمل المطلوب من كل شاهد للحادث ان يسهم في اطفاء الحريق . وليس من الحرية في شيء ان يعتزل ابناء القرية في ركن قصي والنار تأكل قريته .. ان ما تواجهه الامة العربية الآن ربما كان افظع مما تواجهه تلك القرية التي تحيط بها النيران ويتهددها الدمار .. ولذا كان الحديث في وجوب اتجاه الادب الى مواقع النضال ضد هذا الخطر ، حديثا بديهيا لا يحتاج الى ان نقيم عليه اي دليل او ان نتلمس له المبررات ، الا اذا كانت البديهيات تحتاج منا الى هذا الجهد الضائع!

ولكن كيف يمكن ان نفيد من اتجاه الادب هذه الوجهة الصالحة ؟ هل مجرد خوضه معارك النضال ضد الصهيونية والامبريالية هو المطلوب مهما كانت طريقته في هذا العراك النضالي ؟.. في الحقيقة لا بد من ترشيد يمكن معه للادب العربي المناضل ان يؤدي دوره على أتم وجه وأحسنه ، حتى لا يخفق في معركته ، او يسقط في الميدان صريع الحماس وحده ، دون الاخذ باسباب النصر .. لا بد للادب في صراعه ضد الصهيونية والامبريالية من اسس يعتمد عليها ، ومن عدد يأخذ بها ، ومن خطط يتحرك بمقتضاها ، او بتعبير عصري ملائم « لا بد من استراتيجية ادبية «صحيحة» » .. فما هي تلك الاسس او العدد ؟ او ما هو التخطيط السليم للادب العربي في تلك المرحلة ؟ وما الذي يحقق تلك الاستراتيجية الادبية الصحيحة ؟

لا شك في ان الاساس الاول هو المعرفة الصحيحة بالعدو بجانبيه ، الجانب الصهيوني والجانب الامبريالي ، فلا بد من ثقافة كافية للاديب العربي تبصره بالحجم الحقيقي للعدو ، وبكل مخططاته واهدافه ووسائله واساليبه ، كل هذا حتى يتعامل الاديب العربي في صراعه ضد هذا العدو على بينة وبصيرة ، وحتى لا يتورط في اخطاء تهوي بنتاجه الى مهاوي الاخفاق ، فأي جهل بالصهيونية تاريخها وواقعها وخططها واهدافها ووسائلها ، وأي تغافل او غفلة عن الامبريالية وحقيقتها واطماعها وحياتها ومؤسساتها ومراكزها وغاياتها ، يورط الاديب المتصدي لصراع الصهيونية والامبريالية في اخفاق مضحك ويجعل عمله – مهما كان مخلصا – نوعا من « الدونكيشوتية » ومحاربة طواحين الهواء !

والاساس الثاني هو الاقتدار الفني الادبي الصحيح . وذلك بان يكون كل ما ينتج من ادب نضالي ادبا حقيقيا ، مستوفيا أشراط الادب في كل نوع من انواعه بحيث يكون الشعر حقيقيا ، بل عاليا فنيا في مستواه الشعري ، وبحيث تكون القصة قصة حقيقية ، بل رفيعة المستوى في المجال القصصي ، وبحيث تكون المسرحية مسرحية فعلا ، بل عظيمة القيمة في الميدان المسرحي ، وهكذا .. وذلك لكي يتحقق الاثر المطلوب من العمل الادبي ويؤدي وظيفته النضالية عن طريق احترامه والتأثر به والاقتناع بما يريد هذا العمل ان يقول .. وبغير ذلك يفقد العمل احترامه ، وتضيع قيمته ، ولا يكون له تأثير ، او يكون له تأثير عكسي ، بما يجلب من سخط وسخرية وازدراء !

والاساس الثالث ، التشبث بمبدأ الرفض ، بان يرفض هذا الادب الوجود الصهيوني كله ولا يستجيب لاية مصالحة او معايشة معه تحت اي شعار ، كما يرفض السيطرة الامبريالية ، ولا يخضع لضغوطها ولا ينخدع بحيلها ، ولا يطمئن للتعامل معها في اي صورة لان هدفها الاول هو الاخضاع والقهر والاحتواء والابتلاع آخر الأمر ..

والاساس الرابع ، هو التشبث بروح الاصرار ، بأن يصر هذا الادب على النصر في هذا الصراع ضد الصهيونية والامبريالية ، ويهيىء الناس لهذا النصر ، ويحملهم على الاخذ باسبابه الحضارية والسياسية والفكرية ، ويبعد بهم عن التعلق بالاماني والاوهام والاعتماد على الغير ، كما ينأى بهم عن اليأس والتحلل والرغبة في الخروج من المأزق على حساب الكرامة والتاريخ والعرض والحاضر والمستقبل جميعا !

والاساس الخامس ، هو الاعتماد على المنطق الانساني ، الذي يقنع اي انسان في اي مكان . ومن هنا يجب ترك المبالغات المتورمة ، والعنتريات الصاخبة ، على ان يحل محل ذلك كله اتزان عقلي ، وروح انساني ، ومنطق عصري ، يشد عقل المتلقي ويهز قلبه ويكسبنا آخر الامر تأييده ، مهما يكن لون هذا المتلقي او جنسه ، او مكانه من خريطة العالم ..

والاساس السادس ، هو الجنوح الى التفاؤل الواعي ، والى الامل المتزن بحيث يتجنب ادبنا المناضل اليأس والسلبية ، لما فيهما من منافاة لروح النضال ، وبحيث ينأى ادبنا كذلك عن التفاؤل الساذج ، الذي لا ينبني على اساس من وضوح الرؤية ولا يقوم على ركيزة من المعرفة الحقيقية بالابعاد المختلفة لكل شيء يمس المعركة .. ومن هنا كان على ادبنا في معركته ضد الصهيونية والامبريالية ان يتجنب كل ما يلقي ظلال اليأس على النفوس ، ومن باب اولى عليه ان يترفع عن لطم الخدود ، وشق الجيوب ، وتحقير الذات او لعن الماضي ، وتقيه من الحاضر والاسترابة في المستقبل !! وليس معنى ذلك الضحك في موطن البكاء أو المدح في مواقف القدح ، او تسمية الهزيمة باسم الانتصار ، ولكن معناه التعبير عن كل شيء بما يستحقه ولكن دون فقدان روح الامل الواعي الذي يبحث عن نور فجر الغد في أحلك ظلمات الامس واليوم !

وبعد هذه الاسس التي أراها ضرورية لادبنا العربي في صراعه ضد الصهيونية والامبريالية ، ارى ان الحديث لا يتم الا بما يكمل هذه الاستراتيجية الادبية المطلوبة والذي يكمل هذه الاستراتيجية الادبية هو ان نتوجه بهذا الادب الى الداخل والى الخارج معا ، بحيث لا يقصر هذا الادب العربي النضالي على المجال الداخلي وحده.. وهذا يقتضينا ان نختار دائما من نتاجنا الادبي ما يمكن ان نترجمه الى اللغات الحية ، وان نوصله بطريقة او باخرى الى القارىء الاجنبي، وبخاصة في البلاد التي نحتاج ان نكسب فيها انصارا لقضيتنا .. ومن الممكن ان نقوم بهذه المهمة « المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، التابعة لجامعة الدول العربية » باعتبارها المنظمة الاقرب الى الميدان الادبي ، مع صفتها العربية الشاملة التي تضع على ابنائها مسؤولية عربية قومية مشتركة تلك المسؤولية .. وفي هذه المناسبة ، ارى ان من الممكن تنويع الاساليب التي يصل بها الادب العربي المناضل الى المتلقي الاجنبي . فمن الممكن تسجيل اشعار على اسطوانات بعد ترجمتها ترجمة ممتازة ، وادائها باصوات مختارة .. ومن الممكن ترجمة مجموعات من القصص القصيرة ، ومختارات من الروايات ، وطبعها وتسويقها عن طريق بعض دور التوزيع المحايدة ، بعد اغرائها بالربح الوفير ، الذي لا مانع – في رأيي – من ان يكون مغريا بالاسهام الحقيقي والتحمس لنشر مثل هذه القصص والروايات، ثم من الممكن ان نترجم بعض المسرحيات ونهيأ لها فرص العرض في بعض المسارح الكبرى في اوروبا وامريكا وغيرهما ، ولا يصح ان نبخل بأية نفقات تبذل في سبيل توصيل هذا الادب المسرحي النضالي العربي المسهم في قضية العرب ضد الصهيونية والامبريالية .. على انه اذا تعذر الاخذ بهذا كله فلا اقل من تنشيط مراكزنا الثقافية في الخارج ومكاتب الجامعة ، وسفارات البلاد العربية ، وما نشترك فيه من معارض ومؤتمرات وندوات وحلقات في مختلف بلاد العالم ، لا مانع من تنشيط كل هذه الاجهزة لكي نسهم بطريق واضح دقيق ودائم

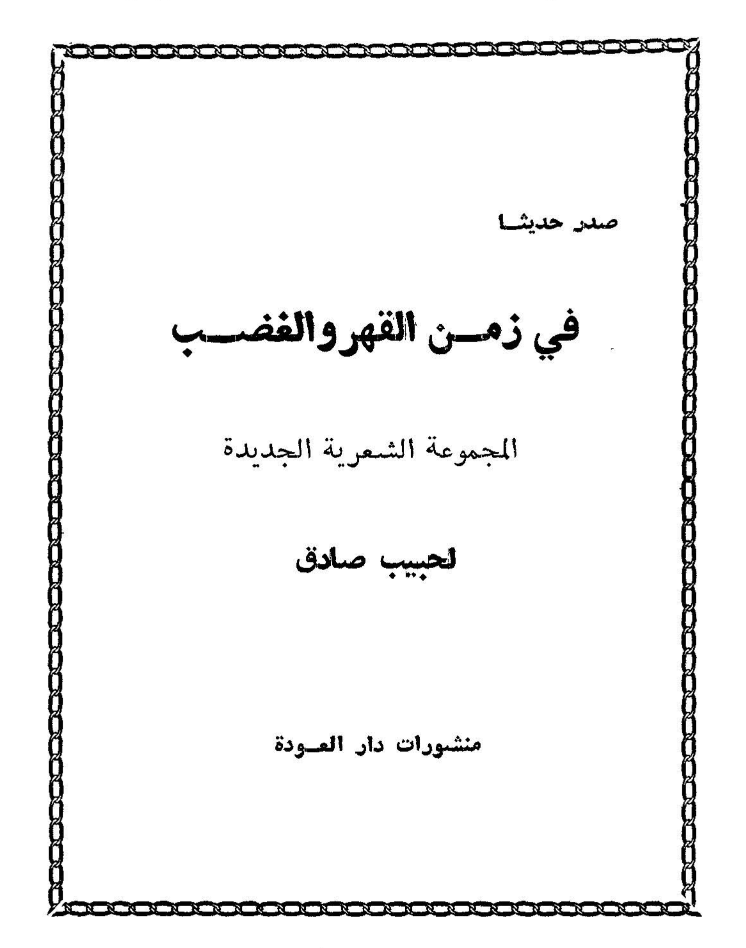
في توصيل ادبنا العربي النضالي الى المتلقي الاجنبي ، ومن طريق هذا الادب نكسب كل يوم مزيدا من الاصدقاء ، ونحظى بمؤيدين عديدين ، لا شك انهم يمارسون باستمرار تزايداً في ضغط الرأي العام العالمي لما فيه صالحنا ونجاح صراعنا ضد اعدائنا الصهيونيين والامبرياليين . كل هذا طبعا بالاضافة الى توجه الادب اساسا الى الداخل ، حيث يبصر العربي بقضيته عن طريق الفن ، ويشحذ دائما عزيمته ويقوي ارادته ، ويجدد نسيج نفسه ، ويحول بينه وبين اليأس او التردد او التبرم او عدم الاستمرار في النضال والاقتراب من هاوية الاستسلام الذي فيه النهاية لا قدر الله !

بعد ذلك كله هناك كلمة تحتاج الى شيء من الايضاح ، وهي تتعلق بالتفسير الحقيقي لمصالح الامبريالية . فالمعروف ان معنى هذا المصطلح هو الاستعمار الجديد ، والمعروف ايضا انه ينصب اساسا على تلك الدول الاستعمارية الغربية التي عرفت تاريخيا بالاستعمار القديم ثم غيرت جلدها اخيرا ، وعملت على السيطرة بطريق آخر هو طريق الاحتكارات والاحلاف ومراكز القوى والقواعد ، وما الى ذلك .. وما دامت المسألة في الاستعمار الجديد ـ او الامبريالية ـ مسألة سيطرة وضغط ومحاولة كسب للدول الكبرى على حساب دولة او دول صغرى ، فانا ارى ان اصطلاح الامبريالية لا ينبغي ان يقصر على دول بعينها ، وأرى ايضا ان كل دولة كبرى تميل الى الضغط والافادة من دولة صغرى هي دولة فيها امبريالية وان تسمت بأي اسم آخر .. فليكن مصطلح الامبريالية اذن معادلا للقهر والسيطرة والضغط وطلب مراكز نفوذ ، وليكن صراعنا ضد الامبريالية موجها لكل من يحاول ان يسيطر علينا او ان يضغط على واقعنا، او ان يستغل ظروفنا او ان يطلب مراكز نفوذ منا . اننا نعادي الصهيونية ومن يعاونونها في المقام الاول ، وصراعنا ضدهم هو صراعنا من اجل الحياة والكرامة .. ثم اننا مستعدون في الوقت نفسه لان نعادي وندخل في صراع ـ مهما كلفنا ـ ضد من يأخذ نفس الطريق الذي سلكه من عاونوا الصهيونية ومكنوها من طعننا وسلب ارضنا .. اننا على استعداد لان نعادي كل من يسيء الينا ويضغط علينا ويحاول اية سيطرة مستغلا ظروفنا، حتى ولو لم يقف علنا مع الصهيونية ، ولو لم يسلك اسما في عداد الامبريالية فصراعنا لا يهتم بالاسماء ، وانما يهتم بالافعال ، وصراعنا لا يأخذ بالشعارات ، وانما يأخذ بالتصرفات ، وهو يحسن تقدير الحسنات والسيئات !

بقيت كلمة ، او بقي سؤال : هل معنى كل ما تقدم ان يكون كل نتاجنا الادبي في كل نوع من انواعه ، وفي كل شكل من اشكاله، حديثا عن الصهيونية والامبريالية ـ بهذا المفهوم الموسع والواقعي للامبريالية ـ بحيث لا نجد قصيدة ولا قصة ولا رواية ولا مقالة ولا مسرحية الا في موضوع واحد هو الصهيونية والامبريالية ؟ الجواب بطبيعة الحال : لا !! فالمقصود من كل ما تقدم ان يكون هذا الواقع النضالي الذي تخوضه امتنا العربية منعكسا في أدبنا العربي ، نتيجة لتجميد الاديب لنفسه ، أو ـ على الاقل ـ لاستشعاره واقع امته ، بحيث نجد صورة لهذا الاستشعار ـ بطريقة او باخرى ـ في كل ما ينتج من ادب .. ومن هنا ليس بلازم ـ بل ربما ليس بمطلوب ـ ان يكون كل عمل ادبي نصا في موضوع واحد هو الصهيونية والامبريالية ، بل اللازم أن يلتحم الادب بالواقع العربي ، وان يهدمه، وان يفسره ، وان ينقده ، وأن يعبر عنه ، وان يخلق التوافق النفسي فيه ، كل ذلك وقضية صراع العرب ضد الصهيونية والامبريالية هي القضية التي تلقي ظلالها هنا وهناك ، وتتسرب عناصرها هنا وهناك ، ونلمح ابعادها وآثارها هنا وهناك . وخلال ذلك كله يكون بث الاصرار واشاعة الرفض وتأكيد الصمود ، وشحذ الامل ، والاقتراب بالجماهير من فجر النصر ... وخلال ذلك كله ايضا يكون الفن الادبي العالي بكل اشكاله الشعرية والقصصية والمسرحية ، وبكل اسسه الفنية وروحه الانسانية ومعالجته الصحيحة ، ومن هنا يكون المنطلق الى العالم الخارجي حيث تكون الترجمة والنشر والتوصيل الصحيح الى المتلقي غير العربي ...

وهكذا لن ينغلق ادبنا بهذه الدعوة فيصير موضوعا واحد ، وانما سينداح ويتسع ليتناول كل التجارب والمواقف والاحاسيس والانفعالات ، كما انه سيتشكل في كل القوالب والاشكال والصور ، وسيكون كادب اية أمة راقية تعرف معنى الادب واسلوب الفن . ولكنه فقط سوف يتلون بطابع المرحلة ولون الفترة وروح العصر ، حتى يرى فيه غيرنا حقيقة واقعنا ، وحتى يرى فيه ابناؤنا صورة حاضرنا وانعكاس احداثه علينا . وحتى نستطيع قبل ذلك وبعد ذلك ان نوظف هذا الادب بقيمته الفخمة وقوته الهائلة في أهم ما يشغل حياتنا الحاضرة ويمس تاريخنا ، ويهدد مستقبلنا الآتي ، وهو « صراعنا ضد الصهيونية والامبريالية » فان لم يكن هذا كان الادب لونا من اللهو الذي لا يليق في ساعات الجد ، او نوعا من الترف الذي لا يطلب عندما تلح الحاجة على الضرورات ... ومن حسن الحظ أن معظم ادبنا العربي يتجه تلقائيا الى تلك الوجهة الحيوية الصحيحة ، وهي وهي وجهة النضال ... وان كان في كثير من نتاجه يحتاج الى ترشيد ، حتى يتجه وجهته وقد تسلح بما يبلغه غايته ... وبعض تلك الاسلحة هو ما حاول هذا المقال ان يبصر به . وارجو ان يكون قد اصاب .

القاهرة — **احمد هيكل**


صدر حديثا

في زمن القهر والغضب

المجموعة الشعرية الجديدة

لحبيب صادق

منشورات دار العودة

حركة الشعر العربي الحديث : قيمها واتجاهاتها وتطورها

بقلم
احمد ابو سعد

الشعر العربي الحديث يقصد به في هذه الدراسة الشعر الذي انطلق بعد الحرب العالمية الثانية ، ثم أخذ في النمو حتى اصبح مدرسة أدبية ذات اتجاهات مختلفة .

ولا أظنني مجانبا الصواب حين أسرع الى القول ان الشعر الذي اعتدنا ان نطلق عليه في مدارسنا وفي جامعاتنا اسم الشعر الحديث، ليس له من الحداثة ما تتسع له هذه الكلمة بمعناها الشامل الدقيق، فالحداثة نقيض القدمة ، والحديث الجديد من الاشياء ، والحدوث كون الشيء لم يكن ، ومحادثات الامور ما ابتدعه اهل الاهواء من الاشياء التي كان السلف الصالح على غيرها .. وهذه المعاني كلها لعلها تنطبق على ما ظهرت به حركة الشعر العربي الحديث في وثبتها الاخيرة اكثر من انطباقها على ما ظهر من الشعر قبلها .

الشعر قبل الحركة الجديدة

مرّ الشعر قبل حركته الاخيرة بتيارين اثنين :

التيار الاول ، وهو تيار الاتجاه نحو بعث القديم واحيائه والنسج على منواله ، وكان ذلك بسبب انتشار الوعي القومي في البلاد ، وما صحبه من رد فعل ضد نزعة التتريك التي نادى بها جماعة من العثمانيين الاتراك . ونتيجة لذيوع المعرفة والعلم بين الناس واطلاع العرب على التراث عن طريق نشر المخطوطات القديمة الذي اعقب ظهور الطباعة وانتشار الصحافة والنوادي والجمعيات الادبية .

وقد تزعم هذا التيار محمود سامي البارودي وابراهيم ناصيف اليازجي اللذان كانا المهدين لانطلاقة اخرى حمل رايتها احمد شوقي واسماعيل صبري وحافظ ابراهيم واحمد محرم ومحمد عبد المطلب وعلي الجارم ومحمد الاسمر في مصر ، والشاذلي خزنه دار في تونس ، ومحمد سعيد العباسي في السودان ، والرصافي والزهاوي والكاظمي والشبيبيان رضا وباقر وخيري الهنداوي ثم محمد مهدي الجواهري في العراق ، وفؤاد الخطيب وتامر الملاط وشبلي الملاط ووديع عقل في لبنان ، ومحمد البزم وخليل مردم وخير الدين الزركلي وشفيق جبري ومحمد سليمان الاحمد (بدوي الجبل) في سورية ، ومصطفى وهبه التل وعبدالرحيم محمود وعبدالكريم الكرمي (ابو سلمى) في الاردن وفلسطين .

ويمكننا القول ان البارودي واليازجي قد سجلا فضلا لا ينكر في نهضة الشعر وتخليصه مما علق به من شوائب الضعف والركة خلال عصور الانحطاط .

اما شوقي وأقرانه ، ففضلا عن اسهامهم في انقاذ الشعر من الهوة السحيقة التي كان قد تردى فيها منذ عصر العباسيين المتأخر حتى بدء النهضة الاخيرة ، بتخليصهم اياه من آفات الصنعة اللفظية والصبغ البديعي الذي قتله ، ومحاولتهم الجاهدة ان يعيدوا اليه ديباجته الناصعة التي كانت له في أوائل العصر العباسي .. فانهم قد ساروا به خطوات واسعة في مجال التقدم حين انطلقوا الى معالجة موضوعات اقتضتها ظروف الحياة الجديدة التي فرضت على الشعر ان يكون وسيلة من وسائل النهوض واليقظة القومية ، وان ينبري اصحابه للدفاع عن الحريات ، ويقفوا في وجه الظلم ، ويثوروا على التأخر والجهل والجمود ، ويهدموا صروح الرجعية ، ويرحبوا بالحضارة الحديثة ويعتنقوا مبادئها وافكارها ، وبذلك اضافوا لكتاب الشعر فصولا جديدة لم يشتمل عليها من قبل ، وهي الفصول التي باتت في ما بعد تضم الشعر الوطني والشعر الاجتماعي والشعر السياسي والشعر الذي دار حول مستحدثات العلم ، وحاولوا مخلصين سد بعض الثغرات في ما جربوا ان يطالعونا به من الشعر التمثيلي والشعر الملحمي وشعر المثل الخرافي .

الا ان هؤلاء في ما قد اضافوا من جديد يتعلق بموضوع الشعر، لم يخرجوا عن حدود الاقدمين وترسم خطاهم في شكله . ولذلك ظلت تجربتهم غير مكتملة ، وظلوا كذلك مفتقرين الى الخيال والتصوير بدلا من الاخبار والتقرير ، وقاموا بوظيفة الداعية والخطيب اكثر من قيامهم بوظيفة الشاعر الفنان ، وانحصر اثر الشعر عندهم في الظرف المحلي الآني من غير ان يمتزج بالشعور الوجداني او يخرج الى الشمول الانساني .

وقد تلا هؤلاء فريق ممن تأثر أكثر منهم بالثقافة العصرية امثال أمجد الطرابلسي وأنور العطار في سورية ، وبشارة الخوري (الاخطل الصغير) وأمين تقي الدين ونقولا فياض والياس فياض في لبنان ، ومحمود غنيم في مصر ، والصافي النجفي في العراق ، ويؤلف هؤلاء مع خليل مطران شاعر القطرين مصر ولبنان الذي سبقهم جميعا ، حلقة بين شعراء التيار الاول الذين تحدثت عنهم عما قليل ، وشعراء التيار الثاني الذين سأتحدث عنهم الآن .

التيار الثاني ، وهو تيار الشعر الرومنطيقي الذي كان اول من دعا اليه المهجريون جبران ورفاقه ميخائيل نعيمة ونسيب عريضة وايليا ابو ماضي ورشيد ايوب والمعلوفان فوزي وشفيق في مطلع القرن العشرين . وجماعة الديوان (المازني والعقاد وعبد الرحمن شكري) ثم جماعة ابوللو الذين تتلمذوا على مطران كاحمد زكي

ابو شادي وابراهيم ناجي وحسن كامل الصيرفي ومحمود حسن اسماعيل ومحمد عبد المعطي الهمشري وصالح جودت ومختار الوكيل وعلي محمود طه في مصر وابو القاسم الشابي في تونس والتجاني يوسف بشير في السودان وعمر ابو ريشة ونديم محمد في سورية ثم نفر من لبنان وطن المهجريين الام امثال اديب مظهر ويوسف غصوب والياس ابو شبكه وسعيد عقل وصلاح لبكي وامين نخلة والياس زخريا ورشدي المعلوف، وبعض هؤلاء اصطبغ شعرهم في ما بعد بصبغة الشعر الرمزي الذي كان من اشد دعاته الشاعر سعيد عقل . وليس هنا مجال مناقشتهم في مقدار حظ شعرهم من الرمزية او البرناسية ، وما اذا كان هذا الشعر رومنطيقيا في الاصل تلون بالوان الرمزيين والبرناسيين الذين قرأهم شعراؤنا وتعصبوا لهم ونقلوا الينا وجهة نظرهم في الشعر وطرائقهم في التعبير .

ويمكننا ان نعدّ شعراء هذا الدور الطلائع التي مهدت لحركة الشعر العربي الحديث باعتراف زعماء الحركة انفسهم ، وأبرز ما طالعنا به هؤلاء الشعراء :

١ ــ نفورهم من التقليد واحتجاجهم على اساليبه التي تقيد الحرية ولا تترك مجالا للابداع المبتكر .

٢ ــ انصرافهم عن القضايا العامة الى التجارب الشخصية وتلقائيات الذات .

٣ ــ مناداتهم بوحدة القصيدة بدلا من وحدة البيت ، والادب المهموس بدلا من الادب المنبري .

٤ ــ توثيقهم الصلة بين الشعر وغيره من الفنون الجميلة ، ونظرتهم اليه على انه قيمة انسانية لا قيمة لسانية ، واعتقادهم بأن كل شيء يصلح أن يكون موضوعا له .

٥ ــ اطلاقهم العنان للعواطف وتعريتهم المشاعر والاحاسيس وسموهم بالحب سموا يبلغ حد التقديس .

٦ ــ دعوتهم الى تجاوز افق المحسوس الى ما وراء الحس والسكن في قلب الاشياء .

وقد كان الدافع الى هذا كله : رد الفعل للجمود الذي عاش فيه شعراء التقليد ، ونمو الطبقة المتوسطة واحساس المتعلمين من ابنائها بذواتهم ، ونشوب صراع بين هؤلاء وبين مجتمعهم الذي عاشوا فيه ، وشعورهم بضغط الغربة والكبت والضياع والقلق على المصير ، واصابتهم بما دعي في اوروبا ((مرض العصر)) ، وفشل اكثر ثورات طبقتهم ، وتبلبل ظروفهم السياسية والاجتماعية التي نشأوا في ظلالها ، يضاف الى ذلك عوامل اخرى لم يكن من سبيل لنجاتهم من التأثر بها ، وهي : اتصالهم بالثقافة الانكليزية في مصر والسودان ، والفرنسية في لبنان ، وعيش قسم منهم في بيئة جديدة في المهجر اطلعتهم على ما لم يكن لهم اطلاع عليه ودفعتهم الى اتخاذ هذه المواقف .

وقد أثمرت مواقفهم هذه نوعا من الشعر اتجه به اصحابه الى تحقيق وحدة القصيدة والاستناد فيها الى الخيال اكثر من الاحساس المباشر ، والمزج بين الحواس على طريقة الرمزيين ، وتحليل عواطف النفس ووصف حركاتها ، والتصرف بالاوزان باجتزائها شأن الاندلسيين على تماد اكثر ، وتحميل الكلمات فوق ما تعودت حمله بالاعتماد على الشائع منها والموحي والذي يحمل احيانا معنى الرمز .

وقد وفقوا كذلك الى اقامة الانسجام بين اللفظة والحس الذي تعبر عنه ، وحولوا المعنى الى صور واطياف تزيد في التأثير ، وتوسلوا الى ابراز الفكرة بوصف الطبيعة وتوليد الصور منها بقوة ايحائية ، فضلا عن اتخاذ شعرهم لون الروح المتميزة لكل شاعر ، وتجاوزهم فيه احيانا قضايا الذات الى واقع اشياء الوجود ، وعرضهم الذات والرؤى التي تكاد تكون مرضية ، وتطورهم بالتشبيه من تشبيه قديم منقول عن واقع العين والنظر يراد به عقد مماثلة بين مشهدين في الخارج ، الى تشبيه حديث منقول عن واقع النفس والظلال الشعورية يراد به التعبير عن واقع الاشياء في الوجدان دونما نظر الى التماثل الخارجي .

غير ان الذي يجدر بنا ذكره ــ ونحن بصدد تقييم الحركة الرومانطيقية في الشعر ــ هو ان هذه الحركة على الرغم من الشوط الذي قطعته في مجال التجديد فان تجديدها ظل في حدود اللفظ والمعنى ولم يتجاوزهما الى القالب او الشكل .

بلى انتفع عدد من أفرادها ، وبخاصة اللبنانيون منهم ، بخصائص البحور ، وامر جزئها ومنهوكها ومشطورها وامتزاج الاجزاء بعضها ببعضها الآخر ، فخرجوا على النظام التقليدي للاوزان وطريقة توزيع تفعيلاتها ، وأنكروا وحدة القافية ، ثم ساروا في تقصير اشطر البحور ، فوقفوا عند الحد الذي اختاروه من اجزائها ، حتى لقد اصبح الشطر عندهم في احيان كثيرة تفعيلة واحدة ، وهو ما نلمسه بوضوح عند الشاعر المهجري نسيب عريضة والشعراء المصريين لويس عوض وخليل شيبوب وعلي احمد باكثير ، ومعظم شعراء لبنان من نقولا فياض الى فؤاد الخشن .. الا انهم في ما فعلوه لم يتوصلوا الى تغيير بنية القصيدة وتصميمها الهندسي أو بنائها بناء عضويا ، وظلوا يفهمون من وحدتها وحدة الموضوع لا وحدة المشاعر وما تستلزمه هذه الوحدة من ترتيب الصور والافكار ترتيبا تتقدم به القصيدة شيئا فشيئا حتى تنتهي الى خاتمة يستلزمها ترتيب الافكار والصور ، وبهذا ظل الشكل عندهم شكلا يتحرك ضمن اطر الوشاحين من مغاربة واندلسيين .

وانني بنفيي عن هؤلاء الشعراء توصلهم الى التجديد البالغ الكمال لا انفي عنهم اثرهم الذي احدثوه في من جاء بعدهم من الشبان الذين تفتحت مواهبهم ونمت ملكاتهم في ظلالهم امثال كاتب هذه السطور وميشال بشير وعاطف كرم وغنطوس الرامي وجوزف نجيم وفؤاد الخشن ومصطفى محمود وجورج غانم في لبنان ، ونزار قباني ووصفي قرنفلي وشوقي بغدادي في سورية ، وصفاء الحيدري وحسين مردان وكريم الوتري وعبد القادر رشيد الناصري في العراق ، وحمزة شحاتة ومحمد حسن عواد وطاهر الزمخشري وحسن القرشي في السعودية ، ومنور صمادح ومحمد العروسي المطوي ومحمد العربي صمادح في تونس ، ولطفي جعفر امان وابراهيم الحضراني واحمد الشامي وعبدالله البردوني في اليمن ، ومحيي الدين صابر وحسن عزت في السودان ، وكمال نشأت في مصر ، وفدوى طوقان في فلسطين ، وامثال رواد الشعر الحر انفسهم في الفترة الاولى من حياتهم . وبين هؤلاء الشعراء من تطور ولحق بركب الحركة الجديدة ، وبينهم مَن هجر الشعر ، وبينهم من توقف عند حد الموجة الرومنطيقية ولم يتجاوزها الى ما بعدها .

تباشير الحركة الجديدة وروادها الاوائل

بعد سنة ١٩٤٥ خرج العالم من الحرب الثانية بمجموعة من الظواهر سجل فيها عقب انتصار الديمقراطية على النازية وتوأمها الفاشية دخوله في طور حضاري جديد هو طور الانسان العادي والعالم الواحد ، وقيام مقاييس وقيم جديدة لم تعهد من قبل ، واختلاف جميع نواحي الحياة عما كانت عليه في الماضي ، أو تبدلها وتكيفها وتمهيدها السبل لخلق نوع جديد من الناس هو ما نسميه الانسان الحديث .

وقد اثرت هذه الظواهر في المنطقة العربية التي اخذت تتسرب اليها روح العصر عبر انواع من الثقافات التي انتشرت بعد الحرب ، كالثقافة الوجودية والثقافة الماركسية ، ولم يكن بد من أن يفعل هذا التأثير فعله في مجموعة الادباء الذين ولدوا بين الحربين ، وتيسر لهم الاطلاع على الادب العالمي بلغته الاصيلة بواسطة المجلات والكتب التي

كانت تنقل ترجمات له ، فاذا نحن امام تيار ادبي متميز طلع علينا من العراق هذه المرة ومنه انتقل الى البلاد العربية ، وكان معظمه من الشعر الذي اشتهر في ما بعد باسم « الشعر الحر » .

ما هو الطابع المميز لحركة الشعر الحر ، وما قيمها التي ارتكزت عليها يوم طلعت في مهدها في العراق سنة ١٩٤٧ بريادة نازك الملائكة وبدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي وبلند الحيدري ؟

لن اذكر الخصائص التي تشترك فيها هذه المدرسة مع سابقتها من مثل عدم التقيد بقافية واحدة او ببحر تام ، والتخفف من عبء الالفاظ القاموسية والجماليات الشكلية ، واستخدام الصور كاحدى الوسائل الفنية للتعبير عن المعنى تعبيرا موحيا لا تقريريا زاعقا ، وغيرها من الخصائص التي اتصفت بها اشعار جماعة الديوان والمهجر وأبوللو والمدرسة اللبنانية ، ولكني سأحاول الاقتصار على ما تفردت به مدرسة الشعر الحر دون سواها في العقد الاول من حياتها .

الخصائص التي تتميز بها قصائد حركة الشعر الحر من حيث الاسلوب هي التالية :

الخاصية الاولى ، وهي خاصية تحقيق وحدة القصيدة ونموها العضوي وبنائها بناء ذرويا مستمدا من تقنيه القصة وفن الدراما الحديثة وما يستتبعه هذا الفن من الوعي الكامل ببدئها ووسطها وختامها ، والتعبير عن التجربة وهي تتشكل وتنمو مرحلة أثر مرحلة متأثرة بحركة الزمن ، متطورة من قلبها ، والانعطاف بها نحو التحليل بدلا من التركيب ، وادخال اسلوب الحوار ومقومات الحكاية واستعمال لغة التحديث وهي صفات عادت على القصيدة الحديثة بالفوائد التالية :

أ – خلصتها من التركيب البنائي المسطح ذي البعدين ، وجعلتها متماسكة الاجزاء بحيث لو قدمت وأخرت في ترتيب ابياتها لاختلت او لفقدت جزءا كبيرا من تأثيرها .

ب – مكنتها من تقديم التجربة ذاتها لا خلاصتها ، بتصوير كل الجزئيات وابراز العناصر والجذور التي تساعد على نقل القارىء الى جو الحدث وعالمه الزاخر بالحركة وبالانفعال .

ج – ادخلت فيها لغة الحوار وجعلتها تتسع للقصة والدرام بمفهومهما الفني .

د – وجهتها نحو الاعتماد على الشخصيات بتحليلها على هيئة ملامح تومىء الى كيان خاص .

هـ – فرضت عليها التعامل مع الكلمات على أساس اندماجها بالحياة وترددها على الافواه .

ويمكن استخلاص الشواهد من أي ديوان شئت من دواوين السياب ونازك وبلند وعبد الوهاب البياتي .

الخاصية الثانية : وهي خاصية تلاؤم الشكل مع المضمون والنمو معه نموا حيا متفاعلا ، ينظر فيه الى امتداد المعنى وانقباضه ، وتشكيل القصيدة التشكيل الذي تقتضيه الدفعة الشعورية ومراعاة ذوق العصر وحساسيته ونبضه ، وانتقال المجتمع من البيئة البدوية المحافظة ذات الطابع المحفلي الذي يعتمد على الخطابة وايقاعها المجلجل الرتيب ، الى البيئة المتحضرة التي يقوم فيها الشعر بوظيفة التأثير في الناس عن طريق القراءة وما تعتمد عليه من همس وايحاء لا عن طريق الالقاء .

وقد ادت هذه المبادىء الى ايقاع جديد عماده اقامة القصيدة على « التفعيلة » بدلا من « الشطر » وتحطيم استقلال « البيت » والقضاء على عزلته ، من اجل دمجه مع الابيات الاخرى في بناء فني متماسك ، والتحول عن الموسيقى التي تعتمد على الاذن وحدها الى الموسيقى التي تعتمد على كيان النفس الحساسة كله ، واعطاء الاهمية القصوى للموسيقى الداخلية التي تتسرب من اعماق الشاعر في أمواج عفوية أصيلة لتطغى على التقطيع الخارجي ، ولتعطي القصيدة نوعا من العمق النغمي المتسع الاصيل ، وهذا ما جعل الحركة الموسيقية تتموج من كل الابيات في القوافي الداخلية – وهو ما تميز به بلند الحيدري على الخصوص – لا أن تتمركز في نهايتها بالقافية . وهو ما أدى بالتالي الى اتحاد الشكل بالمضمون .

الخاصية الثالثة : وهي التعبير بالصور تعبيرا بنائيا يجري وراء الصورة الرمز او الصورة الشيء أي الصورة المركبة بدلا من الاوصاف والتشابيه والاستعارات ، ويؤثر اللفظ المتداول الذي يحمل ارتباطات شعبية عامة ، ويتوخى البساطة التي يستمدها من بساطة الارياف وأساطيرها وحكاياها وفولكلورها الفني بالتعابير والصور والرموز . وقد نشأ عن هذه الخاصية :

أ – ان الصور أصبحت نسيجا موحدا بعد ان كانت تقوم في كثير من الشعر القديم على الاستقلال او التفكك . وباتت تشارك في تنمية العمل الفني تنمية داخلية ، بعد ان كانت معزولة عن سياقه ، وتقصد لذاتها . ولم تعد تلتقط في حالة من الجمود ، بل عبر حدوثها وتحركها ، وصار الشاعر يعانيها معاناة ولا ينقلها نقلا أي انها باتت تنبت من عواطفه وتولد مع وجدانه لا من محفوظات ذهنه .

ب – انها اغتنت بكثير من الاشارات والرموز الاسطورية والدينية التي اخذ شعراء هذه الحقبة يستخدمونها بوفرة ليستفيدوا مما فيها من أبعاد قديمة ، وقيم متراكمة ، وليعطوا بوساطتها قصائدهم عمقا اكثر من عمقها الظاهر ويمنحوها معنى جديدا تستمده من التجربة الشعرية التي تلتحم بها ومن السياق الخاص ، او ليؤكدوا صلتهم بجمهور قرائهم بواسطة الاشارة اليها ، وهو ما عمد الى فعله بدر شاكر السياب على الخصوص جريا على سنن الشعر الغربي كما صرح هو نفسه .

ج – ان لغتها اكتسبت ملامح لغة الحديث العادي ودفئه وما يتمتع به من الفة لعلها اكثر ما كان يحتاج اليه الشعر العربي لتعود اليه حيويته ولتكون له القدرة على حمل نبض عصره والنفاذ بمضامينه الى قلوب قارئيه .

هذا بما خص الشكل ، واما المضمون فانه يتراوح بين نوعين :

١ – النوع الذاتي الرومنطيقي المطعم بالشعر الوجودي والشعر السريالي الذي يفيض مضمونه بالالم والشعور بفراغ أنفس أهله ووحدتهم الروحية وسأمهم من الحياة وضجرهم من سيرورتها ورتابتها وقلقهم على المصير وايمانهم بالعدم وهو ما تفصح عنه قصيدتنا « العقم » و « ساعي البريد » لبلند الحيدري في ديوانه « أغاني المدينة الميتة » وقصيدة « مسافر بلا حقائب » لعبد الوهاب البياتي في ديوانه « اباريق مهشمة » وقصيدة « جامعة الظلال » لنازك الملائكة في مجموعتها « شظايا ورماد » .

وقد نما هذا النوع خلال الحرب الثانية على أيدي هؤلاء الشبان الذين فتحوا أعينهم على الوجود فلم يجدوا فيه ما يسر ، رأوا الجمود والعذاب والصرامة والتزمت والضغط وكبت العواطف ، فانسحبوا من الواقع ولم ينسحبوا معه ، وراحوا يمارسون اليأس ممارسة أدبية وفلسفية تستمد عناصرها من « سارتر » و « كامو » .

٢ – النوع الواقعي الحديث او الواقعي الاشتراكي : الذي يتجه أصحابه الى الحياة ويحتفلون بالواقع لا ليعرضوه ويصوروه ولكن لينقدوه ويغيروه مستوحين ايديولوجيتهم التي تؤمن بالانسان وبحبه وبارادة الحياة الكامنة في أعماقه ، وتحرص على اظهار نواحي الخير والتفاؤل الى جانب تلك النواحي القاتمة التي ترد اكثرها الى فساد النظم والحياة لا الى خلل في طبيعة الوجود .

وأصحاب هذا الاتجاه يختلفون بانتاجهم عن الذين سبقوهم ، فبينما نحن نرى الذين جاءوا قبلهم يحتفلون اما بالموضوع دون الذات على طريقة التقليديين ، واما بالذات دون الموضوع على طريقة

الرومنطيقيين ، نرى هؤلاء يحتفلون بالفرعين معا ممتزجين ، يحتفلون بالذات ويحتفلون بالموضوع ، ويربطون المحلي الخاص بالكوني الشامل، ويقفون الى جانب العلم والتاريخ في تادية مهمتهما منادين بأن لا حرية للفرد الا بتحرر المجموع ، وان بحث المرء عن سر العادة او الشقاء ليس في داخل ذاته وانما خارجها ، اذ النظرة الى الذات يجب ان لا نوجه اليها كعنصر مستقل ، وانما كجزء من وضع اجتماعي واقتصادي من شأنه اذا تغير ان تتغير الاسباب التي تعكس في النفوس الحزن والالم والشعور بالغربة والضياع والوقوع في دوامة السأم . وهذا يظهر في اشعارهم التي نرى فيها هذا الدق الدائم على أوتار الدعوة الى التحرر من أوهام القديم ، ومحاربة روح اليأس والخوف والمرض والايمان بالتطور والانسان وقدرته على حذف الواقع وتبديله والسيطرة على الطبيعة والتحكم بالمصير .

وهؤلاء بما ذكرنا يتميزون بمميزات عديدة أهمها :

أ ـ فهمهم التجربة الذاتية في ضوء الواقع الانساني العام لا في عالم الذهن المجرد .

ب ـ جمعهم بين حقائق الوعي الاجتماعي وحرارة الانفعال الشخصي.

ج ـ نفاذهم الى جوهر القضايا وطرحهم الغنائية بمفهومها الرومنطيقي وتطويرهم المضامين من الوجدانية الخالصة الى ما يمكن ان يسمى الوجدان الفكري الذي يساير التقدم العلمي العالمي .

د ـ نزوعهم الى العالمية في اغراضهم وموضوعاتهم ، وارهاف حواسهم صوب معارك التحرير الدائرة لا في انحاء الوطن العربي فحسب بل في العالم بأسره . وتمثيلهم بأشعارهم في الوقت نفسه جماع خصائص بلادهم وقسماتها وخصائص الانسان الحي فيها واشكاله في نضالاته وهزائمه وحبه .

وقد نما هذا الاتجاه في أعقاب سنة ١٩٤٨ وهي السنة التي خسر فيها العرب فلسطين ثم اتسع نموه على اثر ما سار في بلاد العرب يومئذ من موجات التحسس بالواقع ، والشعور بضرورة التعبئة ، تعبئة جميع القوى الواعية للسير في طريق الحرية والخلاص ، ونتيجة لارتفاع صيحات كثيرة تدعو الادب للمشاركة في النضال مع الشعب في معاركه ، وتحث الاديب على ان يحمل حظه من المسؤولية الاجتماعية والوطنية والانسانية وتبشر ب « الادب للحياة » او « الادب في سبيل الحياة » وتنكر ان يكون « الادب للادب » أو الادب لذاته او « الفن من أجل الفن » .

وقد غذى هذه الحركة كتب كثيرة انهمرت على البلاد العربية من لبنان ، وهي تمثل هذا الاتجاه في مراكزه ، وكان اكثرها مترجما عن الادب الاجنبي ، امثال : « الام » لغوركي ، و « الحرب والسلم » لتولستوي و « اشعار من مايكوفسكي » ، و « طريق الحرية » لهاوارد فاست ، وباقات « من شعر ناظم حكمت » ، و منتخبات « من شعر بابلو نيرودا » ، وغيرها من الكتب التي اضطلع بأعباء نقلها الى العربية أفراد لبنانيون ألفوا في مبدأ أمرهم أسرة أدبية سموها « أسرة الجبل الملهم » ثم ضموها الى « رابطة الكتاب العرب » التي تألفت في سورية ، وبعدئذ التفوا حول مجلة « الثقافة الوطنية » التي كان يشرف على تحريرها الناقدان حسين مروة ومحمد ابراهيم دكروب ، وكان هؤلاء موظفين أنفسهم للتبشير بحركة الشعر الحر بمضمونها الثوري الذي ولد في العراق ومنه انطلق الى البلاد العربية، وكان من حملة لوائه بدر شاكر السياب في الفترة الثانية من حياته التي أنتج فيها « الاسلحة والاطفال » و « المومس العمياء » و « حفار القبور » و « انشودة المطر » ، وكاظم جواد في عدة قصائد نذكر منها « الاطفال والمجزرة » و « هي والحرية والآخرون » ، ثم عبد الوهاب البياتي الذي اصبح المثل الاكبر له حتى بداية الستينات في دواوينه « اباريق مهشمة » و « المجد للاطفال والزيتون » و « اشعار في المنفى » .

ويجدر بنا ان نذكر انه قد نشأ الى جانب البياتي شبان عديدون حملوا معه لواء هذا الاتجاه امثال سعدي يوسف ، وعبد الرزاق عبد الواحد ، ومحمد سعيد الصكار ، وموسى النقدي ، ولن نذكر الرديئين الذين وقعوا في الهتاف والمباشرة اذ هم كثر .

وان الامانة العلمية لتقتضيني وأنا أختم الحديث عن تباشير الحركة وروادها الاوائل ان أسجل هذه الحقيقة وهي انه في الوقت الذي كانت تنمو فيه حركة الشعر الحر في العراق كانت تولد في مصر حركة مماثلة اضطلع بريادتها الشعراء كمال عبد الحليم وعبد الرحمن الشرقاوي ونجيب سرور ومحمد فوزي العنتيل واحمد كمال زكي وصلاح عبد الصبور .

كان لاتجاه حركة تحرر الشعر من اوزانه وقوافيه او قوالبه القديمة في الديار المصرية رواد قبل هؤلاء حاولوا نظم الشعر المرسل أمثال لويس عوض وخليل شيبوب وعلي احمد باكثير كما ورد في مطلع هذا الكلام ، ولكنهم لم يتمكنوا من تفجير الحركة على نحو ما فجرها عبد الصبور ورفاقه الذين كانت حركتهم متساوقة مع حركة الشعر الحر في العراق شكلا ومضمونا . ومن هنا فان الخصائص التي أوردتها في السابق على انها خصائص مدرسة الشعر الحر العراقية يمكن انطباقها على شعر المصريين كذلك .

ولا أنسى وأنا أطوف بفكري في البلاد العربية ان الفت النظر الى ان هذه الحركة قد كانت لها أصداء في الشعر السوداني وان الشعراء : تاج السر حسن ، وجيلي عبد الرحمن ، ومحيي الدين فارس ، ومحمد الفيتوري وصلاح احمد ابراهيم كانوا روادها هنالك .

حركة مجلة شعر

وبعد عشر سنوات من بزوغ شمس الشعر الحر في العراق وسطوعها في البلاد العربية ، بأشكالها المتحررة من عبودية القافية ونظام الشطرين ومضامينها المستمدة من الواقعية الاشتراكية والفكر الماركسي ، اجتمع في بيروت عدد من المثقفين الذين ينتمون الى الحزب القومي السوري او القومي الاجتماعي ، وأصدروا مجلة أطلقوا عليها اسم « شعر » واسسوا ندوتها التي عرفت باسم ندوة خميس مجلة شعر . وكان من أركان هذه الندوة او اقطابها العاملين الذين يتحلق الشاعران يوسف الخال رئيس التحرير وأدونيس المدير المسؤول ، وكان من بين مريديها انسي الحاج وعصام محفوظ وشوقي ابو شقرا وخالدة سعيد ومحمد الماغوط وطلال حيدر ، ومن بين المتعاطفين معها خليل حاوي وجبرا ابراهيم جبرا وبدر شاكر السياب وتوفيق صايغ وفؤاد رفقا وسلمى الخضراء الجيوسي وخيري الضامن ورزوق فرج رزوق وسواهم .

صدرت مجلة « شعر » وفي مستهل العدد الاول منها كلمة لارشيبولد مكليش احد رواد الشعر الاميركي يبين فيها ان علاقة الشعر بالحياة هي العلاقة التي وصفها أرسطو ، والتي عاد اليها وردسورث ولو بشيء من الفرق ، أي ان الشعر وسيلة للمعرفة من نوع ما ، وان الذين يمارسون في الادب كتابة الشعر السياسي او يحاولون حل مشاكل عصرهم بقصائدهم ، ليس عليهم الا ممارسة فنهم من اجل اغراض فنهم وبمستلزمات فنهم فقط .

وشن اول هجوم لاقطاب هذه الحركة على تراث لبنان الشعري السابق لها . شنه رئيس التحرير يوسف الخال من على منبر الندوة اللبنانية ، وخصّ فيه الشاعر سعيد عقل المثل الاجود له بالنصيب الاكبر من سهامه . اختار قصيدة من سعيد عقل وقصيدة من عمر بن ابي ربيعة وقابل بين الاثنتين وبين انهما ليستا مختلفتين من حيث وحدة البيت ، ومن حيث التزام الوزن الخليلي والقافية الموحدة ، والنظرة الى الموضوع .. وخلص الى القول : ان شعر سعيد عقل وشعر الذين عايشوه كصلاح لبكي وأمين نخلة هو شعر متخلف عن روح العصر

الذي يعيش فيه اصحابه ، وردّ ذلك الى تخلف العقل في لبنان كما في البلاد العربية ، ولزوم هؤلاء الشعراء حدود الرومنسية التي كانت رائجة في اوروبة في القرن التاسع عشر ، وعجزهم عن اللحاق بركب الشعر العالمي الذي أغتنى بين سنتي ١٩٢٩ و ١٩٤٩ بتجارب لا تحصى واصبح له مذاهب متعددة احدهما واقعي والاخر تصويري رمزي فرويدي او سيرالي أو نيو رومنسي .

وكانت محاضرة يوسف الخال هذه هي العلامة الفاصلة بين عصرين في حياة الشعر اللبناني : عصر المنسحبين على أذيال رومنطيقي القرن التاسع عشر في اوروبة ، وعصر المتطلعين نحو حضارة القرن العشرين وهي حضارة يسودها روح العلم وتغير النظرة الى الوجود واعادة النظر في المعتقدات والانظمة الموروثة ، ويمثلها في العالم شعراء امثال بوند وجويس وبروست واليوت وايدث ستويل ودلان توماس واندره برتيون ، ومريدون لهم في البلاد العربية امثال السياب والبياتي ونازك في العراق ، وفؤاد رفقة وأدونيس ونذير العظمة في سورية .

وقد حدد يوسف الخال يومئذ الاسس التي يرتهن بها قيام شعر « طليعي تجريبي » في لبنان بالتعبير عن التجربة الحياتية على حقيقتها كما يعيها الشاعر بعقله وقلبه ، واستخدام الصورة الحسية ، وابدال التعابير القديمة بمفردات جديدة ، وتطوير الايقاع الشعري العربي على ضوء ما جدّ من المضامين ، ووعي التراث الروحي العقلي العربي وفهمه على حقيقته ، والغوص الى أعماق التراث الروحي العقلي الاوروبي وفهمه والافادة من تجارب شعراء العالم والامتزاج بروح الشعب لا بالطبيعة ، وهي خصائص وصفات لا تختلف بمجملها عن خصائص شعر الحركة في العراق .

وقد خلقت محاضرة يوسف الخال في لبنان ردّ فعل شديدا ضدها اتهم على اثرها جماعة « شعر » بلبنانيتهم وبترويج الادب الانكلوسكسوني والعمل لصالح الانكليز والاميركيين الى آخر ما قيل .

غير ان جماعة شعر مضوا في طريقهم ، وقد لوحظ تراجعهم في ما بعد عن تبني الاسس التي وضعها الخال من حيث وعي التراث الروحي العقلي العربي وفهمه ، والتعبير عن التجربة الحياتية ، والامتزاج بروح الشعب ، واتخذت حركتهم شكلا آخر دعوا فيه الى الرفض المطلق للتراث والشكل والرؤية الفكرية والاتصال برؤيا الشعر في العالم لا بواقعهم الخاص ، والثورة ضد اللغة العربية واعتبارها لغة ميتة ، والتأكيد على ان الاثر الفني يحمل قيمة في ذاته ، وان الشعر يجب ان لا يوظف للقيام باي دور ، وان صفة الجديد فيه يحسن ان تتناول مضمونه لا شكله ، وان المضمون يجب ان يكون استكشافا للذات لا تعبيرا عن قضايا المجتمع ، وان الشكل يجب ان يحرر من جميع القيود والشروط ، فلا قواعد عروضية مسبقة ، ولا حدود تقف حائلا بين الشاعر وبين الابداع . القواعد والحدود ، يقول منظرو حركة « شعر » ، تستمد من ذوق الشاعر السليم ومن تراث الحضارة الشعري ، ولذلك فقد اتجهوا نحو قصيدة النثر ، وعدوها تمردا أعلى في نطاق الشكل الشعري ، وكان من أبرع الحاملين لدعوتهم أدونيس وزوجته خالدة اللذان قاما مع يوسف الخال بدور مفلسفي الحركة ، وقد نشر لادونيس في ذلك الحين مقال بعنوان « محاولة في تعريف الشعر الحديث » سفّه فيه الذين يقولون بالواقعية ، ونادى بضرورة عدم ارتباط الشاعر بزمان ومكان ، ووجوب تخلصه من كل شيء مسبق ، ومن كل الآراء المشتركة ، ورفض الرؤى الشعرية القديمة للعالم ، ورفض الظواهر الثابتة التي تظل هي هي ، وهدم المقولات التقليدية في تحديد الشعر وكتابته .

وقد عرّضت هذه المبادىء حركة مجلة « شعر » للعنة والاتهام بمعاداة العروبة بدعوتها لهدم اللغة المشتركة بين أهلها كلية ، واحلال العالم اللغوي الخاص بالشاعر محلها ، وبالوقوف ضد الواقعية وموجة التقدم الاجتماعي والعمل لصالح الاجانب ، بمحاربتها الالتزام وتصديها لفصل الشعر عن السياسة (السياسة في نظر الجماعة وليدة يأس الشعر) وبعملها الدائب على ما سمي بغرس السلبية في وجدان القارىء والسخرية من كل القيم والتدله بهوى الموت وقوى الانهيار والتأكيد على قبح العالم .

وقد حمل « مضبطة الاتهام » وقذف بها في وجوههم القوميون العرب الذين كانوا قد اتخذوا من مجلة « الآداب » اللبنانية منبرا لهم، والواقعيون الاشتراكيون الذين أعلنوا ثورتهم عليهم في كل مجلات العالم العربي ، مما سبب منع دخول مجلتهم لاكثر البلدان العربية ، وعاد عليهم « بالحرم » العربي ، بعد « الحرم اللبناني » .

غير ان الموضوعية تقتضيني وقد مضى على حركة مجلة « شعر » اكثر من خمسة عشر عاما ، اضطرت في اثنائها مجلتها للتوقف سنتي ١٩٦٥ و ١٩٦٦ لتستانف الصدور عام ١٩٦٧ وتحتجب من ثم عن الظهور بعد سنة ١٩٦٩ حتى أليوم ، أقول أن الموضوعية هذه تقتضيني ان اكون منصفا فاسجل لجماعة « شعر » هؤلاء نواحيهم الايجابية التي عادت على حركة الشعر الحديث بالخير ، برغم السلبيات العديدة التي يمكن ان تنسب اليهم . وهذه النواحي يمكنني اختصارها في عدة امور أهمها :

١ ـ رفض الزخرف الشكلي وأسسه التي كانت متجذرة في لبنان ، بل رفض الجمال غاية في ذاته ، ومحاربة الرومنطيقية والواقعية التي عدوها مرضا .

٢ ـ الانفتاح على الشعر في العالم وتقديم حوالي ٤٧ دراسة لشعراء عالميين أمثال بيرس واليوت وارتو وازرا بوند وديلان توماس وولت وبتمان وروبيرت فروست وأندريه بريتون وآراغون وريلكه مع نماذج مترجمة لاشعارهم .

٣ ـ دعم الاتجاهات الحديثة ومساندة النظرات الجديدة التي كانت مقبلة بتردد وطرح عدة أسئلة وتشكيل مركز استقطاب للتساؤلات والتحركات واتجاهات البحث ، وتقديم الآراء الاوروبية في نقد الشعر، بقصد تعميق الثقافة الشعرية لدى القارىء العربي .

٤ ـ فتح الصفحات الى نتاج الشباب وتقديم حوالي ١٢٠ دراسة نقدية لمجموعات شعرية عربية ظهرت في تلك الحقبة .

٥ ـ طلوعها بالقصيدة الحرة « قصيدة النثر » التي اكتسبت على أيدي انسي الحاج ومحمد الماغوط وادونيس ومن جاء بعدهم صفة الرؤيا التي تخترق العالم واشياءه بلا عوائق ، والتي تسهم في حوار الخلق وتنادي بان الشعر لا يعرّف بالوزن وبالقافية وحدهما وانما بالموسيقى الداخلية النفسية التي تبعث حية صمت الاشياء من مرقدها، وبلغته التي تستخدم دلالات الكلمات المعنوية لا حرفية صلتها بالارض والواقع ، والتي تجهل الاستقرار وتنفجر في طاقات جديدة غير مألوفة في الشعر الموزون ولا في الشعر الحر ولا ما كانوا يسمونه المنثور ، والتي يتخذ فيها الشاعر صفة النبي والعرّاف والشاعر الحر المطلق ، والانسان الملعون في جسده ووجدانه ، الضائق بالوجود، والذي لا يضطجع على ارث الماضي ، والذي هو المكثف بالعالم الداخلي وتوتراته السحيقة ، والمنشطر الذات وحيدا امام حياته والوجود نفسه وجسده وموته .

« أتعمر على طريقتي ـ ارى ابدله وارفعه حكمة هذياني : لن ـ يا جدار العيون ، أيهما الموعود لن ! يا آخر كربة ، أنت هو الشلال ـ بك افتح النظر وأختتمه ، فيك ازعق وارقص ـ يا يدي على السر ـ على الشمس لن ، على صخرة اليوم الثالث ، على الدم .

ارخيتني يا قشة البحر ، لم ترخيني ، لا فرق. أغرق فهذا هو. أغرق أو أحلق ، او انام لا وجهة لا وجهة استوطن العافية ،

اهتك الستر عن غد السرطان ـ حرية » :

« من قديم الزمان ـ وانا ارضع التبغ والعار ـ أحب الخمر والشتائم ـ والشفاه التي تقبّل ماري ـ ماري التي كان اسمها امي ـ خارّة كالجرب ـ سمراء كيوم طويل غائم احبها ، اكره لحمها المشبع بالهمجية والعطر ـ اربطي عند عتبتها كالفلام ـ وفي صدري رغبة مزمنة ـ نشتهي ماري كجثة زرقاء ـ تختلج بالحلي والذكريات » .

« من قديم الزمان .. انا من الشرق ـ من تلك السهول المغطاة بالشمس والمقابر ـ أحب التسكع والثياب الجميلة ـ ويدي تلمس عنق المرأة الباردة ـ وبين اهدابها العمياء ألمح دموعا قديمة تذكرني بالمطر ـ والعصافير الميتة في الربيع ـ كنت ارى قارة من الصخر ـ تشهق بالالم والحرير ـ والاذرع الهائجة في الشوارع » .

ولن يضير قصيدة النثر في نظري انها ببعض نماذجها كتبت بدون ان تمتلىء رؤوس اصحابها بالافكار على حد ما يقوله محيي الدين محمد او ان كاتبيها امتلأ وجدانهم قبل امتلاء خبرتهم ، او ان الموسيقى فيها لا تستجيب لايقاع التجربة ، وانها اتصفت بكثير من العبث والحلم واللاوعي والتخيل والفوضى ... ففوضاها من النوع التحريري الفاعل الذي هو حال طبيعية في مرحلة الانتقال من الجمود والتحجر الى اليقظة والنهوض .

٦ ـ نشرها غدا من المجموعات الشعرية والكتب النقدية التي يمكن عدها دعائم لما قام من العمارات الشعرية وايحاء بليغا بمناخ تلك المرحلة من حياة الشعر اللبناني التي ردت اليه فيها العافية بعد عشرين عاما قضاها بداء النقرس .

ولا أدري اذا كان القارىء يغفرلي لنسياني وانا أؤرخ الحركة ذكر أمرين حدثا في قلبها وهما :

أ ـ اعراض الشاعر خليل حاوي عن تيارها بسبب اختلاف وجهة نظره عن وجهة نظر اقطابها في ما يتعلق بوظيفة الشعر وبالموقف الذي يقفونه من حضارة العرب وتراثهم ، هو يؤمن بالتراث ، ويحاول الانطلاق مما يراه عناصر حية فيه ، ويعتقد ان كل نهضة شعرية في أمة ما تحمل تراثا شعريا عريقا متراكما لا بد لها من العودة الى الينابيع الاصيلة التي كانت مصدر كل نهضة في الماضي .. ويستدرك بأن هذه العودة تختلف عما يدعى بالعودة الى السلفية الشعرية ، كما يؤمن بوظيفة الشعر الذي ليس غرضــــه في نظره مجرد تحقيق الابداع الشخصي بقدر ما هو احداث نهضة عامة واشراك الآخرين بتجاربه ، ولا يرفض الحضارة العربية كما يفعلون ، ويدلي بوجهة نظره في الرفض الذي له عنده معنيان يجب ان يفرق بينهما الشاعر الحديث : المعنى الايجابي ويتضمن رفض كل ما هو علة او مظهر من مظاهر الانحطاط والانطلاق من العناصر الحية في الحضارة ، والمعنى السلبي الذي يتجلى في رفض الحضارة العربية كلها من قبل شاعر ناشىء يجهل ما تنطوي عليها من قيم ذات اصالة ويرفضها لا لأنه يحمل معيارا اصيلا الحكم عليها ، وانما ليقلد شعراء غربيين قالوا بالرفض » .

٢ ـ هجر ادونيس الذي عمل عن استمراره منتظما في صفوف جماعة مجلة « شعر » وفتح تيارا لحسابه حين وجد ان تطوره قد فاق تطورهم ، وان هذا التطور يقتضيه ان يستعيد هويته العربية ويعلن ارتباطه الكياني بالعرب وجودا ومصيرا .

ان أواخر الستينات كانت المنعطف الذي بدأ به الشعر العربي يأخذ طريقه نحو تجارب جديدة مستمدة من الظروف التاريخية التي قد أحاطت به على اثر هزيمة حزيران ، ومن الوعي الافضل للوجود ، والفهم الأعمق لأزمات أهله التي اخذ جيل الشباب يدركها ويطمح الى التعبير عنها تعبيرا يتجاوز فيه اساليب الاجيال التي سبقته . وبولادة هذا الجيل انتهى دور مجلة « شعر » ليأتي دور مجلة « مواقف » في لبنان ومجلة ٦٨ في مصر ومجلة الشعر ٦٩ في العراق .

وقد يكون مفيدا ان أقول أن حركة الشعر الحديث كانت قبل هذا التاريخ قد خسرت بوفاة السياب وتوقف نازك نشاط رائدين كبيرين من روادها ، ولكنها عادت فعوضت عنهما بكسب الفيتوري الذي انضم الى جبهة العاملين في حقلها ، ونزار قباني الذي اتخذ من اشكالها المتحررة وعاء لمضمونه الخاص ، وبقي التنافس الحاد بين السابقين وبين اللاحقين الذي أسفر عما يمكنني تسميته الشعر التكاملي الذي تتميز به الحركة في واقعها الراهن .

ـ التتمة على الصفحة ـ ٦٩ ـ

خطاب رجل فقد لسانه

أتخمت ألسنة العالم من مضغ المناشير
عوث اغنية حمقاء
قضّت لعنة الجرح حكايا الطائـــر
الهارب من ريش
تمرّد في جناحه
طفقت تهويمة الضحكة تسخر
من بقايا موميـــاء
أمرّتها ريشة ملتويه
جاءت اللحظة في سنبلة منحنيه
نفش الجوع المفير لبدة الليث المحجّر
والكلاب الخشبيه
مزّقت خاصرة ظنّت دليل الدفء
ان تسرق مجمر

. . .

ويل للتمثال الجاثم في الارض المشوّهه
بثقاب شرائع وهميّه

. . .

ذوّبوه في اللهب
جرذ يفقد في انفاقه شمّ القديد

. . .

قف لحظة صمت يا حجرا قزما
يتصاعد من أعماق الماء !
لن تسمع أذن بعد اليوم أنين الغرقى
هي ذي أفواج الاسرى
اسماك بزعانفها تتقلّى في الرمل
قطرات ندى
هربت من كل الافواه
وانت السارق نوم الاعين
انت القاتــل
انت القاتل ...
انت القاتل ...
انت ... ال ..
ـ خطوتي في خطوة الماء
واقوالي مع الاحجار في شدق المتاهات
وطمي السلّم الصاعد في ارجوحـة
الاحلام
في أولب تجوالي في عمر الشرر
آه ! آثاري
اقتفوا نجمتي الضائعة الذيل
اقتفـوا ثلم طوافي
نقّبوا مجرى الرياح
اقتطعوا ما ولدت عند السحر
عبرت ذاكرتي كل المسافات
حبتني الارض عقد الظلمات
لملمت من زمني المقهور اغراض السفر
دفعتني في منامات المياه الخضر
في مرآة أوهام اخر
يبست من فرط ما سحت نواياها ..
وما نفع المطر ؟

ـ كل العدّائين يموتون اسفا
ـ بعد العيد يعود المرؤ كسيف القلب
ـ المدعوون يخلونك وحدك ترقص
مذبوحا
ـ كم زوحا يلزمك اليوم لتملي غدما
ـ حين تكفّ عيونك عن رسم الجسد
المائع
افكارك تسبق خطواتك فـي ترميم
الجسر الهاجع ..

. . .

ـ تجاوزت عصر الحجارة ما همّ
لزت بعصر الرمــاد
فحيث الخــواء
تمدّد نسر قصاراه ان جناحيه شلاّ
وتبحث عيناه عن فجوات الضياء
بجلد غراب وهامه ...
وتمضي صبابة روحي
تحول حجارا
خطى زمن مائع يستجير بصورتـه
الزائفه
وتمضي التماثيـل
من جمّلتهــا اصابع ليل
تتحدّى سمــاء
تموت النجوم بأوقابها
وتمضي عماراتها .. التركة المستبدّة
بالحلم
حيث النظام المهيمن في الناس
يعبر بحر الاشارات والمتع المشتهاة
لان الزمــان المكابر يخلق أصحابه
قبل روح العدالـه ...
وبنتفض الماء غاب وجوه
تهزّ قناع العجائب
تردي سلالة زوبعة تشرع الباب للنوم
تزجي مهابتها للفراس اليتامى
ولست سوى نقلة للزمـــان
ولست سوى لحظة في انكسار الاشعة
في اول الفجر
هاو شفـاه المنامـات
حيث يسيل الغد المرتمي بحبـــال
الزمان
المطوّق كفي
يأكل من ذكرياتي
يحيل مخيلتي شاشة للظلال الحرون
احمليني .. صبابة عمري
اقتلينـــي
خذيني
وثيقة نهر يطلق نبعه !.

. . .

ـ وتسهم انت بهذا الدوار ؟؟

السماء غطاء يلف وجوها تآكلها العهر
رقص الدراويش فصل من اللعبـة
الماكـره

. . .

ـ أزحت عن كواهلي قاضي الامور
الطارئـه
تسلت من روحـي خيوطا لعقـود
همجيّه
مظلّة السماء حيلت ذيل طاووس
ليالي العرس صارت نسوة
يمشين صفّا خلف نعش الامنيات
جــراحــي
في الارض القديمة ،توحي بعمق
الظلمات
اعطتني تذكارا .. اشعارا ترفض
هدهدة الايدي الفارغة واصواتا تقطر
سمّ الوحشة تبكي خلف القضبان
زوال
الجنس المسلـول
اعطتني قمرا
ركبة راقصة تفنج فوق حرير الليل
والارض القديمة لا مبالية
تخزن سمّا
عاطته قدما
عشيقا فقد قلبه
فقد حقده
ويغنّي نجمة شاردة
يشتاق امرأة وهميّة
فيما الارض الجديدة تنتظر في الاعماق
مسكونة بالمحكومين بقانـون الكهف
المهجور
ـ نحن جياع ... نحن جياع ! !
لكن صياحهم وقف عند حدود الارض
القديمة
تحمل في لعبتها
كل قطع الفيار :
الملوك والابراج
المجانين والخيول
وجدرانها مزوّدة بآذان
ولرأسها دمـاغ ناشط فـي تخيّل
تعليق
شارة الجريمة،على مداخل البيوت..
اما هو .. فهو المنتظر قدوم صوته قبل
الاصوات
يستدعيهـا
فيما الارض القديمـه تحضّر مأدبة
الجوع
تشي بمن لم يعش
في جوفهـا

وفي الهواء تتصاعد سورة الصوت المخنوق :
ـ لتنشق القشرة
لتتفتح النوافذ
الارض الجديدة تحت الارض القديمة مسكونة
بالمحكومين بالجوع
انهم لا يسمعونه
وهو لا يسمعهم
ويشد على اوتار حلقه لتتقطع
ويخال انه خرج من القبر
في الليل يفتت ضوء القمر
والاقنعة الخاوية أوقاب بلا عيون
في وجه الارض القديمة تمارس الجنس المسلول
وهو وحيدا يقتلع صوته من حلقه بيده
حالما بشعلة تتقد في قلبه قبل الافول ...

. . .

ـ يا آخر نجمه
مرّي حجرا أسود !.
الكلمات الاسفنجية لم تستسلم
كل الالحان تعاويذ ورقى تمثال مجروح
وعليها ان تعبر في الليل اعتاب الحكم المبرم ..!

. . .

ويعبرون
الهزء في افواههم
والماء من اعينهم طار :
ـ انظروها ... خوذة مملوءة ذرو رماد
ـ هوذا آخر نسل الحاملين الوحل في افواههم
ـ ليس ادنى من دلانا عندما تحمل ماء
ـ اسقه ... اعطوه ماء
ـ كيف يشرب ؟.
ـ اشرب !
ما اسمك
ما رقمك
من انت ؟
ـ أبله
أفلا تدري ان رصاصات اكلت حلقه؟
ـ أعجوبه
عشقت لونا احمر !.

. . .

ويفيق ... ليرى الحقل ، الشجر ، النهر ، الشمس الصفراء
تخف اليه
يرى الغربان تقطّر في اذنيه :
ـ هوذا آخر نسل الحاملين الوحل في افواههم
ادخلوا في حلقه الراعف اسفنجة خل
فالقناع المنتمي لوجهه
سدد اليوم ديونه !..

. . .

وتستمر الرحلة الجنائزية
السماء تختفي في ظلها
المدينة تكشف عن فتونها الليلي
من تراه القائد المهزوم في سترته المزدانة الصدر
بأحداق العيون الميته ؟
يلعن الجثة والرحلة
والجوقة تهذي حوله : استراح
بل أراح ..
اقتلعوا اسنانه المذهبه
ـ دعوه
استراح
ووفى ديونه !

. . .

واستفاق على الحجار تدق المحمل ارتاع
قلب عينيه : زمانا تقطعت لهواته
بدأت زحفها الثواني المرنة بالخلق
تهاوت مراتب الصنم المسجون في عريه ،
الزمان تولت حشره في حدوده خطواته ..
ـ دعوه ؟
استراح ؟
ازاح ؟
القتيل الذي خلتموه تكفن بالصمت آت يفصل اعلامكم
جوارب للمومسات
يقطّع تاريخكم للحفاة نعالا لا تمرغ بالوحل
لكني الان اطمع باللحظة المستقرة في موجة القاع
أرضي الجديدة
ها صبوتي في الظلام تجن
وسكان هذي المقابر تأكل أغلالها
تدبدب في فجوات الصخور
تشد الى السطح
تومض برقا ...
وسكان هذي الحقول اليباب
لحون تقطع اوتارها ...
وسكان هذي الكروم
محاريث تبحث عن فلذ الصلب البكر
تحملها وهي تصعد أدراج وادي الظلال
تغني ... تعربد
ترفع في اعين الموت قضبان احلامها.
وسكان هذي الصرائف
اصوات مذبحة في الدهاليز تنشب اظفارها
في وجوه اللفات الفقيرة للكلمة المزهره !
انظروها ...
ليالي البيادر تسرق اغمار قمح بلون الذهب
وقولوا لجوع الحرائق :
رفقا بها تمتمات الغمار
لان صليل الحديد المخبأ تحت الثياب الخليقة
يكشف سر الندوب الجريئة في البوح
عما تكتم في روحنا المطره
وقولوا ...
وماذا بوسع الكلام ؟
لان دبيب الشعاع المعربد فيّ
تولد من سكرة العمر
أبصر وجه الرياح
أستعار عيون الحرائق
اقدام من يبذرون الاجنة
شد السماء الى الارض ...
كان الفراغ تدثر شكلا
وكان السفين يطوف فيّ على جهمة اليمّ
يسكر من ذكرياتي ويصحو
لاني ملاّح هذا الزمان المنقب عن لونه
يجمّع ايامه المزمعات رحيلا على عجلات العواصف
لكني الان رهن الرياح الوليدة
في الارض ...
أرضي الجديده !..
دعوني اذن أنتشي وسقّيني باللحظة المستقرة ،
في موجة القاع
هيا ...
دعوني وشأني
دعوني !!!

. . .

آخر المحاربين لم يمت

. . .

سلبوه زهر العمر
ذرّوا فوق عينيه التراب
ظنوه مما تأكل الديدان في دنيا الخراب
لكنهم
مذ فتّحوا ابصارهم عند الاياب
الفوه حتفهم
يسدّ على خطاهم كل باب .

ميشال سليمان

* القيت في مهرجان الشعر الحادي عشر بتونس .

النقد في لبنان : تطوره واتجاهاته

بقلم الدكتور
ميشال عاصي

ـ ١ ـ

تعرفون ، ولا شك ، ان هناك اكثر من طريق واحد يمكن ان يسلكه الباحث في موضوعات هذا المؤتمر .

وتدركون كذلك ان ثمة اكثر من زاوية واحدة يمكن ان ينطلق منها الدارس للنظر في موضوعه على ضوء الخط العام الذي يقترحه المؤتمر ، وهو رصد الاتجاهات الادبية المعاصرة واثرها في خدمةالمستقبل العربي ، وطنيا ، وقوميا ، وانسانيا .

الا ان اختيار الباحث للطريق الذي ينهج ، وللمنظور الذي يلتزم ، مرتبط في النهاية بالمفهوم الايديولوجي للتاريخ ، وبالموقف الفلسفي من الادب والحياة ، سواء وعي الباحث هذا الموقف وذلك المفهوم أم لم يبلغ فيهما درجة الوعي والوضوح .

ولعل احدى سبيل للاحاطة بواقع الحركة النقدية العربية الا تنصب جهود الباحثين في هذا الموضوع على رصد الاتجاهات النقدية في اطارها العربي العام دون التوغل في الكشف عن خصائصها وأبعادها في كل قطر عربي على حدة .

ولذا ، بوصفي عضوا في بعثة اتحاد الكتاب اللبنانيين ، فان حديثي اليكم سيتضمن محاولة للكشف عنحركة النقد الادبي عندنا ، من حيث نشأتها وتطورها ، ومن حيث الاتجاهات الكبرى التي سادت في مختلف مراحل تطورها .

كما سيتضمن في الوقت نفسه تقييما لتلك الاتجاهات مستندا الى ما التزمه من مفهوم جدلي للتاريخ ولقضايا الادب والنقد .

ـ ٢ ـ

ولا بد ، قبل مباشرة اي عرض او تقييم ، من ان اقدم بايجاز الملامح الاساسية لما يستقيم عندي من مفهوم للنقد اعتقد انه يستجيب لدواعي التقدم الذي حققته امتنا في مختلف المجالات حتى الان ، كما يستجيب لدواعي التقدم الذي تطمح الى تحقيقه في المستقبل . وهو مفهوم يستند من جهة الى طبيعة الوعي النقدي للاثار ، ويستند من ناحية اخرى الى اتجاه ذلك الوعي وارتباطه بحركة الفكر ومنهجيتها .

* * *

ولمزيد من التوضيح اقول : ان النقد بما هو عملية تقييم للآثار الادبية ، فان طبيعة هذا الوعي التقييمي يمكن أن تتم على احد المستويات الثلاثة :

١ ـ مستوى الانطباع العاطفي او الحدس الشعوري .

٢ ـ مستوى الفكر العقلاني .

٣ ـ مستوى المنظومة الفلسفية .

ان هذه المستويات الثلاثة التي يمكن ان تتم فيها عملية الوعي التقييمي للآثار الادبية والفنية ، تؤلف في حقيقتها المراحل الثلاث ، او المراتب الثلاث ، لتطور الوعي الانساني وارتقائه من مستوى الادراك الحسي الى مستوى الادراك العقلاني فالى مستوى الاحاطة الفلسفية الشمولية .

ولا بد هنا من الاشارة الى ان طبيعة النقد الادبي المعبر عن مجرد الانفعالات الشعورية تجاه الآثار الادبية والفنية ، هي نفسها طبيعة الفكر الانساني في أدنى درجاته من مراقي الوعي والادراك . غير ان ثمة مفارقة كبرى يجب التنويه بها حالا ، وهي انه اذا كان مجرد الانفعال الحسي بالاشياء غير كاف لاكتناه حقيقة العالم الموضوعي وامتلاكه ، فانه يظل شرطا لازم الوجود لكل توجه عقلاني ، او فلسفي ، يليه لاكتناه حقيقة الاشياء والاحداث . ومن هنا فان النقد الادبي كتعبير تقييمي عن انفعال شعوري بالآثار ظاهرة ملازمة لجميع اطوار النقد ، وملازمة اساسا لجميع اتجاهاته . سوى انها حين تكون مجردة من ضوابط الادراك العقلاني ، يظل النقد معها في موقع الرؤيا الطفولية الى الآثار ، ويبقى محصورا في حدود الالتماعات الحدسية الخاطفة ، والكشف الذاتي القاصر ، برغم ما قد يتمتع به حينئذ من عناصر الدهشة ، والاثارة الشاعرية الدافقة .

أما طبيعة النقد ، على مستوى الفكر العقلاني ، فتلك التي تنبثق من كون الفكر قد تجاوز مرحلة الحدس والانفعال لكنه لم يبلغ بعد مرتبة الانتظام في فكر فلسفي شمولي . والنقد هنا ، في هذا المستوى ، وجه من وجوه الفكر العقلاني ، وظاهرة من ظاهراته مرتبطة بقضايا الادب والفن . وهو ـ اي النقد ـ كظاهرة خاصة من ظواهر الفكر العقلاني ، انما يستبطن الاحساس الشعوري بالآثار الادبية اذ هو يسعى ، في الوقت نفسه ، الى ادراكها بالوعي العقلي ، ويعمد الى تحويل الانفعالات الشعورية الى مفاهيم نظرية ومدركات عقلية واعية . غير ان طبيعة النقد في هذه المرتبة ، كطبيعة الفكر ذاته ، هي خواطر وآراء ومواقف لا ينتظمها سلك واحد من نظرة شاملة الى الحياة والابداع .

ثمة اخيرا طبيعة النقد الذي هو جزء من منظومة فلسفية شاملة ، وجانب من رؤيا عامة الى الكون والحياة . وفي هذا المستوى الامثل من طبيعة الفكر الفلسفي لا يبيت النقد مجرد انفعالات شعورية ، او

مجرد خواطر وآراء تزاوج الاحاسيس الشعورية وتستبطنها . وانما يصبح النقد غرضا من اغراض الفلسفة يبحث على ضوئها في قضايا الادب والفن . بل يصبح هو نفسه فلسفة الادب والفن . وككل نظر فلسفي يحاول اصلا اكتناه العالم وامتلاكه انطلاقا من احساس شعوري ضمني بالاشياء ، وانطلاقا من وعي عقلاني كلي يستبطن الاحاسيس الوجدانية العفوية ، كما يستبطن الخاطرة الفكرية القاصرة ، يصبح النقد نظرا فلسفيا في حقائق الابداع الادبي والفني وعلاقاتها بالطبيعة والانسان والمجتمع . اي بالحياة في شتى امتداداتها وابعادها .

* * *

هذا فيما يختص بطبيعة النقد ، وبطبيعة الفكر الادبي على العموم اما بصدد الاتجاه النقدي فيمكن القول انه استنادا الى ان الفكر الانساني نفسه ، الذي هو حصيلة العلاقة التفاعلية بين الذات والموضوع ، قد يتجه ، في اطار هذا التفاعل ، وجهات مختلفة ، بل ومتناقضة ، تتراوح بين غلبة الذاتية من ناحية ، وبين غلبة الموضوعية من ناحية اخرى . ولذا فان النقد باعتباره احد قطاعات الفكر ، وظاهرة متخصصة من ظاهراته ، لا بد من ان يتجه هو الاخر في واحد من تلك الاتجاهات متراوحا بين الذاتية المثالية من جهة ، وبين الواقعية العلمية من جهة ثانية .

وهكذا نجدنا امام معيارين متلازمين لقياس الاعمال النقدية وتقييمها :

الاول يفرض تحديد هوية النقد من حيث طبيعته الفكرية .
والثاني يفرض تحديد هويته من حيث الاتجاه الفكري الذي ينتهج .

وعندي ان الهوية الايجابية للنقد في المعيار الاول تكمن في ارتقائه الى مستوى الفكر الفلسفي ، وانخراطه في منظومة شمولية لهذا الفكر في حين ان سمات الوجه السلبي لتلك الهوية تكمن في تداعيه هبوطا الى مستوى الخواطر ، والانفعال الشعوري المتقلب .

وعندي كذلك ان الهوية الايجابية للنقد في المعيار الثاني تكمن في درجة التزامه للاتجاه الواقعي والعلمي في النظرة الى الاثارالادبية، من ضمن نظرته العامة ، في الاتجاه الواقعي والعلمي نفسه ، الى الحياة والمجتمع في تطورهما التاريخي على اساس الصراع الجدلي بين قوى النمو والتخلف ، وقوى الحرية والاستبداد . في حين أن وجه السلبية ههنا يكمن في ابتعاد النقد عن هذا الخط الفكري الموضوعي كمرتكز اساسي لتقييم المضامين الادبية والفنية ، وتوجهه نحو خط الذاتية ، والرؤيا المثالية في النظرة العامة الى الناس والاحداث .

ومن هنا فان النقد الادبي الذي اعتقد انه ، في ميدانه ، يؤثر التأثير الايجابي في المستقبل العربي ، هو النقد الذي يرتفع في طبيعته الى مستوى الفكر الفلسفي في الادب والفن ، وهو الذي يتجه في هذا المستوى اتجاه الفكر الفلسفي ذي المنهجية الجدلية في فهم التاريخ والتأثير في مجراه التقدمي والانساني بصورة دائبة على الدوام .

ولعل هذا المفهوم للنقد يستطيع وحده تحقيق المعادلة الكبرى بين جوهرين متناقضين : جوهر الفن وهو في طبيعته الاصيلة ذروة الحس بالاشياء ، وجوهر الفكر ، وهو اساسا قمة الادراك العقلاني ، والوعي الشمولي للواقع وحركته وابعاده .

— ٣ —

والان ، ماذا عن النقد الادبي في لبنان ، نشاته ومراحله واتجاهاته ؟

يمكن القول بصورة عامة ان بدايات النقد عندنا مواكبة لانخراط لبنان المعاصر في حركة التاريخ العربي منذ بدايات النهضة الحديثة .

واذا كان المؤرخون قد اصطلحوا على جعل القرن التاسع عشر هو القرن الاول للانبعاث الحديث فان جذور اليقظة العربية قد امتدت الى ما قبل التاسع عشر في كثير من مواطن الفة العربية ومن بينها المناطق اللبنانية .

كما يمكن القول بصورة عامة كذلك أن طبيعة النقد واتجاهاته عندنا مرتبطة ارتباطا وثيقا بطبيعة الفكر واتجاهاته في لبنان ، ومواكبة لحركة تطورنا الاجتماعي والتاريخي .

ولعل المراحل التي تعكس حركة التطور الاجتماعي والفكري في لبنان ، هي التالية :

١ — مرحلة المواجهة الاولى مع معطيات من حياة الغرب وتفكيره .
٢ — مرحلة التفاعل مع معطيات الحضارة الغربية .
٣ — مرحلة التوجه نحو تحقيق الاصالة التراثية والعالمية .

هذه المراحل الثلاث تعكس في الحقيقة وجه وجودنا الحضاري في العصور الحديثة ، وهو وجود يتسم في كل مرحلة منها بخصائص تاريخية تطبع ثقافتنا وتفكيرنا بميزات اساسية يحسن بنا ذكرها بايجاز ، لانها في انوقت نفسه ، مميزات الفكر النقدي الذي ساد في حياتنا الادبية خلال كل مرحلة من تلك المراحل .

ولعل أول ما ينبغي التنويه به هو أن اللغة العربية في لبنان ، قد وجدت لها اثناء عصور الانحطاط ، لا سيما بعد القرن السادس عشر ، واحات تستظلها في آديرة الرهبان المسيحيين واروقة المساجد الاسلامية ، حفظت لها كيانها من التلف ، وامدتها بنسغ الحياة اللازم لبقائها واستمرارها .

والواقع ان المناطق اللبنانية في الحقبة الممتدة بين القرن السادس عشر والتاسع عشر ، عاشت فترة المواجهة الاولى لمعطيات من حضارة الغرب وثقافته ، انتقلت بذورها الينا اما عن طريق التجارة التي نشطت قليلا في تلك الازمنة ، واما عن طريق البعثات العلمية والدينية التي امت الغرب من لبنان ، او جاءت الى لبنان من الغرب .

ونتيجة لذلك النوع من الاحتكاك الاولي بالحضارة الغربية انبثقت في حياة اللبنانيين دوافع التحرك والتجاوز . غير ان آفاق التطور انذاك لم تكن تعني في ظروف التغرب عن الذات القومية ، وظروف الجهل المطبق ، سوى مواجهة الجديد الطارىء بالنفور منه والاستجابة لدواعيه بالاستمساك بالتراث ومحاولة احيائه ، لا سيما اللغة ، وهي حلقة الوصل المباشرة بين الحاضر والماضي ، والجسر الذي لا بد من عبوره لاجتياز الهوة الفاصلة بين التقهقر والانبعاث .

وهكذا كان التقدم في تلك المرحلة الاولى يعني التوجه نحو استعادة الامجاد الغابرة ، وتمثل الانماط السالفة في الفكر وفي الابداع . ومن هنا اتجهت حركة النقد والابحاث عندنا وجهة تراثية دينية ولغوية ، مجاراة لحركة الفكر في توثبه نحو الماضي من اجل الدخول في الحاضر والانخراط مجددا في مسيرة التاريخ . كما كانت طبيعة النقد والابحاث هي نفسها طبيعة الفكر الناشىء ، المنساق في خط التراث والساعي الى تقليد نماذجه ومنهجيته .

في هذا المجال تطالعنا تصانيف ومحاولات دراسية شتى تنحصر اساسا في الشروح والتعليقات الدينية واللغوية . كما تطالعنا اسماء عدة لفقهاء دين ولغويين ، ينتسبون الى معظم الطوائف الدينية في لبنان .

ولعل ابرز بحاثي تلك الفترة هو المطران جرمانوس فرحات (١٦٧٠ — ١٧٣٢) الذي يعتبر بحق النموذج الامثل للبحاثة التراثي في احياء العلوم اللغوية خلال المواجهة الاولى لمعطيات طارئة من الحضارة الغربية .

— ٤ —

وتدور عجلة الزمن ويتسع نطاق المؤثرات الغربية في الحياة اللبنانية بفضل تزايد اسباب الاتصال بين الشرق والغرب ، فلا ينصرم

القرن التاسع عشر قبل ان يعرف لبنان ، الى جانب رعيل المفكرين والنقاد المحافظين ، رعيلا متعاظما من الادباء والبحاثين المجددين ، الذين دشنوا في تاريخ الفكر والنقد مرحلة التفاعل مع معطيات الحضارة الغربية ، بازاء الذين ظلت آثارهم في المقابل تجسد استمرار النزعة التراثية البحت ، نزعة الاستمساك باحياء الماضي وبعث مفاهيمه ومناهجه .

ففي حين كان الشيخ ناصيف اليازجي (١٨٠٠ - ١٨٧١) والشيخ يوسف الاسير (١٨١٥ - ١٨٩٠) والشيخ ابراهيم الاحدب (١٨٢٠ - ١٨٨٣) وغيرهم ينهجون في تفكيرهم الادبي ، وفي آثارهم نهج القدماء ، ويشكلون تيار التقوقع والانغلاق على التراث برز ادباء وباحثون آخرون لم يتجاوزوا اساسا المواقع التراثية لكنهم الى حد ما تأثروا بمعطيات الجديد الطارىء في الفكر وفي الحياة . فكانوا همزة وصل بين الاقبال على الحداثة والاعتصام بالموروث الثقافي والمحافظة البالغة على مفاهيمه وانماطه .

هذا التيار التطوري يمثله عندنا اوضح تمثيل الشيخ ابراهيم اليازجي (١٨٤٧ - ١٩٠٦) واحمد فارس الشدياق (١٨٠٥ - ١٨٨٧) وغيرهما من الكتاب كرزق الله حسون (١٨٢٥ - ١٨٨٠) وسليم البستاني (١٨٤٨ - ١٨٨٤) واديب اسحق (١٨٥٦ - ١٨٨٥) ونجيب الحداد (١٨٦٧ - ١٨٩٩) ممن انطلقوا من مواقع القديم لكنهم في الوقت نفسه اقبلوا على الجديد ونهلوا ما استطاعوا من معينه .

وهكذا شهد لبنان في حقل النقد والدراسات في القرن التاسع عشر ، لا سيما في النصف الثاني منه ، نشاة تيار تطوري يحاول ان يجاري الجديد الطارىء في الحياة وفي الفكر ، في مقابل استمرار التيار التراثي المحافظ .

ولئن لم يتجاوز أي منهما نطاق الاهتمامات اللغوية الملحة ، وصياغة مفاهيم اساسية متفرقة في الشعر وفي الادب عامة ، فان طبيعة الفكر في كليهما لم تتجاوز هي الاخرى مرحلة التوجه نحو المنطق العقلاني ، والتخلص من قيود العصبية الانفعالية والاحكام العاطفية المحدودة ، لا سيما في نتاج التيار التطوري المتفاعل مع معطيات الحضارة الغربية الطارئة .

- ٥ -

ومع دخول القرن العشرين ، واتساع حركة الهجرة اللبنانية حتى حتى شملت القارتين الاميركيتين ، بالاضافة الى البلدان العربية والاوروبية ، ومع تزايد المؤثرات الغربية في الحياة اللبنانية قبيل الحرب العالمية الاولى وما بعدها ، شهدت حركة النقد والابحاث الادبية في نشاط اللبنانيين ، المقيمين منهم والمغتربين ، قفزة الى امام ادخلت على تياري النقد المحافظ والتطوري تيارا ثالثا كان بحق تيار الحداثة والتغيير بالنسبة الى تلك الفترة .

ولقد تمثل هذا التيار الريادي في النقد عندنا بنفر من الكتاب والباحثين في طليعتهم ثلاثة هم سليمان البستاني (١٨٥٦ - ١٩٢٥) وميخائيل نعيمه (١٨٨٩) ، وامين الريحاني (١٨٧٦ - ١٩٤٠) .

فمع سليمان البستاني في مقدمة ترجمته العربية لالياذة هوميروس (١٩٠٤) دشن النقد عهدا جديدا من منهجية في البحث تقوم على اصول موضوعية من الدرس والتحليل ، ومن الدقة في تحري الحقائق والكشف عنها . كما دشن النقد عندنا وفي البلاد العربية عهد الدراسة المقارنة بين الاداب .

ومع ميخائيل نعيمة في كتابه « الغربال » (١٩٢٣) يعرف النقد ان يكون الداعية الى ادب يواكب الحياة الجديدة ويرتبط بمعطياتها الماثلة ، وان يكون قبل كل شيء تعبيرا عن الذائقة الشخصية للناقد بغض النظر عن اية مفاهيم تراثية سائدة . ومعه يعرف النقد الطموح الى ان يكون « عملية خلق وابداع وليس مجرد استحسان او استهجان » .

اما امين الريحاني فقد كان في آرائه النقدية مثله في آرائه السياسية والاجتماعية ذلك المفكر الليبرالي المتقدم الذي آمن بالحرية الاجتماعية انطلاقا من حرية الفرد ، وتجاوزه لمواقع التخلف والتبعية في فكره وادبه . وفي مقالته « انتم الشعراء » حث صارخ لهؤلاء ، ولجميع حملة الاقلام ، على التزام الاصالة الادبية والفنية ، اي ربط الكلمة بمضمونها الحقيقي من احساس الكاتب ووجدانه ، بدلا من سنة التقليد وتزييف المشاعر ، التي كانت سائدة في الادب والشعر يومذاك .

- ٦ -

ونتقدم في التاريخ خطوة فاذا لبنان يعرف في ظل الانتداب مرحلة احتكاك وثيق بالغرب ويعيش عن كثب في مناخ الثقافة الفرنسية واذا حركة النقد والابحاث التي اسهم البستاني ونعيمه والريحاني ونفر من ادباء الطليعة في اطلاقها خلال فترة ما قبل الحرب العالمية الاولى وبعدها ، تكتسب في الثلاثينات والاربعينات مزيدا من التدقيق المنهجي ومزيدا من الحداثة في تذوق الآثار وتقييمها ، كما اكتسبت في الوقت نفسه عافية فكرية مكنتها من مواجهة الفن والادب بنظرة منفتحة وضعتها على طريق الاحاطة الشمولية والتوجه نحو مواقع الاصالة التراثية والعالمية .

في هذا المجال النقدي تتالق اسماء عديدة ، عمل اصحابها في الصحافة او في التدريس . واذا كان من المتعذر ذكرها جميعا فلا بد من التنويه ببعضها على سبيل المثال لا الحصر ، من مثل فؤاد افرام البستاني ، صاحب سلسلة الروائع ، وهي دراسات ادبية عن اعلام الشعراء والناثرين في تاريخ الادب العربي ، كان لها اثر عميق في تكوين الفكر الادبي الاكاديمي عندنا . ومن مثل مارون عبود (١٨٨٦ - ١٩٦٢) ، صاحب المقالات والابحاث النقدية المتسمة برهافة العفوية وبراءة السخرية على غنى كبير في الكشف والتعمق . كما لا بد من التنويه بجهود اسرة تحرير مجلة « المكشوف » وقد التف حولها نخبة الادباء اللبنانيين ونقادهم في اواخر الثلاثينات من غير ان تجمعهم رابطة من عقيدة الا رابطة الادب والفكر المجرد .

- ٧ -

على انه منذ فجر الاستقلال ، في مطلع الاربعينات ، وفي حين كانت خريطة النقد في لبنان موزعة بين تيار فكري محافظ ظل طوال جميع العهود السابقة يجتر مقولات التراث دون اي تحول يذكر نحو الحداثة والتطور ، وبين تيار فكري متجدد هو استمرار للخط الذي رسمناه آنفا من سليمان البستاني الى مارون عبود واسرة « المكشوف » برز في ساحة النقد اللبناني كتاب يؤمنون بمبدأ الانضوائية في الادب ، ويلتزمون قضايا الديمقراطية في السياسة والمجتمع ، ويناضلون في خط التحرر الوطني والعدالة الاجتماعية والوحدة العربية . وقد توصل بعضهم الى تبني مفهوم شمولي للدولة على اساس الجدلية الماركسية لمجرى التاريخ والفكر . فراح النقد منذ ذلك الحين يشهد عندنا ولادة تيار طليعي لم يألفه تفكيرنا الادبي من قبل ، من حيث اتساع النظرة الى الادب والفن ، ومن حيث اعتبار الادب والفن ظاهرات ثقافية وايديولوجية تعكس الوضع التاريخي

وتستطيع في آن معاً العمل على تطويره وتوجيهه .

وهكذا ارتفع صوت رئيف خوري (١٩١٣ ـ ١٩٦٧) في تلك الفترة ، يؤكد على ان الادب فعل تاريخي بمقدار ما انه فعل جمالي . وكما كان رئيف خوري في طليعة المنظرين لنقد ادبي انضوائي ،وفي طليعة المبدعين ادبا انضوائيا مشرقاً ، كان ايضاً في طليعة المناضلين من أجل الاستقلال الوطني وحركة التحرر العربية والعالمية .

وفي هذا النمط السياسي والفكري نفسه كانت تهدر علىصفحات مجلة « الطريق » وخارجها اصوات ادبية ذات نكهة فنية متميزة . تدعو الى تشديد النضال ضد النازية والفاشية ، والى دعم قضايا الاستقلال والتحرر . وكما كانت تدعو الى ادب انضوائي ، وتبدع اشكالا مختلفة منه ، كانت تحاول ان تصوغ المفاهيم الاساسية للفكر الادبي الانضوائي وترسيخ قواعده وبلورة نظرياته . ولا شك في ان عمر فاخوري (١٨٩٦ ـ ١٩٤٦) يحتل مكانة اولية خاصة بين كتاب تلك المرحلة .

ـ ٨ ـ

ومع الدخول في الخمسينات ، واحتدام الصراع السياسي في المنطقة العربية ، وتعاظم المد التحرري وتفجر ثوراته كتعبير عن رفض الهزيمة العربية في فلسطين واصرار على تعميق المنجزات التحررية ، شهدت حركة الفكر في لبنان تحركا واسعا للخروج من واقع التبعية والتخلف . وفي حين استمر الكتاب اليساريون والوطنيون باجمال يرون ان التجاوز يكمن في ترسيخ التحولات الاستقلالية وتعميق مفاهيم الحرية والديمقراطية والاشتراكية ، راح فريق آخر يعتقد ان الازمة العربية انما هي ازمة تخلف حضاري ، وان لا سبيل الى تجاوزها الا باعتناق مفاهيم الغرب الليبرالي المتقدم .

وهكذا انعكس هذا النشاط الفكري العام ، منذ مطلع الخمسينات وحتى اواخر الستينات ، في الحياة الادبية والنقدية عندنا ، ببروز تيارين يسعيان الى التجاوز من منطلقين متعارضين ، ومن ايديولوجيتين متناقضتين ، الاول تيار الادب الملتزم ويضم الكتاب اليساريين والوطنيين بوجه عام . والثاني تيار الادب الحديث ويلتف حوله الرافضون من الادباء الليبراليين على اختلاف مشاربهم والوانهم .

وفي حين اتخذ التيار اليساري منبرا له مجلة « الطريق » الشيوعية ، ومجلة « الاداب » الوطنية المستقلة ، وسواهما من الصحف والمجلات التقدمية ، التفت جماعات الادب الحديث حول مجلة « شعر » اساسا واتخذتها منبراً لانتاجها في الفكر والفن والادب ، كما اعتمدت مجلة « حوار » وغيرها من الصحف ذات الاتجاه التجديدي الليبرالي الرافض .

ومثلما كان التيار التقدمي ينمو ويتعاظم طوال تلك الفترة وتتألق فيه اسماء رواد عتاق كرئيف خوري ، وطلائع جدد كالشيخ عبدالله العلايلي ، وحسين مروة ، وميشال سليمان ، وسهيل ادريس ورضوان الشهال ، وعلي سعد ، واحمد ابو سعد ، وسواهم ، كان تيار الادب الحديث ينمو ويتسع هو الاخر وتتألق فيه اسماء عديدة من ابرزها صاحب مجلة شعر يوسف الخال ، وادونيس ، وانسي الحاج ، وعصام محفوظ ، وشوقي ابو شقرا ، وغيرهم من مؤسسي المجلة واسرة تحريرها ، فضلا عن ادباء آخرين كان لهم حضورهم الفني الكثيف في المجلة او خارجها ، وفي طليعتهم انطون غطاس كرم وخليل حاوي ، وخالدة سعيد ، وغيرهم ممن يحملون لواء الحداثة والتغيير في اطار المفاهيم الحضارية الليبرالية ، ولا يتعدونها الى الاخذ بالاشتراكية كسبيل الى التجاوز والحرية .

هذي هي العناوين الكبرى لحالة النقد حتى اواخر الستينات في لبنان .

يضاف اليها طبعا جهود نفر غير قليل من الدارسين الاكاديميين الذين يحفظون لبلدنا مكانته في حقل الابحاث الادبية الاصولية . نذكر منهم بيننا في اتحاد الكتاب اللبنانيين ، منير بعلبكي واحسان عباس، ونديم نعيمة ومحمد يوسف نجم وايليا حاوي فضلا ممن هم خارج اتحاد الكتاب ويعملون في حقل الابحاث الجامعية المختلفة .

ـ ٩ ـ

اخيرا ماذا عن اتجاهات النقد الادبي الراهنة ، وما اثرها في مجرى التاريخ العربي وصيرورته ؟

يبدو ان خريطة النقد في السبعينات ما تزال الى حد بعيد تحتفظ بالاتجاهات الكبرى التي كانت سائدة في العقدين السالفين بغض النظر عن بروز اسماء جديدة ناشئة في هذا الاتجاه او ذاك .

فهناك ، من ناحية ، تيار البحاثين الاكاديميين الذين ما يزالون يواصلون السعي في خط الدراسات الاصولية مع ميل ظاهر الى فك قيود التقليد والتحرر من مقولات التراث ومفاهيمه ، ومع ميل محسوس الى الاخذ بعلاقة الادب بالحياة والتأثير المتبادل بينهما . الا ان اعمال هؤلاء على تنوعها ودقتها وفائدتها من النواحي الادبية والفنية المجردة ، ما تزال الى حد بعيد محصورة في اطار القيمة الجمالية والشكلية للآثار ، ولا تولي ابعادها الفكرية والاجتماعيةالقيمة التي تستحق . كما ان معظمها لا يتوافر له بعد منطلق فكري عام يحتضن مفهوما للحياة والمجتمع ويشتمل في جملة ما يشتمل عليه موقفا من الفن والادب من ضمن ذلك المفهوم وذلك المنطلق .

وهناك ، من جهة اخرى ، تيار الحداثة الذي يؤمن بأن الدخول في العصر مرهون بالخروج من التراث والسعي في طريق التقدم الحضاري الغربي ، طريق الليبرالية وابداعاتها الخلاقة .

وهناك من جهة ثالثة التيار التقدمي واليساري الذي يؤمن بأن الحداثة تكمن في تجاوز الليبرالية والتوجه نحو الاشتراكية ، وان الاصالة تكمن في تجاوز المفاهيم التراثية المرتبطة باوضاع التخلف البائدة ، واحياء ما ينسجم منها مع ذلك التوجه ، واعتبار الادب سلاحا في المعركة التي يخوضها العرب ضد التأخر وضد الاستبداد بجميع اشكاله والوانه .

ولا ريب في ان التوجه الفكري والنقدي نحو المفاهيم الليبرالية للحداثة خطوة متقدمة على الفكر والنقد بمفاهيمهما التراثية المتخلفة. الا ان التوجه نحو المفاهيم الاشتراكية يجعل الفكر والنقد في خط الريادة والمستقبل . ويضمن لهما تأثيرا ايجابيا على حركة التاريخ العربي في اطارها الوطني والقومي والانساني .

واذا كانت الاحاطة بلونيات كل من هذه الاتجاهات متعذرة في مثل هذا المقام فان التصدي لاحصاء العاملين فيها ليس أقل صعوبة واستحالة .

حوّال لِغلاف التغريبة

جئنا والمشرق في خدر اطمئنان ما
زال
يقبل ما يرفضه العقل
بالشـّك ، وينتظر الاعجوبه !
آمننا بحديث الواعد
صدّقنا الاكذوبـه
صفّقنا للمنشد والعازف
وتبعنا القلب الشمعي النازف
فاضعنا سمرة اوجهنا
في غاب الاقنعة المجلوبه !
وجعلتم انتم ، في دغشة مغربكم
من مصباح العقل امام ..
جاهرتم بالرأي ،صوابا او خطأ ،
في مـا آمنتم
كنتم انتـم !

●

غرّبنا .. لكن لم نزحف من نجد
لم نحمل رمحا لهلاليّ
يفرز في عين كاشفة لزناتي
ستر الفيبيّ
بل طرنا بجناح الوجد
ودخلنا في ريح استغناء
لنشاهد وجها ناجيناه
بليالـي الامس الريفية
قمرا أفريقيا يطلع
بدرا من حبر « التغريبه »
وقرأنـاه
في سورة مجد الاندلس
وسطور موّشح
يتأود منساب النفس ..
رافقناه
في مدّات تكسر آه
وتضرّع حنجرة تشكو
وتجرّح
هدهدة راجفـة الكرّات
في بحّة لحن فلامنكو !
يا امّ الزيتون الدهري الراشف
من وهج الصحراء
والصحو البلّوري الذائب
من مرآة البحر الاخضر
وصفاء عيون نساء البربر
انّا خلفنا في الافق الغائب
خلف غمام الصحو الازرق
فردوسـا يسرق
كلّ صباح
ويعاد الينا كل مساء
بوعود الخطبـاء
وتركنا للغازي المجتاح
حبلا مشدود
عقدة وهم حول حدود
تتفكك اوصالا .. تتخدر
اذ يبدو خيبـر
وتنـام استسلام
للداخل في الجسد المسبيّ
ونأينا والابصار سؤال
ايـن الوجه المنقذ اين ؟
في اي الوجهيـن
ننجو .. او نغرق
في الوجه المفتوح ام المغلق ؟
امكل الاوجه اقنعة ومدافن آمال
تختلف الاسماء المختارة ، فياللفظ،
وتتفق الافعال !
اتـدوم المحنـه
في وطني المستلب المنكوب
بعقوق الابناء ؟
.. غوصي في مرآة الآتي
عرّيه يا عين زناتي
لنفوس حائرة تسأل
ايكون المستقبل
عقما . .وفراغا كالآن ؟
اتظل اللعنـه
ظلا قدريا يتبعنا
عبر الاجيـال
ونظل لفرقتنا نعجز اذ نصفع
عن ردّ الصفعه
نشرب هفّ سراب الخدعه
ونهلّل ، اهل الخفّة نحـن
للمنشد والعازف
نرقص للحـن ...
نتقن دور شهود الزور ..
نألف للادمان الكذبا
ونكون لقربان الكهّان الحطبا
والكبش المنذور ؟
نعطي العملاق المحتضن الاعداء
نفطـا نشوى في نيرانه
وطرائد في الشرق المنهوب تنفر
ونصير طرائـد
لصقورعلمّها الصيد الوحشيواطلقها
لولائم احبابه !..
نخنق جهر الحرف الثائر
نخمد انفاسه
ونخلّي للقسر الجائر
اصوات الهمس
نتنكر للقلم الزارع
فينا اليقظة . .والاعصار
نمنع في التربة اغراسه
من ان تولد ــ تكسر قشرة ليلالتربه
لعناق الشمس
نجهل ان الحلم الواعـد

بعروش نضار
لن يتحقق مهما دار
اهل الجبنه
بموازين العدل القاضم ، باخضراء
وتوّهم من يرسم في الظل الادوار
لدمى المسرح
ويشد الخيطان
ان يدخل في مجرى التيار
ملاّح عائد
من ابعاد عن آفاقه
فسليل الاصرار
في عكا الصامدة الاسوار
لن يرسو يأسا .. واستسلاما في ميناء
للنسيان يساق اليه
وسيغمض عن ومض منارته عينيه
يسكب في آذان رفاقه
شمعا ينقذهم
من سحر ترنم حوريات
تستدرج مركبه العائد
تغريه
بالهمس العائد
وتناديه
لرقاد ابديّ في كهف الاعماق ..
وسيبقى رغم الريح .. ورغم الليل.
وغدر الاهل المرّ ، يلوب
مندفعا بشراع مثقوب
لنداوة شط يدعو فيه
نجم عطريّ من زهر الليمون
محزون لغياب بنيه ..
يحمل للوطن المشتاق
لغة التمزيق وتفجير الاعراق
والملح المحرق والانواء
وينادي المصلوب المدفون
فيزيح الكفنا
ويقوم يحرّك قبضته
ويدحرج صخرته
قبل الفجر
يفتح للشك المتململ في غيم النظرات
جرح الكف .. وجرح الخصر

ويخلّص من بئر غصت بدماء الاحباب
قمرا شاهد
عين صفاء غابت زمنا
عن اطفال في الساحات
وثريّات
كادت تخبو .. تذوي شوقا
لفتى اسمر
ما كادت يمناه تعلّقها
فوق قباب « البيارات »
حتى غاب !

***

جئنا يا تونس من ارض
جمعت واختصرت فيها الجنّه
واشتعل « الوزّال » السحريّ الغمز
فيها شمعا وقناديل
وتنفس منها الفجر ضباب
يتوزّع شالات
ومناديل
تكسو في الجبل المخضّر مظلات
لرؤوس صنوبره المهتز
في الغيم مباخر اطياب
ويشكلها
للعرس اليوميّ
بعقيق الشمس اللألاء
وصفار الماسات !
نادتنا من فجر الحرّيه
وسخاء السكب
لبذور عطشى في تربتكم
اصداء لمغن « نبويّ » وقّع
حتى اللفتة..والايماءة ..غنج الجيد
والهزّة في النهد الفرّيد ..
بشّر باليوم المنتظر
وجلاء الليل المتحكم والقيد المنكسر
آمن بالحق المنتصر
في وجه الطغيان
وتجاوب ارباب القدر
لهتاف امان تتدفق
انهارا جارفة .. ان شاء
واراد الشعب !
جئنا من رعشة تاريخ سحري يعبق

بإباء قرطاجيّ اطبق
برعم نار
فوق بهاء الجسد الاسمر
لاليسار
غرّبنا يا اخت اليوم وبنت الامس
لنشاهد في الموج المنداح
مرآة شفافه
اشرعة الاجداد الرفّافه
بعبير الارز ...
نقرأ في فجر التكوين
احرف هدي من صيدون
اطلقت القلب
والعقل البشريّ المسجون
في صور ضيّقة الاغلال ..
ونرى شطا منه ابحر
هنيبال
لفتوحات خلف الالب
فرطت غارا كلّل روما
ليس يطال
الا بسيوف وهّاجه
ورماح فارعة تنزو
باكفّ فوارس قرطاجه !
عاد الملاّح الفينيقيّ
بعد ضياع في الآفاق
ارهاصا بزوال حدود قاطعة يثمر
باتانيّتها جسم المارد
ليظل العرق المستنزف
والقزم المستضعف ..
عاد شراع الوهم الشارد
ايمانا
عربيّ
بحلول الاجزاء
في ذات المعبود الاجمل
في الوطن الاكبر ! (*)

بيروت **فؤاد الخشن**

(*) القيت في مهرجان الشعر الحادي عشر بتونس

بين المخدة وبين العنق

سكّينهم
بين فم الرضيع والحلمه
بين فم الجائع واللقمه
فكيف نلتقي
خلف قميصي الداخليّ
فوق لحمي
تملّكوا واقتسموا جسمي
مملوكهم انـا
ويجهلون من أنـا
وعند كلّ خطوة
أحتاج للبطاقـة الشخصيه
فكيف نلتقي
كل وثائقي
قدّمتها
كلّ ضرائبـي
سدّدتهـا
كل مواهبـي
سخّرتهـا
فكيف لي ان اعلما
بأنني لمّا أزل متهما
في ظل ياسمينة تنتظرين ؟
ألست تعرفيـن
يا غبيّه
بأنني شخص بلا هويّه
ولطخة جوفاء في لوحتك الورديه
كان أسمي القديم يشفع
كان له شكل ، وموضع
لكنّني فقدته في السوق
فهل تصدّقين أنني مسروق
أم انني عمدا أضعته
لانني جبـان
أم انني كالآخرين بعته
لانه كسائر الاشياء
بضاعة لها على علاّتها ميزان
ان كنت لا تصدّقينني
فكيف نلتقـي
بين مخدّتي وبين عنقي
حبل من الحرير
وليس في الامكان ان أغيِّر السرير
أيّ العصافير أنا
ان كنت لا أطيـر
ان كنت في مدينتي الاخرى
القى وجوههم تميع كالمسوخ
تسرّبت اليّ عبر حائط مشروخ
أسدّه ويدخـلون
اسكتهم ويصرخـون
أرجوهم
أجثو على اقدامهم
فيضحكـون
وعندما اصرخ مذعورا
يصفّقون
ويهلؤون
مسافة الفارق بين النوم واليقظه
كي يثبتوا وجودهـم
من دون ضجّة
لانني عدت الى عقلي من الجنـون

* * *

أحببت يا أخت
تصورت الهوى طفلين
قسمت شعرها الضافي ضفيرتين
وشعره تركته
مرخى على العينين
بسطت في دفاتري مرجـا
واطلقت فراشتين
رسمت جدولا
دفعت فيه قاربا من الورق
وكان كافيـا
لاثنيـن
خطيئتي تلك تركت دارنـا
ليس معي سوى شهاده الكتّاب
وصرّة الطعام والثياب
وفوق صدري آيـة الكرسيّ في حجاب
وهذه الرغبة : ان أعانق الدنيا
لكنهم ما ان رددت الباب
حتى تلقّفوني
فمزّقـوا شهادتي
وسرقوا زوّادتي
وعندها التقينـا
لا .. لا أقولهـا
لم يتركونا لحظة واحدة
لم يدعوا اكتافنا تمسّ بعضها
كانوا وراءنـا وبيننا
وهكذا سرنـا
جنبا الى جنب محاذرين
ننظر في رعب الى اليدين
تنمو بها مخالب غريبه
وفي الفميـن
تبرز أنياب لنـا عجيبه
فكيف نلتقـي
وقد صرنا الى وحشين

* * *

لا بدّ يا فراشتي الحبيبه
لا بدّ أن نقاتل
لا بدّ .. يا فراشتي الرهيبه

شوقي بغدادي — دمشق

فن المسرح في لبنان

بقلم انطوان ملتقى

لن أبحث في الادب المسرحي لانني أعتبر ان المسرحية المكتوبة لا يكتمل الخلق فيها الا اذا تناولها مخرج وممثلون فجسدوا الشخصيات وبعثوا الحياة من حالات ومواقف كأنها نقل الواقع في حين انها في الحقيقة تصعد هذا الواقع . ثم ان الفعل المسرحي يفترض وجود مشاهدين يجتمعون في مكان واحد يشاركون انفعاليا وفكريا أهل الخشبة من جهة ، كما تنعقد بينهم ، من جهة اخرى ، وفي الوقت نفسه ، روابط غير مرئية تشد بعضهم الى بعض : انه تفاعل جماعي لا يحصل بين قارىء وحده وكتاب .

واني لا أذكر أن باحثا عربيا تناول في كلامه عن المسرح العربي ، منذ نشأته في أواسط القرن التاسع عشر ، المسرح من حيث هو فن الخشبة ، مدارسه ومخرجيه ، انماءاته وجماليته وممثليه ، انما قصر اهتمامه على الادب المسرحي او الاسباب التي حالت دون وجود مسرح عربي قبل ١٨٥٠ .

لذا فانني سأترك الادب المسرحي جانبا وأبحث بلمحة سريعة في المسرح العربي بصورة عامة واللبناني بصورة خاصة من حيث هو كتابة بالحركة والايقاع ، من حيث هو تعبير مجسد مرئي عن الحالات والمشاعر . وهنا لا بد لي من شكر المسؤولين في اتحاد الكتاب اللبنانيين اذ اختاروا رجل مسرح عضوا بينهم مقتنعين بأن الانسان يستطيع ان يكتب بغير الكلمة .

بدأ المسرح العربي ، حسب اقتناعي ، منذ عشر سنوات فقط ، اذ وقف واحد واثنان في كل بلد من بعض البلدان العربية ، في الوقت نفسه تقريبا ، ودون ان يتواعدوا مع انهم بدأوا كأنهم متواعدون وقرروا التعبير عن انفسهم من على الخشبة رافضين مئة سنة وصل خلالها المسرح العربي في جميع الاقطار العربية ، وخاصة في مصر ، الى حالة نزاع . فمنذ أوائل الستينات فقط بدأ المسرح العربي من سوريا ولبنان الى مصر وتونس والجزائر والمغرب يعتبر العمل المسرحي وحدة فنية تعود المسؤولية فيه الى مخرج حرك على الخشبة ممثلين انطلاقا من نص عبر هو عن ابعاده في اطار مدروس . ولقد عودنا المسرح قبل الستينات وطوال قرن كامل مرتجلة غايتها سرد قصة محزنة او مسلية قوامها ممثل موهوب تخبو موهبته في ترداد نفسه من مسرحية الى اخرى ، لا تشد عناصرها وحدة متماسكة مدروسة . وهذا ، على ما اعتقد ، هو السبب الذي جعل الباحثين وحتى الان يهتمون فقط بالنص من حيث هو ادب وتعبير بالكلمة ، تشوه مسرحته ، في اكثر الاحيان ، الابعاد التي يرمي اليها .

اذا أردنا ، اذن ، ان نعتبر المسرح فنا فاعلا تتعدى فعاليته سائر الفنون ويمكنه بالتالي ان يسهم في تطوير المجتمعات بنقلها من حالة التململ والضياع الى حالة الوعي الذاتي ومن ثم الى حالة الوعي الجماعي ، علينا أن ندرسه كفن احتفالي ليس الذي فيه الا امكانية فعل قد يشارك الجمهور في مضمونه او لا يشارك بالاستناد الى مقدار النضج الانساني والفني والتقني عند رجال المسرح الذين يترجمون هذا الدس مشاهد وحالات تعج بالحياة .

ومن هنا ينطلق اقتناعي بان نشأة المسرح الفعلية تعود الى عشر سنوات خلت واعتبرها المرحلة الحديثة لان الانفتاح على الغرب قبل المرحلة كان انفتاحا على الادب المسرحي اما بعد ١٩٦٠ فبدأ هذا الانفتاح يتوجه نحو الفن المسرحي كفن قائم بذاته له تقنيته ومبادئه ومفاهيمه الخاصة . وقد قوي هذا الاتجاه عن طريق سرعة المواصلات من جهة وكثرة اقبال الاجيال الجديدة خاصة على استطلاع احداث الحركات المسرحية في العالم من خلال الاسفار او من خلال المطالعات . ثم ان هذه المرحلة تميزت بوجود متخصصين في الفن المسرحي منصرفين اليه انصرافا شبه كامل فتميز بالتالي المخرج عن الممثل وظاهر الاخراج كفن فاصبح الجهد منصبا على خلال العمل المسرحي المتكامل وليس على اجادة الخطابة والالقاء كما كانت الحال قبل هذه المرحلة وطوال مئة سنة . وقد برزت في الوقت نفسه حاجة جديدة على صعيدي الحياة والفكر هي حاجة التعبير عن مواقف انسانية من الموت والحياة والفرد والمجتمع والقدر والله والجنس وسائر المشكلات التي يعانيها الانسان الحديث . فاذا بالمسرح يظهر مواقف متضاربة احيانا ولكنها متفقة في الثورة على الاشكال والمضامين الراكدة التي كان يستقر فيها المسرح القديم رافضة ان تظل مجرد اعياد للتسلية ومناسبات للوعظ والارشاد .

ان تحرر المسرح العربي عامة واللبناني بوجه خاص من هذه الخطابية ، وضعه وجه لوجه امام مسؤولياته الجديدة ، وامام التيارات الحديثة للمسرح كفن خشبي متكامل .

ولقد استطاع لبنان ، بفضل التقاء عدد من الظروف والاوضاع السياسية والحضارية ، ان يصبح مختبرا ممتازا لهذه المرحلة الجديدة التي يمر بها المسرح العربي .

فطبيعته المنفتحة على مختلف التيارات واتصاله الدائم بالعالم الخارجي ، واعتماد النشاطات الثقافية فيه على المبادرات الشخصية

بعيدا عن توجيه الدولة، وشغف الفنانين اللبنانيين بالمغامرة والاكتشاف وطبيعة جمهوره المتعددة الاتجاهات ، ضمن رقعة صغيرة من الارض ، كل ذلك ، وغيره من الظروف التي تكون واقع الحضارة اللبنانية الحديثة جعل للمسرح في لبنان هذه الاهمية الاختباريه التي قد لا تظهر نتائجها في اعمال باهرة ، ولكنها تفعل فعلها في تهيئة التربة الصالحة لخلق مسرح اصيل .

وليس يمكن لهذه التجربة اللبنانية ان تؤتي ثمارها الحقيقية الا بالاتصال الدائم مع التجارب المسرحية في مختلف اقطار العالم العربي لان هذه التجربة وان تكن متميزة ببعض الخصائص الذاتية ، الا انه لا يمكن فصلها عن مجمل الحركة المسرحية في البلدان العربية الاخرى. وان هذا الاتصال بين المسرح اللبناني والمسرح العربي ، يفرض التفاعل وتبادل التجربة والحوار النظري لتحديد مفاهيم مسرحية جديدة خاصة بنا كشعوب ذات لغة واحدة وقضايا مشتركة ومصير واحد .

لكن ما هي التجربة اللبنانية ، ما اهتماماتها وما طبيعتها ، ما هي المراحل التي مرت بها ، والتيارات التي تفرعت عنها ؟ هذا ما نحاول عرضه الان بشيء من الايجاز .

بدأ المسرح اللبناني الحديث في اوائل الستينيات بمثابة تقليد لتقنيات المسرح الاوروبي وتولد عن هذا التقليد حركة مسرحية سجلت خطوة مهمة في طريق التحرر من سطوة الكلمة وخطابية الالقاء .فتوجه الفنانون الى الخشبة كفن مستقل عن ادب الكتابة ومضوا يبحثون عن طرق جديدة للتعبير المسرحي ، ويولون الاخراج وتدريب الممثل ، اهمية اولى في هذا المجال التعبيري الجديد .

كانت هذه هي الخطوة السلبية الاولى التي لا بد منها كانت بمثابة مرحلة انتقالية للبحث عن اشكال جديدة ، اذ لم يكن ممكنا التحرر الخطابي السابق الا بتقليد جديد يضعنا في اتصال مع تطور المسرح العالمي .

ولكن الامر لم يكن سهلا . فقد كنا امام تراث حضاري مثقل بمفاهيم وعادات فكرية وفنية يشكل اكثرها عائقا في طريق تطور المسرح ونموه في اتجاهه الجديد . فهناك مشكلة اللغة ، ومشكلة الجمهور ، ومشكلة ايجاد الممثل ، ومشكلة المؤلف المسرحي ، ومشكلة التقاليد الاجتماعية التي تنظر الى المسرح كمكان للهو المفسد للاخلاق . وكان على الرواد الاول أن يشقوا طريقهم بين هذه الصعوبات كلها ، وان يبدعوا ويتطوروا ، ويكملوا بحثهم وتفتيشهم لاكتشاف الاشكال الجديدة الملائمة ، وسط ظروف اقتصادية واجتماعية صعبة . ولم يكن ذلك ممكنا الا بثمن تضحيات كثيرة كانت في اكثر الاحيان مرهقة الى حد لا يطاق .

ومع ذلك استطاع رجال المسرح ان يجتازوا هذه المرحلة الانتقالية بحلول تتفاوت قيمتها واستطاعوا ان يحددوا لانفسهم ولجمهورهم بعض المفاهيم المسرحية ، من خلال حركة اطلقوها بين رجال الفكر والادب والفن ، فاحدثوا هذه المشاركة المطلوبة ، واصبحنا نرى الكتاب والصحفيين والنقاد والرسامين والنحاتين يعقدون الحلقات ويقيمون الندوات يتداولون فيها شؤون المسرح الجديد ومشاكله وتنعكس هذه المناقشات على صفحات الجرائد والمجلات ، وتصل الى الجمهور عبر وسائل الاعلام المختلفة فاذا بالقلق المسرحي يتجاوز جدران الاختصاصات الضيقة وينطلق الى الجمهور الواسع . واضحت المنتديات الخاصة والعامة تتداول في شؤون اللغة الفصحى والعامية وايتهما افضل للمسرح وتتنافش في قيمة الترجمة والاقتباس ، ومشكلة التاليف ، كما تطرح نظريات الاخراج الحديثة للمناقشة ، كل ذلك في اطار البحث عن طريق جديدة لمسرح لبناني اصيل ، شعر الجميع بانه في مرحلة التكوين بانتظار ولادته وتطوره .

وسرعان ما تبين ان الطريق لا يمكن ان تكون واحدة ، وان سبل الابداع في اطار الاصالة نفسها متشعبة ومتباينة ، تشعب الاتجاهات الفكرية ، وتباين المستويات في الجمهور .

من هنا انطلقت هذه المرحلة الانتقالية الى حركة متعددة الاتجاهات وظهرت التيارات المسرحية المختلفة التي يمكن أن نوجزها في خمسة :

١ ـ التيار التقليدي
٢ ـ التيار الشكلي
٣ ـ التيار السياسي
٤ ـ التيار الارتجالي
٥ ـ التيار التجريبي

ولا بد هنا من الاشارة الى ان هذه التيارات الخمسة كلها لا تخلو من التقليد لهذه او لتلك من المدارس المسرحية في العالم الحديث . واذا كنا اطلقنا على التيار الاول اسم التيار التقليدي فلانه استمرار لما كان قبل الستينات . ولانه لم يحمل اي جديد الى جمهوره . ولم يستطع أن يتحرر من سطوة الكلمه والتركيز على القصة واعتماد التسلية كهدف اخير للعمل المسرحي . ان هذا المسرح التقليدي الذي يسميه اصحابه مسرحا شعبيا بحجة انه يتوجه الى الطبقات الشعبية ، هو في اكثره مسرح كوميدي ، لا تتخطى الكوميديا فيه مرحلة التهريج اللهم الا ما يظهر فيه احيانا من انتقادات اجتماعية او سياسية شخصية لها الصفة الآنية العابرة . ولا يزال هذا المسرح مبنيا على الممثل الاساسي ـ النجم المسرحي ـ الذي تقوم عليه مهمة الاضحاك والتسلية وتناط به عملية الانتقاد ، فيملأ المسرح بحضوره ولا يكاد يغادر الخشبة حتى يترك فيها فراغا ثقيلا ينوء تحته ممثلون ثانويون .

طبعا لا يستطيع هذا المسرح التقليدي ان يرضي طموح الطليعة المسرحية ولا تستطيع هذه الطليعة أن تستفيد من تجربته لانه ، اصلا، ليس مبنيا على مدرسة مسرحية ذات قيمة ، ولم يقدم هو نفسه اية تطويرات ، حتى ضمن اطاره . واذا صحت مقابلته مبدئيا بما يسمى مسرح البولفار في أوروبا ، فانه لا يصح قياسه بما توصل اليه هذا المسرح من الوجهة التقنية على الاقل . واذا كنا نؤمن بان مهمة المسرح طرح قضايا الانسان المعاصر امام الجمهور ، وحث هذا الجمهور على ادراك مشاكله ومن ثم البحث عن حلها ، فان هذا المسرح التقليدي مقصر في هذا المجال .

الا انه استطاع بالمقابل ان يستفيد من الحركة المسرحية الجديدة التي نشأت في اوائل الستينات باكتسابه جمهورا نشأ عن رواج فكرة المسرح، وكان من نتيجة ذلك عمليا ان غصت قاعاته باناس يتطلبون سهرة مسلية ، فتحول الى مسرح دائم بعد ان كان مسرح مناسبات عابرة . يقابل هذا المسرح التقليدي ، ويشكل النقيض التام له ، المسرح الشكلي الذي كان اول مظهر للحركة المسرحية الجديدة . وتنصرف عناية المسرح الشكلي الى دراسة المظهر كشيء مقصود بذاته ، والعناية بالديكور والملابس والاضاءة وحركات الممثلين وتوزيعهم على الخشبة ، في شكل مستقل عن مضمون المسرحية الانساني او هدفها الاجتماعي . هكذا انفصلت الوسائل عن الغاية التي ينبغي ان ترتبط بها، واصبحنا نرى على الخشبة مسرحية لبرتولدبرشت مثلا تقدم بنفس الشكل الذي تقدم به مسرحية لشكسبير او لبيرندللو. وكان المسرحية ليست الا مجموعة من الاشكال والالوان والحركات ترضي العين ، بالاضافة الى موسيقى واصوات ترضي الاذن .

اما الممثل فليس له في هذا المسرح الا دور شكلي ايضا . فالمطلوب منه ان يؤدي حركات معينة مدروسة ، وان يتنقل ضمن نقاط محددة ، من غير ان يكون لهذه الحركات او التنقلات مبرر نفسي ناتج عن تفاعل الممثل مع الدور أو فهمه لابعاده الانسانية والاجتماعية .

لقد قابل الجمهور هذا الاغراق في الشكل ، بدهشة اولى اذ رأى نفسه امام مسرح لم يألفه واسلوب يختلف تماما عما تعوده في المسرح التقليدي . الا انه لم يلبث ان رأى في هذا النمط الشكلي شيئا لا يمكنه ان يتجاوب معه ، لفقدان نقاط المشاركة الانسانية الشعورية أو العقلية مع هذا المسرح الشكلي ، وسرعان ما حصل الانقطاع بينه وبين الجمهور ، وكانت ردة فعل اصحاب هذا المسرح باصدار مفاهيم خاصة عن الجمهور تصل الى حد القول بالغاء دور الجمهور كعنصر فاعل في المسرحية وان العمل الفني قادر على الاستغناء عن هذه المشاركة كعملية مكتفية بذاتها .

الا ان هذا المسرح الشكلي استطاع ، بالرغم من الانقطاع بينه وبين الجمهور الواسع ، ان يقدم للحركة المسرحية الجديدة عددا من الفوائد الايجابية . فهو منطلق اصلا من مفهوم مسرحي ياخذ بعين الاعتبار عملية الخلق على الخشبة نفسها . كما استطاع ان يبين ان هناك شيئا غير الكلمة الادبية وحدها ، وان دور المخرج ليس مجرد ناقل للنص من دفات الكتب الى مسامع الجمهور ، بل يقوم بدور ابداعي هام انطلاقا من النص ومما يتجاوز النص في اكثر الاحيان .

يختلف التيار السياسي عن التيار الشكلي في المسرح اللبناني بانه ادرك اهمية الجمهور كقطب اخر هو مصدر الابداع المسرحي وغايته . وقد انطلق هذا المسرح من مبدأ الالتزام السياسي والعقائدي بالقضايا الشعبية . وبدأ يترجمات لبرتولدبرشت ليصل الى مسرحيات الفت واخرجت على النمط البرشتي . وقد كان من فضل هذا المسرح انه طرح بصورة جدية فكرة التقليد والاصالة في معالجة القضايا الشعبية . وفكرة ارتباط العمل المسرحي بالجمهور فضلا عن انه طرح على بساط البحث مجمل النظريات التي ينادي بها برشت في ما يسميه المسرح التعليمي . وهنا يمكن التساؤل هل ان المسرح السياسي التعليمي هو مجرد دعوة الى الالتزام ام انه يحمل ايضا مبادىء مدرسة جديدة في تقنية الاخراج ومبادئه الفنية ؟

وبالرغم من اجابة برشت الواضحة بانه يعتمد مسرحا جديدا كل الجدة ، وان مدرسته تتناول المضمون والشكل الملائم له ، فان التساؤل يبقى واردا اذ ان عددا من المبادىء الفنية الجديدة التي اعلنها ، كالابتعاد والغاء الانفعال ، ومحاربة الاتحاد مع الدور ، لا تزال اما غير واضحة ، واما غير واضح الفرق بينها وبين المبادىء المألوفة في تاريخ المسرح قبل برشت .

ولكن يمكن القول هنا ، على هامش المسرح البرشتي ، ان العقلانية الصارمة التي تبلغ ذروتها عنده في محاربة الانفعال والسعي الى الغائه قد تكون مرحلة ملائمة للجمهور الاوروبي الذي تتجاوب طبيعته مع الرودة التعليمية التي يعتنقها برشت ، ولكنها لا تنسجم مع طبيعة شعبنا ، هذه الطبيعة الشعورية التي لا تستطيع ان تفصل عوامل الانفعال حتى عن مجالات الاقتناع العقلي .

وجملة القول في المسرح السياسي عندنا انه فتح بابا جديدا . واذا كان هذا المسرح في بدايته متأثرا بمدرسة برشت ، الا انه يحمل امكانيات التطور وليس مستغربا ان يصل الى يوم يعتني فيه بالتجارب الجديدة فيكشف اشكالا اخرى يكون من شانها ان تسهم في بناء المسرح اللبناني الاصيل .

ينطلق المسرح الارتجالي من النظريات والتجارب التي قامت بها جوان ليتل وود ومن بعض الحركات المسرحية الحديثة التي ترفض الشكل التقليدي للمسرح الذي يسيطر عليه نص معين . وقد انتقلت تأثيرات هذا المسرح الارتجالي من اوروبا واميركا الى لبنان في اواخر الستينات . وبدأ انصاره يجرون التجارب لخلق مسرحيات جديدة ، تعتمد على الممثل كنقطة بداية لولادة المسرحية . اما النص فليس له الا شأن ثانوي جدا ، باعتباره نتيجة لا نقطة انطلاق لتقديم العمل المسرحي . وليس ضروريا ان يكون النص من خلق انسان واحد، بل من الممكن ان يوجد او يتحول او تتغير جميع معالمه بواسطة حالات يمر فيها الممثلون ، فيأتي الحوار بمثابة افراز صوتي لهذه الحالات النفسية . والطريقة العملية للوصول الى ذلك ، هي اتخاذ فكرة معينة وطرحها على الممثلين ودعوتهم الى الارتجال ضمن نطاق هذه الفكرة . فتلتقط هذه الارتجالات وتسجل ثم تجمع وتناقش في حفلة تاليف جماعية يشترك فيها المخرج والمؤلف اذا كان هناك مؤلف معين ـ وبقية الممثلين حتى يستوى النص المسرحي على هذا الاساس .

ومما لا شك فيه ان طريقة الارتجال هي من انجع الطرق لتدريب الممثلين ، وقد اعطت نتائج ملموسة في هذا المضمار . بل هي في الواقع مدرسة للمخرج والمؤلف والممثل في آن واحد ، اذا مورست كتمارين مسرحية ، واختبارات عملية للمسرح . وقد ساعدت من جهة اخرى على تقوية الاتجاه المسرحي الحقيقي للمسرح ، اقصد الاتجاه الذي ينظر الى الخلق على الخشبة كعملية خلق كاملة . فالمخرج والممثل لم يعودا مجرد جسر من المؤلف الى الجمهور لكنهما ـ وخاصة المخرج ـ يقدمان وجهة نظر معينة معبرا عنها بالاخراج وطريقة الاداء .

الا ان هذه الجدوى على صعيد التمارين المسرحية يقابلها عدد من الثغرات اذا اعتمدت طريقة الارتجال دائما كاسلوب لتقديم المسرحيات الى الجمهور . اي اذا انتقل الارتجال من طور الاعداد الى طورالانتاج. ففي هذه الحالة يتعرض العمل المسرحي لمجرد الصدفة لانه تبين ان الممثل لا يستطيع دائما ان يرتجل . او لا يستطيع ان يرتجل دائما شيئا ذا قيمة بل لا بد له من ان يمر في حالات خاصة لا تتوافر له في كل حين . واذا توافرت له في وقت معين فانها لا تتوافر في الوقت نفسه لرفيقه الذي يشاركه في التاليف الجماعي . وهكذا قد تبقى المسرحية سنوات وسنوات في طور هذا الارتجال دون ان يصدر عن الممثلين مجتمعين شيء مهم يصلح تقديمه للجمهور . اضف الى ذلك ان الامر يتوقف على قدرة الممثل على العطاء الفكري . او على التعبير بالكلام عن احساسه وتفكيره . اذ ليس ضروريا ان يكون كل ممثل ناجح قادرا على التفكير في مستوى الخلق ، او على التعبير بالكلام عن افكاره في هذا المستوى فللتمثيل الناجح شروط تختلف في اكثر الاحيان عن شروط التاليف الجيد .

وخلاصة القول ان التاليف ، ككل عمل فني ، يجب ان تكون له وحدة عضوية لا يمكن ان يكفلها الا المؤلف الواحد .

فكل خلق ينبغي ان يكون مسؤولا عنه انسان واحد في آخر المطاف هو الفنان المبدع ، واذا تعدد المبدعون المشاركون في الخلق الفني الواحد قام التنافر بين الاساليب ، والتضارب في وجهات النظر ، وتم التباعد بين الشكل المتعدد الالوان والمضمون الذي ينبغي ان يرتكز على فكرة اساسية واحدة .

في سبيل هذا التاليف العضوي بين الشكل والمضمون قام التيار الاختياري في لبنان . فما هو هذا التيار وما هي نظرته الى العمل المسرحي ؟

الواقع اننا اذا استثنينا المسرح التقليدي الذي يسميه اصحابه المسرح الشعبي ، نرى ان جميع التيارات المسرحية الاخرى في لبنان تعتمد على شيء من الاختبار والتجريب . الا ان التيار الاختباري يختلف عنها في انه يعتمد التجريب كوسيلة علمية للاكتشاف على

التتمة على الصفحة ـ ٦٨ ـ

اختلاف الاتجاهات الأدبية وآفاق المستقبل العربي

بقلم الدكتور
الحبيب الجنحاني

نذكر ، بادىء ذي بدء ، ان الاتجاهات الادبية العربية المعاصرة ليست محددة وليست مدروسة حسب رؤية حضارية هادفة ، ونظرة كونية شمولية لماضي الوطن العربي القريب ولحاضره ، المهزوم المأزوم، ولآفاق مستقبله الغامض .

هناك دراسات متفرقة صدرت هنا وهناك حول نوع معين من انواع الانتاج الادبي ، وبينها محاولات قيمة جريئة القت اضواء كاشفة عن الشعر الحديث في السودان مثلا ، او عن الرواية المصرية ، او القصة القصيرة العراقية ، او القصة المعاصرة في سوريا ، او عن المسرح العربي مع التركيز على بلد معين حسبما تصل اليه يد الدارس من مصادر ومعلومات ، ولكن هذه الدراسات ذات الصبغة الاقليمية تشكو انعدام النظرة الشمولية ، فهي تكاد تكون شذرات متفرقات جمعت دون منهج متسق او رؤية شاملة .

ونلمس ـ الى جانب ذلك ـ تأثر هذه الاتجاهات في العالم العربي :

اولا : بما نتج عن التطور التقني المعاصر ، وما يوفره من وسائل الاتصال العالمي في ميادين النشر والدعاية ، واستعمال وسائل الاتصال الجماهيري من ذيوع شتى الاتجاهات الفكرية والمدارس الادبية والعقائدية ، هذه الاتجاهات التي نستطيع حصرها بين تيارين رئيسيين على صعيد الفكر العالمي :

ـ تيار الثقافة الانسانية المؤمنة بالتطور البشري الذائدة عن تراث الشعوب وحقوقها في الحرية والعدالة الاجتماعية يغذو أنصاره النزعات الانسانية بمزيد من روح التفاهم والتسامح ، ويفضحون ضروب استغلال الانسان ، ومظاهر السلبية والتحطيم في سياسة النظم الامبريالية .

ـ وتيار الفكر البورجوازي البراق في مظهره ، والجذاب في اخراجه ، ولكنه مناهض للروح الانسانية ، محتقر لجوهر الانسان ، جاعلا منه دمية مسخرة لخدمة الفئات الارستقراطية .

ثانيا : بالاتجاهات العقائدية المختلفة في الوطن العربي نفسه ، فهي أصدق مرآة لتلك التيارات الايديولوجية التي تقسم الادباء العرب والنخبة المثقفة العربية عامة ، مرآة تنعكس عليها في نفس الوقت تناقضات الواقع العربي ، فالموقف الادبي جزء من الموقف العام للمجتمع ، ولا يختلف اثنان في ان المجتمع العربي يعاني أزمة حادة نلمس آثارها في شتى ميادين حياتنا ، ومنها الميدان الادبي ، فلا غرو ـ اذن ـ ان نجد التناقضات التي تمزق العالم العربي ، وما تفرزه هذه التناقضات من مشاعر الخوف في مواجهة الواقع الاليم تدفع ببعض الادباء والمفكرين الى الارتماء في أحضان الانتهازية ، والركض في مقدمة ركب ذوي السلطان المطلق القهري ، وبالبعض الآخر الى مفاجأة القراء بانتاج تهب منه روح التشاؤم المسلوب الامل ، او النرجسية الذميمة ، ونجد فئة ثالثة تلوذ بالصمت لضعف الايمان، فتنعكز على ذاتها وتتقوقع داخلها ولا تخال هذه الذاتية الا فرارا من مرارة الواقع العربي .

اذا كانت الاتجاهات الادبية مختلفة ، متباينة تتلون بفرقتنا الايديولوجية غالبا ، نرجسية غامضة في بعض الاحايين ، فان آفاق المستقبل العربي تغشيها بدورها غيوم كثيفة ليس قوميا ، وانسانيا فحسب ، بل وطنيا أيضا ، فلا ننتظر ـ اذن ـ ان تكون رسالة الاتجاهات الادبية العربية المعاصرة بيّنة جلية في خدمتها لهذا المستقبل .

انه من الاوليات المعلومة أن نشير هنا الى ان المستقبل مرتبط بالحاضر ، فكيف يمكن ان تكون رؤيتنا واضحة ، متناسقة للمستقبل، ورؤيتنا لحاضرنا المشاهد مفترقة متشعبة غامضة .

ان ارتباط الاتجاهات الادبية بالمستقبل العربي متين الصلة بحاضرنا وقضاياه .

ان التناقضات العميقة التي يعانيها الوطن العربي منذ سنوات أدت الى بروز ظاهرة جديدة في حياتنا الثقافية ، ظاهرة الادب المتأزم والفكر المتأزم ، فقد يرى البعض في هذا سوداوية مسرفة ، ولكنني في الحقيقة أبعد ما أكون عن السوداوية أو التشاؤم وانما أنظر الى ظاهرة تأزم الفكر العربي نظرة واقعية دون ان افقد الامل ، او ينقطع عني نفس النضال . ان أمر أولئك الذين يريدون ان ينظروا الى الحركة الادبية والفكرية عامة بعين الاعجاب والرضا الغريب ، فلماذا يريدون ان ينفرد الادب بالبعد عن التأزم ، والعالم العربي في شتى مظاهره يشكو الركود ، وعلائم أزمة حادة . أليس من المنطق والبداهة أن يمس أدبنا رذاذ من هذه الازمة ، ولا سيما اذا طالبناه ان يكون ابن بيئته ؟

ان أسباب هذا التأزم معقدة ، متشعبة ، مرتبطة وثيق الارتباط بأزمة الاوضاع في اكثر البلدان العربية ، فالتحول العميق وتطور الاحداث السريع منذ الخمسينات جعلا العالم العربي يواجه سؤالا مطروحا عليه بشكل حاد وحتمي ، سؤال معركة المصير ، والمنعرج الذي سيسلكه ، سؤال وضع الانسان العربي المعاصر ، العامل ، والفلاح ، والمفكر ، والسياسي بين الوجود واللاوجود . فقد عاش هذا العالم هزيمتين ، هزيمة ١٩٤٨ ، وهزيمة ١٩٦٧ ، سلطتا أضواء كاشفة على نقاط الضعف الحضاري للامة العربية ، فقد بلورت الهزيمة الاولى نظرية القومية العربية ، وقد رفعت أولا شعار استكمال مظاهر السيادة ، والحرية السياسية ، ثم شعار العدالة الاجتماعية ثانيا ، فأجهضت الحرية السياسية في كثير من البلدان ، وبقيت العدالة الاجتماعية شعارا فقد سحره لدى الجماهير التي طال انتظارها ، وجاءت الهزيمة الثانية لتجعل القومية العربية تواجه قضية مصيرية خطيرة ، وأزمة اختيار حاسم ونهائي :

ـ اما الوحدة ، ولتكن مرحلية ، باعتبارها الطريق الوحيد مع الوعي الكامل بمشاكلها المعقدة ، وتناقضاتها الداخلية العميقة على اساس حلها داخل الوحدة ، وليس قبلها ، لان قبلها لن تحل ، فالتطبيق هو السبيل الناجع لايجاد الحلول . ونلح على أهمية الوعي الكامل بذلك حتى لا تقع نكسة ، او خيبة أمل لدى حماتها : الجماهير العربية .

ـ او الانكماش والانهزامية بحجة اختلاف الاوضاع ، وافتراق المصالح ، ولكن مصالح من ، مصالح الفئات الحاكمة ، ام مصالح الطبقات الكادحة ؟ وفي هذه الحال تجمد القضية أجيالا ، وتعجز

الامة العربية عن مواجهة التحديات ، فتستسلم .

ان السؤال ـ اذن ـ ما يزال مطروحا ، سؤال الوجود ، أو اللاوجود ، وان يترقب الاجابة طويلا .

وهذا السؤال نفسه هو الذي جعل موضوع رسالة الادب ، ودور المثقف في خدمة المستقبل العربي ، والمساهمة في حل المشكل المطروح حلا موضوعيا ، منسجما مع الرؤية الحضارية ، والتطور التاريخي يخدم مصالح الجماهير الشعبية يطرح نفسه علينا من جديد بشكل حاد وحتمي وباسلوب أخطر مما طرح به في مرحلة التحرر الوطني .

ان الادب قام بدور فعال في مرحلة التحرر الوطني ، وتجاوب مع نظرية القومية العربية ، وتحمس في كثير من جوانبه ، ورغم اختلاف الاتجاهات لقضية الوحدة ، ولكن جذوة الحماس بدات تخمد لدى الكثيرين ، وأصبحوا يلوذون بالانتاج السريع الغامض الاهداف ، أو بالصمت ، ان بقوا مخلصين لمبادئهم ، والاديب العربي في هذا متفاعل مع الواقع ، عن وعي او عن غير وعي ، فقد بقي السؤال منذ الهزيمة الثانية مطروحا على الامة العربية بدون جواب ، بل لمس ترددا كبيرا ، ان لم نقل رفضا ، للسير في ذلك الطريق الوحيد ، وهكذا تكثفت السحب في سمائنا ، وتازم الوضع ، فانعكس ذلك على الادب، والاديب ، ولا سيما وهو في كل هذا تابع لا متبوع ، فقد شعر في السنوات الاخيرة بالهوة السحيقة التي تفصله في جل الاقطار العربية عن النظم القائمة ، وبدوره الطفيلي الهامشي في تحديد الاختيارات المصيرية وطنيا وقوميا ، فبعد أن نضج الاحساس الوطني والاجتماعي بين الخمسينات والستينات بصورة عنيفة بدأ المثقف يبحث لنفسه عن دور يؤديه في غمار تلك الحركة الشاملة ، ولما شعرت الجماهير بعد ذلك باهمية العدالة الاجتماعية الى جانب الاستقلال الوطني ، والنظرية القومية التي أرادت أن تعوض اجهاض الحرية السياسية بشعار العدالة الاجتماعية ، حاول الاديب العربي الجديد ـ بغض النظر مرة أخرى عن الاختلافات العقائدية ـ أن يجعل أدبه مرآة لمشاكل الشعب وآماله ، ولكن يجد نفسه في خاتمة المطاف في زقاق حين تازم الوضع ، وافترقت السبل ، وطرح سؤال الوجود واللاوجود يؤدي دورا هامشيا واقفا على حافة الطريق ، ان سمح له بحرية الوقوف ، شاعرا أن مصلحته الحيوية ورسالته متناقضة مع مصالح الطبقات السائدة . يقول « لوكاتش » : « ... ذلك لان الصعوبة الخاصة في وضع المثقفين ترجع اذن الى انهم لا يستطيعون ان يمثلوا مصلحتهم الحيوية الاولية بصورة فعلية الا حين يجابهون صراحة السياسة الرجعية للطبقات السائدة ، والا حين يساندون الجماهير في كل المسائل التى تتعارض فيها مصالح الطبقات السائدة مع مصالح جماهير الشعب الشغيل الفقيرة ، ويدافعون عن هذه المصالح ، ويضفون عليها طابعا عاما » .

ان وضع النخبة المثقفة في الوطن العربي ، وطبيعة رسالتها يكشفان تناقضا غريبا في أقطارنا ، فهي من جهة في حاجة ملحة الى ذوي النظرة المتكاملة الشمولية ، والكفاءات في التسيير ، وخاصة في اتخاذ القرارات في معركتها الكبرى ضد التخلف ، ومظاهر المجتمع الاقطاعي الراكد ، ومن جهة اخرى ينظر حكامها بكل حذر واحتراز الى نخبة البلاد ، واكثر الناس كفاءة وأعمقهم وعيا . ان نظرة سطحية سريعة لهذا الوضع تجعل المرء يستغرب ، ولكن التمعن عن كثب في طبيعة اكثر النظم الحاكمة يكشف عن الداء المستحكم الدفين .

وقد يقول عشاق المثالية ، وأصحاب الشعارات العاطفية الفضفاضة ، ولكن للادباء رسالة خاصة ، فهم من اكثر الفئات الاجتماعية وعيا ، ويجب عليهم ان يحملوا مشعل النضال . انني لا أنازع ان للمفكر العربي دورا خاصا في هذه المرحلة التاريخية المعينة التي نمر بها ، ولكننا نخطىء حين نركز على دوره ، ونتغافل عن رسالة الآخرين وفي مقدمتهم رجال السياسة ، فدورهم أخطر ، ومسؤوليتهم أثقل ، فهم المباشرون لشؤون الحكم ، وبيدهم اتخاذ القرارات الحاسمة المصيرية ، أما المفكر فانه يؤدي دورا هامشيا كما رأينا ، فكيف نطلب منه بعد هذا ان يخدم بادبه المستقبل العربي وطنيا وقوميا ، وانسانيا . ولا أوافق من يذهب الى الرأي الى ان « الاديب عموما تعود على المعارضة ، على السلبية ازاء النظم ، ولم يوطد نفسه للبناء » ، فمن ترك له المجال ان يقوم بعملية البناء هذه ، ولا سيما المشاركة في وضع هندسة هذا البناء ، اما ان يدعى للقيام بدور ثانوي على خشبة مسرح هذه الاحداث الخطيرة التي يمر بها الوطن العربي فذلك في رأيي أبعد ما يكون عن الرسالة الحقيقية للمفكر العربي .

ونرى اتجاهات الادب العربي المعاصر تتأثر في هذا الوضع برؤية الاديب ، فمن له رؤية ثورية واضحة يواصل السير في دربه ، واعيا بتلك الهوة العميقة التي تفصله عن مصالح الفئات السائدة ، ورأينا فئة اخرى تخنع فتسير في الركب راكضة ، لاهثة ، وثالثة تلوذ بالصمت ، فتتقوقع داخل نفسها .

فمن أبرز مظاهر الاختلاف في الاتجاهات الادبية المعاصرة ـ اذن ـ تباين هذه الرؤية في صفوف الادباء ، وانعدامها لدى عدد كبير .

ان الواقع الراهن الذي نعيشه في الوطن العربي يحتم اختلاف الآراء والمعتقدات الايديولوجية ، والفنية ، وبالرغم من صعوبة التبويب وتذبذب الاتجاهات لدى الكثير من الادباء والمفكرين العرب فسنحاول ابراز أهم مميزاتها التي يحتويها تياران بارزان :

ـ تيار محافظ نجد ضمنه اكثر من اتجاه .

ـ وتيار تقدمي يضم ألوانا من الاتجاهات العقائدية ، نجد بينها الوطني التقدمي ، والعربي الثوري التقدمي ، والعربي الشوفيني الرجعي ، والماركسي الكلاسيكي المتحجر ، وتيار اليسار العربي الماركسي الجديد .

وبرز من هذا التيار التقدمي ، بغض النظر عن الانتساب لايديولوجية معينة ، مثقفون تمكنوا من تحويل مجرى التأثيرات المتروبولية وساهموا في تغذية الثقافة القومية ، وصقل معالم التراث ، ومظاهر الاصالة العربية ، وانعاش المعاني الانسانية .

ونجد لجميع هذه التيارات الايديولوجية ـ وهنا يلتقي الكتاب والشعراء مع بقية المواطنين الواعين في العالم العربي ـ انعكاسا في الانتاج الادبي العربي المعاصر ، وتأثيرا فيه ، وينبغي ان نقوم بايضاح ذلك في ندوة مختصة انطلاقا من النصوص نفسها .

وقد يرى البعض خطرا في ابراز هذا التباين في صفوف النخبة ، والتأكيد عليه . انني أعتقد ـ بالعكس ـ انه ليس أخطر على الانتاج الادبي ، بل على الفكر عامة ، أن نخفي خلافاتنا الادبية والفنية ، وما يكمن وراءها من فرقة عقائدية ، فالاختلاف في المنازع الفكرية ، والاتجاهات الايديولوجية ، ينتج عنه بطبيعة الحال تباين في النتائج ، والسمات والاتجاهات الادبية والفنية ، فلا مناص ـ اذن ـ من طرح قضية تعرية المفاهيم الفكرية والتحديد النظري ، فهي قضية ملحة جوهرية ، فلا بد من وضع العلامات المميزة لكل منها وتوضيح قسماتها ، ومضامينها وأشكالها الاجتماعية ، ومنطلقاتها الفكرية بغية تحديد الرؤية لما ستفرزه من نوازع ، ومواقف في حاضرنا الراهن .

وهل نستطيع ان نتحدث عن تاثير الاتجاهات الادبية العربية المعاصرة في المستقبل العربي دون ان نعرف منازعها ، ومنعرجاتها ، لان هذا التاثير سوف لا يكون موحدا ، وسوف يكون هو نفسه متأثرا بمعطيات معينة سيعيشها الوطن العربي ، أو بالتيارات الوافدة عليه ، فهو غير حصين ، منيع فكريا ، ما يزال تتجاذبه مختلف المذاهب ، وشتى المدارس . اننا نشعر بأن مناقشة خدمة الاتجاهات الادبية المعاصرة للمستقبل العربي تدخل في باب الحدس والتنجيم .

أن التأثيرات العقائدية في الاتجاهات الادبية ما تزال بارزة في قضية تكاد تصبح كلاسيكية ، قضية الادب الملتزم الهادف ، او الواقعية الاشتراكية في الادب والرومانسية ، وقد انعكست على الادب العربي المعاصر جميع المشاكل التي مرت بها مدرسة الواقعية الاشتراكية في الادب الاوروبي والاميركي دون أن يستطيع الاستفادة من تجربتها في أوروبا ، ولا سيما في أوروبا الشرقية ، واتقاء أخطائها هنالك ، فنجد أنصارها في الادب العربي المعاصر يتطرفون ، فيبالغون ، فهذا سلامة موسى يعارض تبني الدكتور طه حسين الدعوة الى ترجمة آثار شكسبير قائلا : « ان ترجمة شكسبير عمل رجعي ، لان شكسبير نفسه ليس اكثر من فنان رجعي «ملوكي» كان يكتب عن الملوك ، ولا يهتم الا بارضاء البلاط الملكي ، ونحن نريد فنا للشعب ، وأدبا للشعب » (رجاء نقاش ، أصوات غاضبة ، ص ٤٧) . ويدين ناقد من نقاد الواقعية الاشتراكية ، الدكتور عبد العظيم أنيس ، ابراهيم عبد القادر المازني دون النظر الى القيمة الانسانية في انتاجه الادبي ، ودون اعتبار الى ان مؤلفات المازني تعد وثيقة تاريخية وأدبية هامة في فهم المجتمع المصري خلال مرحلة تاريخية معينة ، واعتبرت هذه الواقعية المتطرفة المتحجرة أديبا بارعا في تصوير حياة فئات اجتماعية معينة في المجتمع المصري هو نجيب محفوظ فنانا سلبيا بحجة انه يكتب عن الطبقة المتوسطة ، ويهمل العمال والفلاحين ، وانه متشائم تنتهي رواياته بالهزائم ، وانحدار أبطالها .

وظهر انتاج تحت شعار الواقعية الاشتراكية لا يقيم مؤلفوه لاصول الفن الادبي وقواعد الانتاج الفني عامة كبير وزن ، فاصبحنا نقرأ انتاجا شعريا وقصصيا ، ونقدا أدبيا مليئا بالشعارات ، يطغى عليه طابع خطابي يذكر بالخطب السياسية ، وحملات التوعية الجماهيرية . أما الجواز الوحيد الذي دخل به هذا الانتاج عالم الادب والفكر فهو حديثه عن العمال والفلاحين ، وادانته للبورجوازية ، فهو « أدب بروليتاري » وهذا يؤكد ما لمحنا اليه من ان انصار اتجاه الواقعية الاشتراكية في الادب العربي المعاصر لم يستفيدوا من الاخطاء الفظيعة التي وقعت فيها هذه المدرسة في ظل الجمود الستاليني ، وهكذا أصبح « أي شاعر هزيل الفن يكتب قصيدة عن الاقطاع أفضل — في ظل الواقعية الاولى — من أي شاعر موهوب أصيل يكتب قصيدة عن الحب أو الحزن » ، فهزل الاسلوب ، وأهملت قيمة اللغة الفنية، وكأن هنالك تناقضا بين المضمون الملتزم الثوري ، والصيغة الفنية الموهوبة . يقول الناقد ف. ف. كالفرتون في كتابه « تحرير الادب الاميركي » موضحا رأيه حول هذه الظاهرة التي أصيب بها الادب في أوروبا وأميركا قبل وصولها للادب العربي : « ان الناقد البروليتاري الثوري لا يهدف الى الغض من قيمة الصنعة الادبية وانما كل ما يذهب اليه هو ان الصنعة الادبية وحدها غير كافية ، وان الصنعة الادبية ينبغي أن تستخدم لخلق اشياء ذات معنى ثوري ... والمعاني الثورية المجردة من الصنعة الفنية تشكل عند الناقد الجذري وضعا فاشلا لا يقل فشلا عن وضع الصنعة الادبية المجردة من الهدف الثوري . واذا كان الادب البروليتاري قد فشل في كثير من وجوهه في اميركا فما ذلك لانه أدب بروباغندا ، بل لان خصائص الصنعة الفنية تنقصه ... فاذا ما أوتينا الصنعة الفنية فهدفنا يجب ان يكون ان نجعل من الفن خادما للانسان كوسيلة للكفاح لا ان نجعل من الانسان خادما للفن كوسيلة للهرب » .

ومن امراض الطفولة التي أصيبت بها الواقعية الاشتراكية في الادب العالمي ، وأصيب بها الادب العربي بالتبعية تنكرها للعواطف الانسانية باعتبارها من مظاهر الضعف البشري ، فكل فن يعالج هذه المظاهر هو فن ذاتي ، و « البطل الايجابي » هو المثال الوحيد الذي يجب الاعتناء به ، ويجب أن ينتصر في نهاية القصة ، أو المسرحية !

ويذكر هذا الاتجاه المتحجر بفئة الرافضين للتراث العربي رفضا مطلقا بحجة انه ذو محتوى رجعي .

واستغل أنصار الاتجاهات الرومانسية في الادب مغالاة الواقعية الاشتراكية ، وجمودها ، وتعلقها بشعارات شكلية فهاجموها صراحة ، والصقوا بها تهما ، الواقعية الاشتراكية براء منها ، مثل اتهامها بأنها تدعو الى التفسير الاقتصادي للادب والفن ، أو انها دعوة للمضامين الثورية والاجتماعية دون أي اعتبار للصنعة الفنية ، وللشكل ، وهكذا اتخذوا من نظرة ضيقة متحجرة للواقعية وتطبيقا جامدا لها فرصة للتنديد بها .

وهنالك من استعمل الواقعية الاشتراكية لمهاجمة التيار الاشتراكي في الوطن العربي .

ولا بد من الاعتراف هنا بان أبرز النقاد العرب ذوي النزعة الماركسية أدانوا بانفسهم ، منذ الستينات ، هذه النظرة الضيقة للواقعية ، فهذا الدكتور لويس عوض يعدد المدارس التالية :

- مدرسة الاشتراكية الثورية .
- مدرسة الواقعية الاشتراكية .
- مدرسة الادب الهادف .
- مدرسة الحتمية الاقتصادية او الجبر التاريخي .

ويرى فيها خطرا على الاشتراكية بمعناها الانساني الحقيقي ، ويقول : « ولكن المغالاة في هذه النظرة تتضمن من ناحية حكما بالاعدام على الكثرة المطلقة من تراث الفكر الانساني ، والفن الانساني ، والثقافة الانسانية لا لذنب الا لانها لم تعن مباشرة بترقية الجماهير وتحريرها ماديا وروحيا . كذلك المغالاة في هذه النظرة من شأنها ان تؤدي الى تجاهل حقيقة من أهم حقائق التاريخ ، ألا وهي ان كثيرا مما نعده اليوم فلسفات ، او غيبيات بورجوازية رجعية تعترض تقدم الجماهير كان في يوم من الايام قمة الثورية التحررية ، وقمة الجماهيرية التقدمية عندما كانت البورجوازية نفسها تتبنى آمال الجماهير ، وتتعذب بآلامها في صراعها الرهيب لتنسف معاقل الاقطاع . وهذا هو الشطط الذي ارتكبه نقاد اليسار الشيوعي ومفكروه حين حملوا حملة عمياء شاملة على كل فكر مجرد ، وكل اتجاه روحي ، أو مثالي بحجة انه يعبر عن عقلية البورجوازية الصغيرة » (الاشتراكية والادب) .

ونجد ناقدا بارزا من أنصار الواقعية الاشتراكية المتحررة ، ذات النزعة الانسانية هو الاستاذ محمود أمين العالم يقول : « ان كل قصيدة حب حقيقي ، هي قصيدة تقدمية . ان كل عمل فني يملأ قلب الانسان بالحرارة والبهجة هو عمل تقدمي . ان كل ابداع يضيف الى وجدان الناس مذاقا جديدا للحياة هو ابداع تقدمي » (الثقافة والثورة) . ولكن بالرغم من هذا النقد الذي قام به الادباء الاشتراكيون انفسهم للنظرة الضيقة للواقعية الاشتراكية ، محاولين ازالة ما علق بها من شوائب وتهم ، فان التيار الذي تمثله هذه المدرسة قد انحسر، وأصيب بانتكاس في الاعوام الاخيرة ، فالرومانسية الادبية الجديدة تعيش حالة مدّ بعد ان تقلص ظلها في بداية الستينات ، وتمر الواقعية الاشتراكية بحالة جزر . ويخالف رجاء نقاش هذا الرأي مؤمنا بأن هنالك « واقعية ثانية » قد ولدت تختلف عن « الواقعية الاولى » ، « واقعية ثانية قد أذابت الجليد بينها وبين المدارس الفنية الاخرى وبالاخص المدرسة الرومانسية » !!

ويرى هذا الرأي حسين مروة ، ومحمود أمين العالم ، فيزيل حسين مروة في كتاب « دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي » « التناقض المزعوم بين الرومانسية والواقعية ، ولا يقف ... عند المناقشة النظرية لهذه القضية ، وانما يعرضها عرضا تطبيقيا ، فيختبرها في بعض المنجزات الادبية عند عدد كبير من الادباء من امثال يوسف ادريس ، ونجيب محفوظ ، وصلاح عبد الصبور ، وعبد المعطي حجازي ، وعبد الرحمن الشرقاوي ، وصلاح جاهين وغيرهم » (الثقافة والثورة) .

فلا انحسار اذن ولا نكسة في رأي هؤلاء النقاد الثلاثة المعروفين

بانتمائهم للتيار التقدمي بين الاتجاهات العقائدية المختلفة الكامنة وراء المدارس الادبية في أدبنا العربي المعاصر .

انني أعتقد ان اذابة الجليد بين « الواقعية الثانية » والرومانسية الجديدة محاولات لاخفاء النكسة الواضحة التي تعيشها الواقعية الاشتراكية في الحياة الأدبية والفنية في كثير من البلدان العربية . وأرى ان هذه الازمة التي تمر بها مدرسة ادبية تقدمية من مدارس الادب العربي المعاصر متصلة وثيق الصلة بظاهرة الانتكاس التي حصلت للتيار الاشتراكي في كثير من أقطار العالم العربي خلال السنوات القليلة الماضية ، فقد أدت هذه الظاهرة الى بروز تيارات رجعية محافظة في السياسة والفكر ، كان لها انعكاسها على التيارات التقدمية في الانتاج الادبي والفني . وقد يعتقد البعض ان السبب يعود الى ان الادب الاشتراكي الهادف لم يثمر في عالم الفعل ، ولم تظهر نتائجه . ان هذا الاتجاه يدل على فهم سطحي لرسالة الادب الواقعي الاشتراكي ، فدوره ليس قلب الاوضاع وابراز النتائج الملموسة ، ان رسالته عميقة ، طويلة المدى تتمثل في نشر الوعي الحضاري الثوري في صفوف الجماهير . ونشر هذا النوع من الوعي العميق الهادف خطوة أساسية في طريق تقويض اركان المجتمع المتخلف الرازح تحت عبء مظاهر الاقطاع ، والقرون الوسطى ، وبناء مجتمع جديد ، مجتمع النهضة العربية الحديثة . فلا الادباء الرومانسيون ولا الواقعيون الاشتراكيون يستطيعون تغيير الواقع العربي الراهن ، فقد رأينا ان مصير هذا الواقع هو أبعد ما يكون عن أيدي الادباء والمفكرين ، ولا سيما عن أيدي الملتزمين منهم .

وينبغي ان ندرك في هذا الصدد ان انحسار الواقعية الاشتراكية لا يعني أبدا ان التيار الاشتراكي فقد مكانه في أدبنا العربي المعاصر ، فما يزال قويا يؤدي رسالته الخطيرة ، مرتبطا في ذلك بنمو وتطور الحركة الوطنية والاجتماعية نفسها ، وسيكون بخصائصه الانسانية ، ونظرته الشاملة ذا اثر واضح في تكييف المستقبل العربي .

واذا أراد الدارس ان يبرز اهم سمات الانتاج الادبي المعاصر ، بصرف النظر عن انتساب الاديب للتيار المحافظ ، او للتيار التقدمي ، فانه سيلمس الظواهر الآتية :

ـ انتاج عائم مضطرب في اكثر الاحيان يشعرك بتأزم الادب العربي المعاصر ، شأنه في ذلك شأن الفكر العربي ، وهذه التأزمية المستحكمة هي مأساة الانتاج الفكري العربي ، والواقع العربي كله .

ـ ضمور في الانتاج القيم ، وهزال في المحتوى ، وسذاجة في التفكير ، فالازمة التي يعانيها الادب العربي اليوم ليست بأزمة كمية ، بل انها أزمة نوع وقيمة ، فقد أصبح كثير من الادباء ينتجون لغرض واحد حتى لا ينقطع انتاجهم ، وينساهم الناس بدون ان يكون عندهم ما يقولونه للقراء جديداً .

ويكفي ان نذكر توقف عدد من المجلات الثقافية ، والصعوبات التي تجدها مجلات مشهورة للمحافظة على مستواها ، وضمان دراسة قيمة واحدة في العدد على الاقل لندرك مشكلة الانتاج الادبي المعاصر ، ولا يمكن ان نعمم هذا الرأي على جميع الاقطار العربية ، فبعضها يعيش حركة نشر نشطة ، ويصدر مجلات قيمة محترمة ، لولاها لارتفعت أصوات الفزع في دنيا العرب الفكرية منذرة بخطر الفراغ الفكري .

ـ الثنائية في حياة الكثير من الادباء والمفكرين العرب ، فهم يعيشون حياة مستقلة عن انتاجهم . وللوعي السياسي والثقافي أهمية كبرى للقضاء على هذه الثنائية ، فلا بد من الاعتراف بأن انتاج كثير من الادباء يكشف عن عدم وعيهم .

ـ عدم توفر الرؤية التاريخية الصحيحة في كثير من الحالات . ان الانتاج الادبي والفني يحتاج الى وعي تاريخي وحضاري ، والى الشعور بالابعاد الزمنية .

ـ الانفصام المأساوي الحاد بين الوجود الاجتماعي والوجود الفردي .

ـ التشتت الفكري ، وتمسك كل واحد بمذهبه يرى انه وحده الطلسم السحري الذي به تشفى البشرية من آلامها .

ونفرق هنا بين الصراع الفكري والادبي ، وضرورة تحديد المضامين الايديولوجية في هذا الصراع وبين الدعوة الى وحدة فكرية ، وعقلية جديدة تكون حدا أدنى يتفق حوله المفكرون العرب ويعملون على نشر هذه العقلية الجديدة بين سكان البلدان العربية ، وخاصة سكان الريف ، فلا ننسى أن التسليم القدري ما يزال سائدا في الريف ، وان التواكلية ، والنظرة الانفعالية ، والجزئية ، ما يزال كل ذلك يشكل مظهرا أساسيا بارزا في حياة شعوبنا اليومية .

ـ ومن سمات أدبنا المعاصر ندرة النماذج البشرية الايجابية البناءة وطنيا ، وقوميا ، وانسانيا ، فهو يزخر بنماذج قاتمة ، مضطربة ، لا تملك ارادة البناء . فلا مناص لانتاجنا الفكري في هذه المرحلة الحاسمة من غربلة بذور الحياة لتنبت وتنمو . ان الثورة هي بناء أولا وبالذات ، وليست تقويضا كما يتخيلها أصحاب النظرة السطحية .

ـ طغيان العاطفة والبعد عن الدقة ، والحكم على الاشياء حكما مطلقا مبالغا فيه ، فليس نادرا ان تجد من يحكم على طبيعة غابة كاملة بشجرة واحدة . ومن جديد تطرح نفسها مسألة الوعي الحضاري الهادف حتى يتم استقطاب فكري يتفق على نظرة موحدة بدون الامل في ازالة الاختلافات الايديولوجية .

هذه أهم السمات البارزة للانتاج الادبي عامة ، اما اذا أمعنا النظر في أصناف هذا الانتاج ، فاننا نلاحظ ان درجات الازمة والتأزم تختلف من نوع لآخر ، فنلاحظ حركة مسرحية هادفة خصبة ، فقد ألف في السنوات الاخيرة عدد من المسرحيات الجديدة أعطت للمسرح الطليعي العربي معالمه الخاصة ، وقفزت به خطوة عملاقة الى الامام .

اننا نستطيع ان نتحدث عن رؤية مسرحية جديدة ، وبداية مرحلة تحول في تاريخ المسرح العربي المعاصر بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧ ، اذ أخذ يساهم في حوار الامة العربية جمعاء ، ويطرح قضايا مصيرية خطيرة ، منطلقا في ذلك ، وفي لغة مسرحية فنية واضحة وضوح رؤية الكتاب المسرحيين الطليعيين أنفسهم ، من الجذور القومية للوطن العربي ، رابطا اياها بمأساة الكيان العربي اليوم مضيفا اليها محتوى ثوريا انسانيا .

ويكاد يكون المسرح العربي الجديد النوع الوحيد من الانتاج المعاصر الذي نجح في استخدام التاريخ ، وارتبط ببراعة تقنية وابداع في المضمون والشكل بالجوانب التقدمية المشرقة ، والمضامين الانسانية في التراث العربي ، كما ارتبط بالتراث الشعبي ، والواقع الاجتماعي ، ونذكر مثالا سريعا لهذين اللونين من الارتباط بالتراث التاريخي والشعبي « ثورة صاحب الحمار » و « الزنج » لعز الدين المدني ، ومسرحية « الزير سالم » لالفريد فرج ، و « ليالي الحصاد » لمحمود دياب .

وهذا التحول الذي عاشه المسرح العربي المعاصر هو حصيلة تطور دام اكثر من نصف قرن ضرب الفكر التقليدي عليه حصارا مدة طويلة استطاع أن يفكه حين نجح في تقديم القضية الاجتماعية بمحتواها الثوري بعد ان بلغ المسرح الوطني طريقا مسدودا غداة الاستقلال السياسي ، وخيبة أمل الجماهير التي حلمت طويلا بأن هذا الاستقلال سيحل القضية الاجتماعية .

ان صفة الطليعية التي نطلقها على المسرح العربي الجديد مرتبطة :

اولا ـ بتلك الثنائية التي نلمسها دائما في كثير من المجتمعات ، ولا سيما المجتمعات النامية من طلائع متشوقة للمستقبل المنشود ،

حاملة لواء النضال من أجل تحقيقـــه ، وبين جماهير كثيرة لا تزال تعيش في الماضي ، أسيرة المسلمات الغيبيـــــة ، والنظرة العاطفية الجزئية ، والتواكلية ، والروح السلفية المتحجرة . فلا بد ـ اذن ـ من حصول الصدمة والهزة العنيفـــــة ، وتلك هي السمة الاساسية لمحتوى المسرحيات الطليعية التي أنتجها الادباء العرب الثوريون ، فهم لم يقصروا اهتمامهم في طرحهم لقضيـــــة المصير فوق خشبة المسرح الطليعي على الحرب ضد الامبريالية ، والهزيمة العسكرية ، بـــــل تجاوزوا ذلك الى نقد الذات ، والسلبيات ، ومظاهر العقلية المتخلفة في شتى الميادين في الحياة الاجتماعية ، وفي السلوك الاخلاقي ، وفي النظرة الى الحياة ، وفي النظم التربوية القائمة على الحفظ ، وحشو الادمغة ، وفي نظم الحكم ، وفن تسيير شؤون الكافة .

ثانيا ـ بالطليعة الفكرية للمجتمع العربي بكل ما يزخر به مـن صراعات سياسية واجتماعية وثقافية .

ومثل الانتاج المسرحي فان القصة العربية المعاصرة ، ولا سيما القصة القصيرة ، استطاعت ان تفلت نسبيـــا من « تأزمية » الادب العربي المعاصر ، واستطاعت في كثير من البلدان العربية ان تسلك منعرجا جديدا بعد التعبير العاطفي عن مأساة الانسان العربي اثــر الهزيمة ، فتنظر الى مشاكل الواقع العربي نظرة واقعيــة تقدمية ، وتخلص كثير من كتاب الرواية والقصة التقدميين من امراض الطفولة للواقعية الاشتراكية ، ونظرية « البطل الايجابي » التي رزح تحت عبئها الانتاج الروائي والقصصي اليساري سنوات طويلة في الادب الاوروبي والاميركي ، تلك النظرية التي ينتقـــــدها المفكر الاشتراكي الفرنسي « لوفافر » قائلا :

« تدعو الى التعبير عن الجديد وحده ، وتمجيد في وجه القديم تحت زعم الواقعية الاشتراكية ، فجاءت ثمرة هذه النظرية محصـورة في الشكليات ، وجاء ابداؤها مقتصرا على تمجيـــد الاصطلاحات . ولا عجب في ذلك ، فالبطل الايجابي خال من كل تناقض بحيث يبدو خاليا من كل انسانية ولا تربطه بحياتنا اليومية أي صلة » (أصـوات غاضبة ، ص ٥٠) .

ومما نلاحظه في اتجاهات محتـــوى قسم من الانتـــاج الروائي والقصصي العربي ، وخاصة في بعض البلدان العربية ، وقوعه فـي فخ البورجوازية بتمجيده الماضي دون ربطه بالحاضر ، أعني بالخصـوص ماضي المرحلة التحريرية ، والتغني بأبطالها المزيفين دون الكشف عن الابطال الحقيقيين ، أبطال الامس ، وابطال اليوم ، أولئك المعذبين في الارض ، دعامة الثورة التحريرية ، فهو محتوى وطني لا ريب في ذلك ، يعمق الشعور القومي لدى الجماهير ، وهو شعور ما نزال في حاجة ملحة اليه لمواجهة التحديات بشتى اصنافها السياسيـــة ، والاقتصادية ، والثقافية ، ولكن نقطة الضعف في هذا الاتجاه لدى عدد من القصاصين هو فصل ماضي الكفاح التحرري عنمأساة الحاضر، والتنكر اليوم لشعارات الامس القريب ، فينقلب التغني بذلك الماضي تسلية والهاء ، فهو انتاج تعوزه النظرة الشمولية ، والمحتوىالثوري الانساني .

وهذا هو النوع من الانتاج القصصي في الادب العربي المعاصر الذي ندد به الكاتب الجزائري مصطفى الاشرف قائلا :

« وان الطبقة البورجوازية المتاجرة المستغلة اذ تعرض عـلى المثقفين والعمال التغني بالبطولات ترمي عن قصد ، او تكاد ، الـى تمكينهم من عملية يجدون فيها تسلية او تحريرا لكبتهم لا طائل وراءه ، وتدعوهم الى تمجيد الماضي القريب ، ذلك الماضي الذي لم تساهم تلك البورجوازية في تكوينه ، ولو كانت آنذاك قوية عزيزة ، والـى تمسك الشعب به تمسك المدمن على شرب الافيون .

فهذه البورجوازية التي هي اكثر الطبقات خمولا وركودا، وأسرعها الي الانهزام تنظر بعين الرضا الى هذا التعلق بالبطولة الذي يسمحلها بخدمة اغراضها الدنيئة ، وبتدعيم ازدهار لا تستحقه .

يجب ان لا يقع القصاصون في الفخ فيشاركون في تنفيذ تلك المناورة . واذا كان لا بد ان يذكروا الملحمة الجماعية الشعبية التي امتازت بها الحرب التحريرية الوطنية ، والتي وجدت حقا ، فـلا يغفلوا خاصة عن ذكر الدور المخجل الذي لعبته الطبقة البورجوازيـة الخائنة الجشعة وليقولوا كيف وقع القضاء منذ بداية الاستقلال على الثورة الاجتماعية التي مات في سبيلها مليون من الفلاحين والعمـال وصغار الموظفين والمثقفيـن من قبل المحتكرين والانتهازيين وعملاء نظام استعماري راحل لم تصح توبتهم » (ملتقى القصـــة بين المغاربة ، ص ١٧٣ ـ ١٧٤) .

ونستطيع ان نقول بصفة عامة ان الاتجاه التقدمي ذا الطابـع الانساني يمثل الميزة الاساسية للقصة العربية المعاصرة ، فمن النادر ان نجد قصة كتب لها النجاح قد تأثر كاتبها بالاتجاه التقليـــدي للرومانسية مثلا ، ولكن رسالة القصة في خدمـــة المستقبل العربي محدودة ـ في نظرنا ـ بالنسبة للمسرح الطليعي العربي ، اذا استطاع ان يبرز للجمهور فوق خشبة المسرح ، وخاصة على الشاشة الصغيرة، فقد بدأت توضع في سبيله العراقيل الجمة نتيجة الردة الفكرية التي يمر بها كثير من البلدان العربية .

ولعل حركة الشعر العربي الحديث هي اكثر ضروب الانتاج العربي المعاصر الذي تبرز فيه سمة التأزم ، وتلوح عليه علائم أزمة حـادة ، والانتاج الشعري هو الذي يتضح فيه بجلاء ارتباط الاتجاه الادبـي بالاتجاه العقائدي ، فالرؤية الشعرية متينة الاتصال بالرؤية الكونية. ومن هنا تنطلق قضايا الشعر العربي المعاصر ، وتكمن بعض اسبـاب أزمتــه .

فبعد ان تحدث شعراء المرحلة الاقطاعية غداة تباشير يقظة العالم العربي الاسلامي عن أمة اسلامية ، وعن شرق وغرب ، دون ان يتنبه أكثرهم الى ان الصراع الحقيقي الذي دخلت فيه الامة العربية ، جاءت مرحلة البورجوازية الوطنية الاولى ، فتحدث الشعراء بغموض عـن العروبة ، والوطن ، والاستقلال الضبابي ، ثم تحـدثوا عن الحرية والعدالة والمساواة ، والتغني بماضي الاجـداد المجيد ، دون الفرز بين الغث والسمين في تراث هذا الماضي ، فساهموا في طمس الكثير من معالم النضال الحقيقي ضد القوى الخارجية والداخلية . ثم تأتي المرحلة الحاسمة في حركة التحرر الوطني العربية ، وتشارك الجماهير في هذه المعركة ، ويصاب العالم العربي خلال تلك المرحلة بهزيمة ١٩٤٨ ، فيؤدي كل ذلك الى ميلاد التيار الشعري الجديد الذي طلع على القارىء بالقصيدة الحديثة في بداية الخمسينات ، فهي لم تولد صدفة ، أو لاعتبارات فنية بحتة ، بل استجابة لضرورات اجتماعية وسياسية وفنيـــة أيضا تتمثل في ضرورة التزام الشاعر بالرؤية التركيبية ، والنظرة الموضوعية ، فتتضح لدى فئة من ممثلي التيار الشعري الجديد الرؤية القومية والتاريخية ، والنظرة الشموليـــة في القصيدة .

وهنا نلاحظ بروز اتجاهات في الحركة الشعرية المعاصرة تكمن وراءها اختلافات عقائدية . وتبرز أسماء لامعة من الشعراء المجددين الملتزمين في مطلع الخمسينات ، فتكسب الاتجاه الثـوري التقدمي أهمية كبرى ، وتمكنه عن طريق الموضوعات التي تبنتها من شعبيـــة واسعة في المجتمع العربي ، فوضع عبد الوهاب البياتي ، وقد كان « بحق رائد حركة الشعر الحديث ، ورأس الرمح فيها » ، أسـلوب القصيدة الحديثة في خدمة قضايا الانسان العربي ، وخدمة الثـورة الاجتماعية ، ونضال الكادحين في الوطن العربي ، مضفيا عليه معاني انسانية خالدة ، رابطا اياه بنضـــال الانسان ، حيثما كان ، ضد الاستغلال ، والقهر ، والكبت ، معمقا الجذور القومية باستعمـــاله للجوانب المضيئة التقدمية في التراث العربي . ويؤدي رواد هـــذا

التيار داخل حركة الشعر العربي المعاصر ـ نجد الى جانب البياتي : السياب ، والفيتوري ، وأدونيس ، ثم شعراء المقاومة ـ دورا ايجابيا في تحديد رسالة الشعر الجديد ، وخدمتها لقضايا الانسان العربي .

اننا لا نوافق الاستاذ أنطون مقدسي حين يغالي في حديثه عن الشعر العربي اليوم قائلا : « شعرنا اليوم المقلد منه والمجدد يعيش على فتات ذلك القديم يعيده زخرفا لفظيا أو يستدعيه ظلا ، يشوه أكثر مما يبدع ، فيخفق في الحالتين ، تعوزه الشفافية ، يعوزه البيان : جسم لم تستقر فيه روح فتبعثه كائنا سويا » (المعرفة ، اكتوبر ١٩٧١ ، ص ٣٣) .

فما يزال قسم وافر من الانتاج الشعري المعاصر يؤدي رسالته الوطنية ، والقومية ، والانسانية ، ويقف في طليعة معركة المصير العربي دون اهمال للاسلوب الشعري الموهوب ، او ضمور في المحتوى الثوري الانساني ، ولكن هذا التيار الذي واصل رواده حمل المشعل لم ينقذ حركة الشعر الحديث من الازمة .

ولعل السبب العميق للازمة يعود الى انعدام الرؤية الحضارية الواضحة لدى الكثير من الشعراء وما ينشأ عنه من فقدان القصيدة المنظرة الشمولية الكثفة للوجود المشاهد الذي تعبر عنه ، وتطرح قضاياه ، فتأتي كثير من الاتجاهات الشعرية عائمة غامضة منبتة عن واقع المواطن العربي الاليم .

فالقضية الاولى ـ اذن ـ تتمثل في تحديد رسالة الشاعر ، فالشاعر يجب ان يكون ـ كما يقول الفيتوري ـ « شاعرا بحق ، وليس مجرد مهندس معماري ، أو صابغ أحذية ، او مزخرف واجهات » ليستطيع اداء رسالته الخطيرة في الوطن العربي . تلك الرسالة التي يحددها البياتي بطريقة أخرى قائلا : « فانا أومن بأن على الشاعر ان يوحد بين تجربته الذاتية وتجربته الجماعية ، أي انني أرى ان الشاعر هو صوت الجماعة في كل عصر ... وهو حتى في خاصيته يعبر عن موجود الجماعة كلها ، وذلك لشمول تجربته وعدم محدوديتها . وسر نجاح الشاعر وخلوده يقوم في قدرته على التوحيد بين تجربته الذاتية وتجربة المجموع » .

ويندد صراحة بالمدرسة الرومانسية في الشعر العربي المعاصر متهما اياها بالعجز عن اداء رسالة الشعر الانساني الهادف ، ويؤمن بأن فرار القصيدة الرومانسية من العنصر الدرامي هو فرار من الواقع الوجودي ، فيقول : « أما العنصر الدرامي في القصيدة فهو أمر طبيعي ، وذلك لان الوجود نفسه هو دراما كبيرة ، وليس هو برؤيا رومانسية باهتة . ولذلك أعتقد ان القصيدة الرومانسية هي تزييف فج للواقع الذي نعيشه ، وتعبير مسطح عن الجوانب الهامشية فيه » (الاقلام ، العدد ١١ ، ١٩٧٢ ، ص ٨٣) .

ان كثيرا من شعراء الادب العربي اليوم عاجزون عن فهم رسالة الشعر هذا الفهم ، وتبنيهم هذا التيار عامة ، بصرف النظر عن منعرجاته الايديولوجية ، وهذا النقص في ثقافة كثير من شعراء اليوم، وفي رؤيتهم يمثل مظهرا آخر لازمة الشعر العربي ، فمن الاوليات المعلومة ان شعر أمة ما هو مقياس انسانيتها ، ولكن كيف يمكن خدمة هذه الانسانية ، والتعبير عنها بدون رؤية كونية شاملة ؟

وأدى فقدان هذه الرؤية الى التذبذب في مواقف الكثير من الشعراء ، فيصبح بعضهم تقدميا بين عشية وضحاها حين تنفجر بعض الثورات في العالم العربي والبعض منها لا يتجاوز في منطق الموضوعية التاريخية ان يكون انقلابا يطلع علينا باسماء جديدة ، وبلاغات مرقمة مجاراة للقيم الجديدة ، أو خوفا من اتهامهم بالرجعية والتخلف .

ومن أبرز علائم أزمة الشعر العربي الحديث الانفصال الذي حدث بينه وبين الجمهور ، ولا أوافق من يعلل ذلك بثقافة القارىء ، وانتشار الامية في الوطن العربي ، وانما الاسباب اكثر تشعبا وعمقا من هذا ، فبعضها يرجع الى تأزم الوضع العربي العام ، واعراض القارىء عن الشعر ، لانه أصبح يحشر الشعراء في زمرة المتاجرين بالكلام ، المرددين للخطب الرنانة ، والشعارات اللفظية الجوفاء ، « ان الجماهير الكادحة قد سمعت المزيد من القصائد الرنانة الواعدة دون أن تجني غير المزيد من الاستلاب » .

أما الشعر الرومانسي فيعرض عنه الانسان العربي اليوم لانه بعيد عن المأساة التي يعانيها يوميا ، ومن يقبل عليه ، ويقرأه فمن أجل التسلية ، والهروب من مرارة الواقع ، فهو شعر يسلي بجماله وصوره ، ولكنه غالبا بعيد عن المأساة بأبعادها القومية والانسانية .

وتمس أزمة الواقع العربي شعر المقاومة نفسه فتؤثر المواقف السياسية تجاه حركة المقاومة في موجة التعاطف مع هذا الشعر ، فتنحسر ، ويشرف شعر الارض المحتلة على باب مسدود ، كما يعترف بذلك محمود درويش .

ان أزمة الشعر متصلة ـ كما لمحنا ـ بقضايا الواقع العربي من جهة ، وبالاتجاهات الادبية التي تمثلها مختلف الفئات ، والمتأثرة بدورها بالفرقة الايديولوجية بين الشعراء من جهة اخرى ، فنجد اليوم تيارا طليعيا ، وآخر عصريا ، وشكليا ، وفئة نرجسية ، وثانية تمردية ، وثالثة رغم شعورها بهزيمة جيلها وفشله لا تيأس ، ولا تفقد الامل الذي عجزت الاجيال المهزومة عن تحقيقه ، فتتجه الى المستقبل ، الى عالم الاطفال ، فيقول سليمان العيسى :

آمنت بالآتين بالاطفال
بهازمي أسطورة المحال

حالما بيقظة جديدة تختلف عن يقظة العالم العربي الحالية ، رغم حصيلتها التاريخية خلال قرن كامل :

لا بد ان يذوب في الهجير ما جمد
لا بد ان يستيقظ القبر الذي رقد

انه من الصعب حقا ان نتصور اليوم تأثير الاتجاهات الادبية المعاصرة في المستقبل العربي ، فقد رأينا كثيرا من الاتجاهات غائمة غامضة ، فيها كثير من التناقضات والزيف ، ورأينا المستقبل العربي تغشيه غيوم كثيفة ، ولكن الهدف الواضح الذي يجب على الادباء والمفكرين العرب ان يسعوا جاهدين لتحقيقه هو خلق أدب جديد يعبر عن واقع الانسان العربي الجديد وآماله . ان الوطن العربي في حاجة ملحة الى ثورة ثقافية شاملة تعيد النظر في كثير من القضايا السياسية ، والقضايا الاجتماعية والفكرية الراهنة ، وتحرر المجتمع العربي من قيوده ، وتزيل العقبات التي تقف في طريق تقدمه وانطلاقه .

ولكن هذا الانسان العربي الجديد ، وليد الماضي والحاضر ، لا يستطيع ان يحدد الرؤية للمستقبل ، ويوضح معالمه ، ليستطيع الادب والفن ان يحمل مشعل هذا المستقبل العربي المنشود ، الا اذا نجح في حل أزمة الحاضر ، وحل مشكلة المشاكل فيه : نظم الحكم ، والاهتداء الى أقوم السبل ، وأنجع الطرق لبعث حماس الجماهير العربية للمحتوى الوطني والقومي والانساني في آثار الادب العربي المعاصر .

الحبيب الجنحاني تونس

سيّدتي الجميلة

يطأ الخاسرون هواءك
مثلك اذ تطئيـن الرجـال
ومثلك أذ تستفزّين حين تمر فتاة جديدة
ترتدي بنطلونا .. وتحمل كلبا
ومثلك ــ من بعد ــ اذ تطئيني :
يطأ الخاسرون لحومك ، ثدييك
خدّيك ،كل ملاهيك ، كل مقاهيك
كل شوارعك المتقاتلة ، التائهة .

* * *

حين يستقبل العصر وجهي ..
حين يستقبل العصر وجهك
نمشي ...
ونمشي معـا
في الازقّة نمشي معـا
بجوار العمارات نمشي معـا
في المساجد نمشي
في دمائي تمشي أنت معي ..
في دمائك أمشي ــ أفي لحمك المتناثر ثمّ دمٌ ؟! ــ
ومعي أنت تمشين .. نعيـا
ونعيا
ونعيا ....

* * *

وقفتُ
وقفت
وقفنا كلانا ببوابة البار
كانت كلاب المدينة تنهش اثوابنا ــ هل كلاب
المدينة مثلك ترخي جديلتها ،وهي تبكي؟
وهل نهشتك كلابك ؟ــ
مشرعـة مثل وجهي بوابة البار ،
مشرعة فوّهات القنانـي ،
ومشرعة أنت فوقـي !..
وكلانا امتزجنا بآنيـة الخمر
أيقظنـا ضوؤهـا
أيقظتنا ..

* * *

لم أعد فيـك
لا أنت فـيّ
ولا أنت سيدتـي .
أنت رومـا التي احترقت
انت رومـا التي رنّحت اهلها
أنت رومـا التي ، والّتي ...
حدّقـي بـي :
وجهي أبخرة البار
وجهي هـو الماء
وجهي هو الخوف منـك
ووجهي:انا ــ أترين دمي يتحرك فيه ؟ ــ ووجهي:انا.

* * *

حين قمت ، تلفتّ نحـوك
بعد زمـان التفرد ، والعودة المستحيلة
كنت مثل العوانس
كنت تناميـن وحدك
ما بين أعمدة الضوء ، والشرف العالية .
غير أني انحنيت عليـك
باكيـا ...
انني عائد في الصباح اليـك ..
فأنا ضيق
أنت اوسـع منـي .

بغـداد — **عبدالامير معلّه**

منطلقات في تقييم الاتجاهات الأدبية العربية المعاصرة

بقلم
خلدون الشمعة

— ١ —

لعل المحور الاساسي لعملية تقييم الاتجاهات الادبيــة العربية المعاصرة ، يكمن في البحث عن نظرية في القيمة ، تستمد نفسها من تجربة متكاملة او شبه متكاملة للادب العربي المعاصر . ولست أزعم انني ساتصدى بهذه السطور ، لجملة الاشكالات التي تعترض سبيل بلورة مثل هذه النظرية . غير ان عنوان هذا البحث الذي قد يخسر في العمق ما أراد له القيمون على المؤتمر ان يكسبه في الاتساع ، يجعل من الضروري طرح بعض التساؤلات التي تشكل المدخل الى مثل هذه النظرية على الاقل : — هل تعود الاختلافات في التقييم الى التباين في الاهتمامات او المواقف الثقافية لدى النقاد ، أم لان القيم الفنيــة مزيج من القيم الموضوعية والذاتية يصعب تعيين النسب التي تتألف عناصره منها ؟..

هل المبدعات الفنية جيدة لانها تمتلك خصائص فنية مستقلة عن حكمنا عليها أم لانها اعتبرت كذلك لسبب أو لآخر ؟..

من المؤكد ان الادب مؤسسة اجتماعية . وظاهرة الفن بشكل عام، هي جماع ظاهرة الحياة الانسانية والسلوك الانساني . وبالتالي فهي فعالية واعية تتحقق من خلال حسن استغلال مادة الابداع .

وهذا يعني وجود عنصر القصد . ولعــل في كلمة « قصيدة » ما يفيد هذا المعنى . بيد ان العمل الفني الناتج عن فعاليتنا ينبغي أن يكون أولا ، غاية مبررة في حد ذاتها ، حتى يكون وسيلة ناجعة لغاية أخرى . واذا سلمنا بأن غاية الادب هي التأثير على نحـو لا يمكن ان تقوم به أداة أخرى ، فان أي نظرية في القيمة تتصـل بالادب العربي لا بد ان تأخذ في الاعتبار ضرورة اكتشاف العلاقة الجديدة بين الواقع والاداة التعبيرية .. وبالتالي محاولة بلورة معايير لتلمس حدود القيمة الجمالية على أساس قدرة المبدعات الادبية على التأثير . ان التأكيـد على ان تقييم القيمة الجمالية مرتبط بقدرة العمــل الادبي على اداء مهمته ، هو الاساس . وقد أجهد النقاد الغربيون أنفسهم في دراسة كيفية تحويل القيمة الجمالية التي هي في حقيقتها قيمة وصفية الى قيمة معيارية (أي أخلاقية) .

غير ان الارتباط بين الادب والاخلاق في نظرية الادب العربي القديم وثيق الى حد انه يبدو ماثلا في أبرز مبدعات أدبنا العربي المعاصر . وهذا يعني ان معيار القيمة الذي نبحث عنه لا يتعلق بالتأكيد على دور الادب فحسب ، وانما ينطلق أساسا من استقصــاء مدى قدرة الاداة الفنية على تحقيق هذا الدور الذي لن نبالغ في تقدير حجمه فنخلط بين ما نتوقع ان يحدث بالاستناد الى ارتفاع نسبة الامية العامة والامية الثقافية ، وغياب عادات المطالعة الجدة ، وبين ما نرغب في ان يتحقق فعلا في المستقبل .

ان كون كلمة أدب تطلق على مبدعات ليست بالضرورة أشد انتشارا من سواها ، يضعنا امام مشكلة اختيار صعبة : فالنقد الادبي يستند عادة الى التراث الادبي لدى الامة ، بالاضافة الى تجربة الادب الشاملة كنشاط انساني عام تسهم فيه آداب الامم والشعوب الاخرى . واذا اعتبرنا ان التأثير هو القيمة الاساسية ، برز سؤال حول الزمن الذي سيتم خلاله هذا التأثير .

فمن المعروف ان النقاد يميزون بين نوعين من الادب :

١ (الادب البعيد المدى ، أي الذي يسعى الى تقديم مناطق شاسعة من التجربة الانسانية وان يستخلص من ذلك شيئا من القوانيـــن أو القيم العامة .

٢ — الادب القريب المدى والذي يستهدف تحقيق عملية التأثير على نحو مباشر .

فمن أي المحورين يمكن ان تنطلق نظرية القيمة في الادب العربي المعاصر ؟.. ان كلمة (تأثير) تبدو مبهمة الملامح الى حد كبير ، عندما نحاول تحديدها على الصعيد العلمي . واذا اعتبرنا جمهور القــراء أساسا ضابطا للمعايير التي نبحث عنها لقياس مقدار التأثير فان من المحقق ان افضل المبدعات في الادب العربي المعاصر، لن تكون بالضرورة في رأس قائمة الاعمال الادبية التي اصطلح النقد العربي المعاصر (بميله الى الاخذ بمقاييس مستمدة من نظرية الادب الاوروبي) على اعتراف بها . قد ينجو من هذا الحكم عدد محدود من الاعمال . ولكن هــذا الاستثناء لا يمكن ان يرسم القاعدة . ان أي نظرية في القيمة يتعين ان تأخذ بعين الاعتبار ان فترة الستينـــات التي سنحاول دراستها كمؤشر رئيسي من مؤشرات الاتجاهات في الادب العربي المعاصر قــد كانت أشبه شيء ببؤرة المخاض في تاريخنا العربي الحديث ، وحملت بالتالي كل ما ينطوي عليه المخاض من عنف واضطراب وربما فقــدان لحس الاتجاه .

وبعبارة اخرى فان التطابق المفترض بين حساسية البث لــدى الكاتب وحساسية الاستقبال لدى القارىء ، قد اختل لاسباب منهــا ان القارىء العربي في فترة الستينات قد ضعفت صلتــه بالادب ، وليس لان الادب هو الذي فقد الصلة بالقارىء .

قد يقال ان أداة التعبير التي جنحت الى (التركيب) بــدلا من (التحليل) و (التعبير) بدلا من (التقرير) هي العامل الرئيسي الذي يمكن ان يفسر بعضا من ظـــاهرة الاعراض النسبي عن أدب الستينات .

ولكي لا نغالي في التبسيط فاننا نكتفي بالقول ازاء ذلك ان ادب هذه الفترة قد تميز — من جانب الكتّاب — بادراك عاطفي وعقــلاني بالغ الحساسية للظاهرة الجمالية في صلتها بواقع مضطرب . وكانت الانجازات التعبيرية في مضامير البناء الفني تستهدف دائمـا التغلغل الى هذا الواقع الكامن وراء التجربة . ويبدو ان هذا التطور لدى الكاتب لم يقابله تطور تلقائي بالقدر نفسه لدى القــارىء العربي . ولذلك أسباب ليس من مهمة هذا البحث الخوض فيها على نحـــو مباشر .

— ٢ —

ان الحديث عن اتجاه أدبي انما يعني الاعتراف بأن ثمة اكتشافا جماعيا لطريقة متميزة في التعبير . واذا كان نقد فترة الخمسينات قد استحوذ على اهتمامه الموضوع الادبي بدلا من العمل الادبي فربما كان مرد ذلك الى حقيقة مفادها ان الاعمال الادبية هي التي تحــدد مناهج نقدها . لقد ازدهر نقد (الموضوع) : Thematic criticism في فترة الخمسينات ، لان المبدعات كانت اذ ذاك اقرب الى البساطة من حيث معمارها الفني . ولم يكن في هذه المبدعات ما هو أشــد تميزا من الموضوع . ان الموضوع : Them هو المفهوم المجرد الذي يصبح متجسدا من خلال التعبير عنه من قبل البطل او الحــدث او الصورة في العمل الفني . ولما كان هذا المفهوم المجرد قد ظــل (مجردا) لضعف في (تجسيده) الفني أحيانا ، فان النقد الادبــي لم يجد مادة يتناولها تناولا ايجابيا عبر المفهومات المجردة التي كانت

تأخذ شكل شعارات مباشرة ، وتنطلق من المجرد الى الحسي .

وبالطبع فان هذا التفسير لظاهرة سيطرة نقد الموضوع في فترة الخمسينات تفسير تكنيكي بحت له أبعاده السياسيـة بكل تأكيد .

غير ان من المهم الاشارة الى ان سيطرة هذا النوع من النقد لم تكن بالحدث الذي يحمل شيئا من التغيير وانما كانت بشكل او بآخر امتدادا لعادات النقد العربي القديم في تصنيف الشعر حسب الاغراض وليس حسب طرق تناول هذه الاغراض . غير ان فترة الستينـات بما انطوت عليه من ثورة في اتجاهات التعبير ، تجعل من المتعذر الاخذ بمنهج (نقد الموضوع) كأساس ضابط لعملية البحث عن معـالم للاتجاهات الادبية العربية المعاصرة . فالاعمال الادبية هي التي تحدد ـ بقدر او بآخر ـ مناهج نقدها كما أسلفت . وأمامي ثلاثة منـاهج قد تعبر ـ بمقادير متفاوتة ـ عن عدم ملاءمة هذا المنهج النقدي فـي التعامل مع أدب الستينات :

* (بكائية الى شمس حزيران) لعبد الوهاب البياتي .
* قصة (اللحى) لزكريا تامر .
* مسرحية (حفلة سمر) لسعد الله ونوس .

ان من المتعذر تصنيف البكائية تصنيفا (حسب الموضوع) في أي اتجاه من (اتجاهات الموضوع) السائدة في النقد العربي . فهل هي من الشعر الاجتماعي أم القومي أم الانساني أم السياسي ؟

ان هذه الاسئلة ساذجة ومتعسفة الى حد انها تفترض مسبقا ان القصيدة الحديثة يمكن ان تسلس القياد الى مثل هذه المعايير فـي التصنيف . ولكن البكائية تشتمل على جميـع هذه الاغراض اذا صح التعبير . وكذلك الامر بالنسبة لقصة (اللحى) .. هل تصنف فـي عداد الاتجاه التاريخي أم الاجتماعي أم القومي أم الانساني ؟..

وماذا عن (حفلة سمر) لسعد الله ونوس .. هل هي من نوع المسرح السياسي ، ولماذا لا تكون نموذجا من نماذج المسرح القومـي أو الانساني ؟

تلك هي بعض الحدود التي تعترض سبيل أي نظرية تمتح مـن منهج نقد الموضوع في تصنيف الاتجاهات الغالبة عـلى فترة ادب الستينات بشكل خاص .

لقد تميز أدب الستينات بطموح جارف نحو اكتشاف علاقـات جديدة بين الواقع وبين الاداة التعبيرية . ذلك انه كان يمثل انقـلابا شبه جذري في تطور الحساسية العربية المعاصرة ، ربما أمكن تعقبه بالتحليل التاريخي ، باعتباره يشكل مرحلة في عملية نمو لغة جديدة لواقع متغير . هذه اللغة الجديدة هي التي ستكون القاعدة فـي محاولتنا التعرف على منطلقات في الاتجاهات الادبية المعاصرة ، كما تتمثل في فترة الستينات . ومن الطبيعي ان تقسيم الادب وفق عقـود زمنية ينطوي على قدر غير ضئيل من التعسف . غير ان هدفنا عـلى أية حال لا يتعدى في طموحه الاشارة الى محاور في البحث . ولا ريب ان فترة الستينات تحمل معظم ملامح الحداثة والمعاصرة في تجربـة الادب العربي وهي في عنفها التعبيري تطرح مسألة الاداة التعبيريـة باعتبارها أساسا يصلح لمحاولة تقريبية في التصنيف النقدي . لقـد كان من الطبيعي ان يلجأ النقد الى منهج (نقد الموضوع) حين كـان يتناول قصيدة (يا قوم لا تتكلموا ..) لمعروف الرصافي . اما هـذا المنهج فانه غير مؤهل لمعالجة قصيدة من الشعر الحديث .

ان محاولة مسح منطلقات للاتجاهات الادبية المعاصرة يمكن ان تتم انطلاقا من الفكرة القائلة ان الاتجاه الادبي في فترة من الفترات هو بمعنى من المعاني حصيلة للتطور التاريخي والاوضاع الاقتصاديـة والاجتماعية . وفي هذا التحكم صبوة لتوحيد المنهجين التاريخـي والفني .

وقد كان طموح رحلة الستينات الى اكتشاف نمط جديد مـن العلاقة بين الواقع والاداة التعبيرية معبرا عن سعي سافر لرؤية الظواهر في ضوء جديد ، وتوق الى النظام جديد في الآراء ، ومحاولة للتعبير عما لا يعبر عنه .

واذا كانت الاعتبارات السائدة في تطور الافكار تتجلى على نحو ما في تطور الفنون ايضا ، فان فترة الستينات قد عبرت عن مرحلة مـن المخاض وتجلت في غياب اتجاه مسيطر سيطرة حاسمة . وهذا يحدث عادة في فترات الفوضى الخلاقة التي تؤدي الى حدود جديدة تعقبها فترات من الجمود .. كما هو الامر في الكلاسيكية .

واذا كانت فترة الخمسينات قد شهدت انتصار فكرة الواقعيـة بمعناها العام ، فان فترة الستينات قد تميزت بظهور تنويعات مختلفة على هذه الواقعية ، وذلك تبعا لنوعية العلاقة بين الاداة التعبيريـة وبين الواقع . لقد ترسخت تقاليد الواقعية في أواخر القرن التاسع عشر . وترسخ هذا الاتجاه في بلادنا مع تنامي الاشكال الفنية باتجـاه النضج في فترة الخمسينات . غير أن المصطلح ظل غائما لسبب بسيط هو ان الكاتب في أي عمل ابداعي يريد نقل الواقع فيه انما يتضمن عمله عنصرا محتما من الاختيار او التأكيد على جانب من الواقع دون جانب آخر . وحتى في الحالات التي كان الكاتب العربي يلجأ فيهـا الى لغة تستمد عنفها التعبيري من لغة الموانيس ، فانه كان يقدم بذلك محاولة للتعبير عما لا يعبر عنه من تجارب الهزيمة التي نهضت عـلى قاعدة من النصر ، وتجارب القهر السياسي والشعور بالملاحقـة والاضطهاد وقصور الادوات عن تحقيق التطلعات .

ومن البديهي ان الواقع المركب يتطلب أداة فنية مركبة للتعبيـر عنه . عندما كان الواقع يبدو بسيطا تحددت فيه أطراف الصراع وكان الصراع نفسه يدور حول مفاهـيم عامة ومحددة ، كانت واقعيـة الخمسينات عامة ومحددة . وعندما ظهر في الستينات واقع مركب يتميز بغياب اتجاه فكري مسيطر كما يحدث عادة في فترات الانهيـار او المخاض الذي يسبق التغيير ظهرت ملامح الاتجاهات الرئيسية الثلاثة في الواقعية وهي :

الواقعية التعبيرية ـ الواقعية الثائرية ـ الواقعية الطبيعية .

واذا كانت معركة الشعر القديم والحديث قد حسمت في أواخر الخمسينات ، فقد تميزت فترة الستينات باتجاه هذه التجربة نحو الرسوخ وبظهور الامراض التقنية التي قد يتوقع ظهورها في شكـل أدبي لما يتبلور بعد .. وهي (من خلال مثال الشعر الحديث) :

١) النمطية وليس الشكلية ..
٢) سيطرة المنطق السببي الترابطي على المنطق الشعري ..
٣) التهويل والمبالغة على نحو يطرح مسألة الصدق الفني أحيانا..
٤) الجنوح الى الابهام (أي استغلاق المعنى) بدلا مـن الغموض (أي التوصيل على نحو غير مباشر) .

ـ ٣ ـ

من الواضح أن ما يهمنا من الاتجاهات الثلاثة في الواقعية التي سيطرت على المشهد الادبي العربي خلال السنوات العشر الماضية ، هو انها تمثل ثلاثة أنماط في التعامل مع الواقع . وبالتالي التأثير على جمهور القراء . وهذه الاتجاهات ليست مقتصرة أصلا على العصور التاريخية التي ظهرت فيها باعتبار انها تمثل عناصر دائمة في الطبيعة البشرية ... ويشهد عصرنا الراهن بعثا لها بمقادير متفاوتة بين تجربة وأخرى . اننا هنا نتقرى أبعادها الراهنة في الادب العربي المعـاصر ونوردها على أساس انها ربما تشكل علامات في طريق بلورة نظرية في تصنيف الادب العربي الحديث .

أ ـ ملامح من الواقعية الطبيعية :

تتمثل بعض عناصر الواقعية الطبيعية في تجارب عدد من الكتاب الشبان من امثال (جمال الفيطاني) و (يوسف القعيد) ، فتجارب الفيطاني تمتح من التاريخ وتعتمد على الشكل التسجيلي وتنهج نهجا

استقصائيا باردا في دراسة القضايا المعروفة مع الايحاء بانتفاء عنصر الاختيـــار .

وفي قصص (يوسف احمد القعيد) صاحب روايـة « الحداد » محاولة لنقل ايقاع الحياة البطيء في القرية المصريــة دون تعديل . ويصل هذا التكنيك في قصته القصيرة « الشتاء ياتي الى الظهرية » حد اثارة الملل بسبب بطء ايقاع الحياة والايحاء يفقدان الاحســاس بهدف قصصي انه يقدم القرية المصرية على مستوى من الوعي يبــدو وكانه لا يتجاوز وعي الشخصيات في القصة .

وتتجلى بعض ملامح الواقعية الطبيعية في عدد من تجارب المسرح التسجيلي وعلى رأسها « حفلة سمر من أجل ٥ حزيران » لسعد الله ونوس . ان الواقعية الطبيعية في أحد معانيها تعبير متطرف عــن الواقعية التسجيلية التي تشتمل على الكثير من خصائص (الريبورتاج الصحفي) .

ألم تكن رواية « ذكريات عام الطاعون » لدانييل ديفو في اساسها تقريرا ؟..

ان « حفلة سمر » التي تقدم واقع الهزيمة دون تصميم شكــلي او تدخل من قبل الكاتب (وهي توحي بذلك) قد اتهمت بسبب عنصر (الطبيعية) فيها بانها لا تحل شيئا من القضية المعروضة على بساط البحث . وقد رد (سعد الله ونوس) على ذلك بقوله :

« ... القول بأنني لم أحل شيئا لا معنى له . بالتأكيد لــم أحل شيئا ولا أعتقد ان بوسع أحد ان يحل شيئا . ومن نافل القول ان مشكلة كمشكلة حزيران لا تحل بمسرحية .. والا لما استحقت ان يكتب عنها مسرحية . ان فهم المشكلة هو جزء كبير من الحل : انننظر الى انفسنا جزء كبير من الحل .. ان نعتاد التفكير .. ان نعتــاد التفكير بصوت عال . وتدرج الامور في المسرحية واستطرادها هو عملية اثارة التفكير وتأمل المشكلة وايجاد حلول لها وتبنيها . فما لم تتبن الجماهير قضيتها وتفهمها وتعرف أسبابها فمــن الصعب ان تخرج منها .. وهذا هو الجانب الايجابي في المسرحية التي ليست عمــلا متشائما على الاطلاق .. » (من حديث أجراه بدر الدين عرودكـي ـ « الطليعة » السورية ـ العدد ٢٢٣) .

لقد كان تدرج الامور واستطرادها لدى الواقعيين الطبيعيــين جزءا من عملية اثارة التفكير وتأمل المشكلة . وقد سبق لـ (زولا) ان ضمن بعض رواياته صفحات طويلة في الاقتصاد والمناقشات ذات الطابع الاجتماعي .

ولعل رواية « العصاة » لصدقي اسماعيل تمثل أحــد نماذج الستينات التي تمتح الكثير من تقنية الواقعيين الطبيعيين . فعلى الرغم من انها ليست رواية تاريخية ، فقد اشتملت على وثائق حرفية تقريبا عن الثورة السورية .

ب ـ ملامح من الواقعية الانطباعية :

في قصص (غادة السمان) يتجلى الاهتمام بالحــواس . وهي تخضع العقدة والسياق القصصي للمزاج وتهمل العلاقة السببية بين الحوادث لتطرح بدلا منها العلاقة الداخلية الذاتية كما تتجلى فــي عقل الكاتب .

ان غادة السمان كثيرا ما تعمد الى تجزيء المنظر الى اقسام صغيرة ثم تعمد الى اعادة بناء علاقة جديدة وفق ترتيب ذاتي ... وهي تقدم الواقع ليس حسب ما تعرفه وانما حسب ما تراه وتشعر به الشخصيات . والكشف عن الدوافع ليس هاما قدر أهميــة الكشف عن اللاشعور كما في قصائد (نزار قباني) التي تقترب من الواقعيــة الطبيعية في بعض ملامحها ، فهو يتجه الى الحواس ، ويلجأ الــى لغة عاطفية مباشرة بالالوان ، وتستهدف ايصال انطباع عن الواقع دون ان تقدم الواقع نفسه .

جـ ـ ملامح من الواقعية التعبيرية :

من المؤكد ان أهم الانجازات في التطور الحاسم الذي طرأ عـلى العلاقة بين الواقع وبين الاداة التعبيرية في الادب العربي المعاصر ، قد تحقق من خلال الاعمال التي تقترب من اتجاه الواقعية التعبيرية .

وفي قصص (زكريا تامر) وقصــائد (عبد الوهاب البياتي) ـ في مرحلته المتأخرة بشكل خاص ـ تتجلى ملامح من هذا الاتجاه الى حد كبير .

ان الواقع في (التعبيرية) هو واقع الضمير . انه واقـع ذاتي محتج بالضرورة .. وقد يكون أشد تعبيرا عن الواقع الموضوعي مـن الواقع الموضوعي نفسه . يقول (زكريا تامر) في قصتــه « الـذي أحرق السفن » :

« في اليوم الاول خلق الجوع
في اليوم الثاني خلقت الموسيقى
في اليوم الثالث خلقت الكتب والقطط
في اليوم الرابع خلقت السجائر
في اليوم الخامس خلقت المقاهي
في اليوم السادس خلق الغضب
في اليوم السابع خلقت العصافير وأعشاشها المخبأة فــي الاشجــار
في اليوم الثامن خلق المحققون، فانحدروا توا الى المدن برفقتهم رجال الشرطة والسجون والقيود الحديدية.. »

ويقول (عبد الوهاب البياتي) في « قصائد حب على بوابــات العالم السبع » :

« وقع العالم في براثن الملقن القابع في الظل
وتحت رحمة المهرجين :
بائعي الانقاص فقتلونا قبل أن نحب ،
يا حبيبتي ، وصبغوا المسرح بالدماء .. »

* * *

تبدأ الواقعية التعبيرية من الواقع ولكنها تقدم انعكاسات مـن هذا الواقع كما يتبدى في مخيلة المؤلف من خلال ما يشبه الرؤيــة الشعريــة :

ـ يقول (زكريا تامر) في مطلع قصته « اللحى » :
« هربت الطيور من سمائنا وكف الاولاد عن اللعب في الحارات وتحول غناء العصافير السجينة في الاقفاص الى شهيق خافت مرتجف وبدأ القطن المعقم يختفي من الصيدليات ...

فها هي أيها السادة جيوش تيمورلنك تطوق مدينتنا غير ان الشمس لم يصبها الذعر وظلت تشرق كل صباح »

ـ من أبرز ملامح التعبيرية السخط على السلطة والمجتمع :
« ومن أجل ان يظل الوطن حرا سعيدا عشتم ايها المواطنــون الشرفاء مئات السنين بلا خبز ، عشتم بلا حرية ، عشتم بلا كرامة ، نسيتم الابتسامة ، كرهتم الورود والقمر وأغاني الحب ، فحمى الله اليوم وطننا الغالي من أفكار الخونة المتآمرين مع العدو .. » (الذي أحرق السفن .. زكريا تامر) .

ـ ولعل خيبة الامل تجاه الامر الواقع بشكل عام هي التي تجعل الكاتب التعبيري يبحث عن عالم جديد يخلقه كما هو الامر في تجربــة الرمد و « قصائد حب على بوابات العالم السبع » .

هذه الاتجاهات في التعامل مع الواقع والتي قدمنا بعض الاشارات (وليس البراهين) عليها قد تحققت في اطار من الوعي بالحداثة والمعاصرة . ولم نقصد بهذه الاشارات الا التعبير عن بعض الامثلة القصوى في تجربة أدب الستينات الذي تميز بتبدل جذري في حساسية البث لدى الكاتب دون ان يرافق ذلك تبدل مماثل في حساسية الاستقبال لدى القارىء . ولعل من أهم عناصر الحداثة والمعاصرة في هذه التجربة :

أ ـ العلاقة بالتاريخ : (زكريا تامر ـ عبد الوهاب البياتي ـ سعدالله ونوس ـ فايز خضور ـ ممدوح عدوان ـ جمال الغيطاني ... وآخرون) .

ب ـ استعادة التراث استعادة أخلاقية : (زكريا تامر ـ طارق ابن زياد ـ يوسف العظمة ـ سليمان الحلبي .. الخ ...) . (محمد الماغوط : ـ صقر قريش (مسرحية المهرج) .

ج ـ التعبير عن تجربة الحاضر بشكل كامل عن طريق اللجوء الى رموز من الماضي : (عبد الوهاب البياتي : قصائد حب على بوابات العالم السبع) ...

* * *

ولا ريب ان عناصر الصورة تظل ناقصة في محاولتنا بلورة مؤشرات تطبيقية نستدل بها على معايير لتقييم الاتجاهات في الادب العربي المعاصر . ان أية عملية تقييم للمبدعات الفنية ، ينبغي ان تنطلق من دراسة مدى سيطرة الشاعر أو القاص على :

الموقف ـ الافكار ـ الصور ـ الموسيقى .

فتلك هي العناصر التي يمكن بواسطتها الحصول على أكبر قدر من التأثير .

ان العمل الفني الامثل قمين بأن يعطي التأثير الامثل على القارىء الامثل .

ولكن المشكلة هنا ان (الانتشار) قد لا يعني (التأثير) .

والعمل الفني (الامثل) ليس بالضرورة العمل المؤثر اكثر من سواه . و (اتساع) التأثير مفهوم مختلف بالمرة عن (عمق) التأثير.

وقد سبق ان اشرت في مطلع البحث الى ان ثمة نوعين من الادب :

ـ الادب القريب المدى ... والادب البعيد المدى .

ومن المحقق ان النماذج الدالة على أدب الستينات قد دشنت مرحلة جديدة من عملية انقلاب اساسي في الحساسية .

غير أن هذا هو حكم النقد الادبي الصادر عن نظرية الادب العالمي . وقد يكون معزولا انعزالا نسبيا عن المجال الحيوي للتأثير (أي القارىء) المحلي . واذا أردنا دراسة خصائص العمل الفني المؤثر من خلال عملية معكوسة ، أي من خلال دراسة القارىء المتأثر ، فلا شك أن المشكلة الاساسية التي تعترض سبيل ذلك هي تحديد هذا القارىء موضوع الدراسة :

هل يمكن ان نحدد ملامح هذا القارىء في فترة من الفترات على أس' ما يقرأه الآن في هذه المرحلة من الوعي أم على أساس ما تظن انه يقرأه ؟.. أم على اساس ما ينبغي ان يقرأه ؟..

ثم ما هي نسبة القراء الذين يتذوقون الادب الذي يؤكد النقد الادبي بالاستناد الى تجارب الادب العالمي انه يتميز بقيم ايجابية على الصعيد الفني ؟..

وهل هذه القيم الفنية الايجابية السبيل (العملي) الوحيد الى التأثير الايجابي المطلوب ؟

لقد كتب (يوسف الشاروني) في الاربعينات ، و (ادوار الخراط) في الخمسينات قصصا تنتمي في حساسيتها الى حساسية فترة الستينات . ولكن تأثير هذه القصص على القراء كان محدودا . فهل ندخل قيمة القارىء في نظرية التقييم النقدي ؟.. واذا كنا سنهمل هذه القيمة فكيف نريد ان نقيم العمل الادبي دون ان نأخذ بعين الاعتبار محك القيمة الفنية وهو التأثير العملي ؟..

لقد سبق أن ألمحت الى العوائق التي تحول دون تأثير القصيدة الحديثة في حساسيتها التجديدية في فترة الستينات على القارىء المثالي . غير ان هذه العوائق لا تظهر في أبرز النماذج الابداعية لدى أبرز شعرائنا المعاصرين . وهذا يوضح ان الاشارة الى اتجاه أدبي انما يتعين أن تحمل شيئا من الاقرار بأن ثمة اكتشافا جماعيا لطريقة متميزة في التعبير .

وبعبارة اخرى فان هذا الاكتشاف لطريقة متميزة ، قد أخذ يتجلى في نماذج متفرقة ولم يصبح اكتشافا جماعيا معززا بأساس نقدي معترف به . وعلى ذلك فان بوسع الناقد أن يجد الاشارات ولكنه ربما كان عاجزا عن ايجاد الادلة والبراهين .

ومن المحقق ان الحداثة التي تميزت بها فترة الستينات قد أسهمت اسهاما فاعلا في تمهيد الطريق نحو تبلور تقنيات وأشكال جديدة . غير أن التعايش بين الاتجاهات المتباينة ما يزال سائدا . ومع ذلك فثمة ملامح عامة للتغيير في حساسية أدوات الايصال :

ـ في مجال الرواية حدث ازدهار نسبي وبحث مستمر عن اشكال جديدة . ومن أبرز نتائج هذا البحث ان (الرواية) اصبحت (قصة طويلة) يحتل المستوى الواقعي الرمزي فيها الاساس في رؤية العالم .

ـ في مجال الشعر الحديث دخلت تجربة القصيدة الحديثة طريقا مسدودة تجلت في سيطرة النمطية ، والمنطق النثري ، والتهويل والمبالغة ، والجنوح الى الابهام الذي هو مرحلة عرضية من الغموض.

ـ في مجال القصة القصيرة التي ربما كانت أرسخ من سائر الاشكال الادبية في الادب العربي المعاصر ، قطعت التجريبية شوطا بعيدا ودخلت في تقنيات المونولوج الداخلي ، واستخدام التقنية السينمائية والاعتماد على (الموتيف) ، والابتعاد عن المنطق النثري (السببي الترابطي) ، واستلهام الرؤية الشعرية .

* * *

وبالطبع فان هذه مجرد محاور أو اشارات الى محاور في تجربة الادب العربي في فترة الستينات . وهي تلمح الى ان الاتجاهات المعاصرة لما تتمخض عن تيارات بعد. فالتيار هو : (الاتجاه + الحركة) . وما زالت الاتجاهات في مرحلتها البطيئة الحركة حتى الان . هذا على الرغم من ان ملامح حساسية جديدة قد تتشكل ضمن اطار استعادة اخلاقية للتاريخ .. استعادة تنطوي على سعي سافر لخلق حلم المدينة الفاضلة مقابل كابوس مكيف الهواء . وهذا ليس عزوفا عن مجابهة الواقع وانما هو خلق للمثال الذي يفند الامر الواقع . واذا كانت هذه التجربة العربية المعاصرة في طور التكوين ، فان الحديث عن تأثيرها على المستويات الوطنية والقومية والعالمية ينطوي على مغالاة خطيرة في التبسيط ، ثم هل الادب الذي يؤثر على الصعيد الوطني يرتفع دائما وبالضرورة الى المستويين القومي فالعالمي ؟.. وهل تأثير الانتشار (الكمية) هو نفسه تأثير (النوعية) ؟..

ان بالامكان دراسة الظروف الحضارية والاجتماعية والاقتصادية التي يمكن ان تؤثر فيها تجربة ما او تؤول الى الاخفاق . اما التنبؤ بتأثير الادب في المستقبل (على ثلاثة اصعدة) ، فضرب من الكهانة لا أعتقد انه يدخل في المجال الحيوي لهذا البحث .

دمشق　　خلدون الشمعة

الشعر العربي الجديد ، ممكناً

بقلم طراد الكبيسي

(.. لقد نطقت الآن بكلمة الحقيقة يا «ابودامي»
ان الحقيقة تحرق العالم من حولنا . ولقد اكتملت حلقاتها ولم يعد ثمة مكان للشك ، ولا للهروب ، ولا للتردد . انه آت . لان كل شيء يجب ان يقرر الآن .

... كنتم جميعا تسيرون في ظل أسراركم بخطى مسترقة ، وها أنتم أولاء في الذهول . وقد تجردتم من كل شيء ، وأنفذتم في ضوء الصاعقة ، ولا تزالون أنتم الاربعة واقفين . ومع ذلك فقد انفجرت الصاعقة . وخلال هذه اللحظة التي يستغرقها الضوء فقط . فان الموتى ، الذين لم يجدوا وقتا كافيا للرقود ، يحتفظون بمظهر الاحياء ..) .

تييري مونييه
مسرحية (سباق الملوك)

— ١ —

من قال ان الشاعر يولد مع الموجة ، أو يولد كالموجة ، ثم يكبر، ويرتفع معها . فاذا ما بلغت تمامها ، وتمام قوتها ، انضربت على صخور الشاطىء ، محطمة متحطمة ..

من قال هذا ؟ اني لا أذكره .. وربما لم يقله أحد .. ومهما يكن .. فالشاعر يبدو لي ، هكذا .. في العصر ، في هذه الحياة .. فهو الميلاد والموت .. وهو المنتصر المهزوم .. وهو الموجة والشاطىء .. وهو الثورة والثورة المغدورة .. لم يعد ذلك الموصوف بناطح صخرة ليوهنها .. الشاعر الثوري اليوم هو الموجة العظيمة التي تتحطم ، ولكن مخلفة آثارها ، بارزة ، على صخور الشاطىء .. ذلك ان الشاعر الذي « حلت » الثورة فيه ، وأصبحت هاجسه الاول والاخير، وغدا « جندياً » من جنودها لا يمكن الا ان يترك اثره فيها .. أن يموت فيها ، وأن يولد فيها ايضا ، ولادات متجددة .

ان الشاعر المعاصر ، سواء عاش حياته في رموز عصره ، أم عاشها في رموز الحضارة الانسانية ، قديمة أو معاصرة ، فهو انما يجسد وحدة الوجود المادي بين الانسان والعالم والاشياء ، جدليا وقدريا ، أعني ان التوق الذي يشتعل في وجدان الفنان للثورة ، والوعي الذي يدفعه لتخطي قانون « الضرورة العمياء » الى التغيير والخلق ، كحاجة ملحة من حاجات الخلق الفني والاحداث الانساني ، انما يستمزجه بالكون في وحدة جدلية . ويجعل من الثورة ، قدرا لا مفر منه . وهكذا تسقط كل الاقنعة .. لن تكون هناك أقنعة . هناك فقط الشاعر : الموقف — الثورة . ذلك ان الحضارة ، التي هي نتاج النشاط الانساني على جميع المستويات ، وفي مختلف الازمنة والامكنة، عندما تحل في الشاعر وتصبح جزء من ذاته ، تكون هي تصوره عن العالم والانسان ، وكذلك الرموز التي يعبر بها ، تكون هي وعيه وموقفه وتصوره للكون .. تكون هي القصيدة : الشاعر — القصيدة ، القصيدة — الشاعر .

ان الشاعر المعاصر الذي ولد في زمن (الخيانات والثورات الجديدة) أدرك بوعيه التاريخي وواقعه الطبقي ، ان السبيل الى تغيير هذا الواقع ، لن يكون الا عن طريق الثورة ، والثورة فحسب : التوحد معها ، والانفصال عنها ، انفصالا يتيح له رؤية مواطىء أقدامه على الطريق الصحيح ، ومدى قدرة هذه الثورة على تحقيق الهدف الاعظم : تحرر الانسان من جميع الاغلال : القديمة والجديدة ، الفكرية والمادية ، وبناء الحياة الانسانية الجديدة ، العادلة .

لقد انتهى زمن الثورة — الرومانس ، وجاء زمن الثورة — العام . كما انتهى زمن القصيدة التي تستجدي عطف الاغنياء للفقراء ، ورقة حدّ الشفرة للضحية ، وجاء زمن القصيدة الجديدة ، الثورية ، لتقلب الوضع ، وتفك الحصار الذي ضربه الزمن التقليدي حول العقول والاذواق ، والمدن الذبيحة الملفوفة بالاطار :

« افكّ في قصائدي الحصار
عن هذه المدينة المذبوحة ، البالية الاطمار » (١)

— ٢ —

لقد ولد الشعر العربي الجديد في زحمة الظروف القاسية ، بين دوي القنابل ، والصراع الحاد من أجل رغيف الخبز الاسود ، ومواجهة قوى الاستعمار والصهيونية والرجعية العربية العميلة ، والكفاح من أجل بناء الشخصية القومية الجديدة . وكان فقراء هذه الارض هم « الحماطة » (٢) التي عليها أن تستنبت نفسها ، نباتا جديدا ، مضحية بحياتها — التي لا تملك غيرها — عند الضرورة . وما كان الشاعر الجديد الا واحدا من هؤلاء الفقراء ، فلم يمنحه

(١) عبد الوهاب البياتي : قصائد حب على بوابات العالم السبع، ص ١١٤ .

(٢) « الحماطة هنا حبة القلب — كما عناها المعري في رسالة الغفران . وحماطة القلب دمه وصميمه . وهكذا ، فقراء الارض ، هم دم الامة والثورة .

الشعر ، امتياز الانفصال عنهم . بل العكس هو الصحيح . وما أحسب لوتريامون ، عندما قال مخاطبا الشعراء : « كتابتكم للشعر ليست سببا معقولا لتنفصلوا عن سائر البشر » (٣) الا مفندا لتلك النظرة التقليدية القديمة ، والزعم القائل بأن الشاعر كائن مختلف في مادته ومطامحه عن البشر الآخرين . وهذا الزعم انما يعبر في جوهره عن زمالة غير حقيقية بين الشاعر والآخرين . كما يعكس بحث البرجوازية ، عن أسباب للوقوف ضد العالم ، وبالتالي الوقوف ضد القوى الصاعدة التي تدفع حركة التاريخ . اذ أصبح من المألوف أن البرجوازية ، ان لم تستطع توظيف الاديب لمصلحتها ، فانها تبتدع له الاسباب والمبررات لان يتخلى عن مواجهتها أي « تحييده » على الاقل (لئلا ينحاز الى جانب الفئات والطبقات الكادحة التي تستغلها) .

انها تعلم جيدا أن الادب ، سلاح ايديولوجي ، من جملة الاسلحة التي يمكن ان توجد لدحض مثاليتها الفلسفية ، وسحق وجودها الذي غدا لا شرعيا في هذا العصر .

ان الاسباب التي تجمع بين الشاعر وأبناء الطبقات الكادحة ، والمثقفة ، أسباب عقائدية وطبقية . كما تجمع الاولى ، بينه وبين اولئك الذين انحدروا من مراتب البرجوازية ، ولكنهم يحملون حلم الجماهير الكادحة ، في خلق مستقبل للانسان ، أجمل .

ان ثمة اتفاقا مشتركا ، غير مكتوب ولكنه قدر الانسان الطليعي ، بين الشاعر وبين تلك الفئات التي يجمع بينها ضغط التاريخ ، ويضعها على طريق حتمية . ويدفع بها لان تكون طلائع المجتمع لاستكشاف معالم الطرق المؤدية الى الخبز والحرية .

وعلى هذا ، فالروح الطلائعي التي يتصف بها الشاعر ، أو ينبغي ان يتصف بها ، ليست وهما قائما في الذهن ، ولا شكلا مجردا عن حاجة الناس الى الحرية . الطلائعية في الشعر ، موقف فني وايديولوجي لا ينفصل عن السياسة والاجتماع والاقتصاد . وكل تجريد لها او عزلها عن حركة العصر والصراع الطبقي ، وقصرها على الشكل انما هو رجعة ، واتخاذ موقف مضاد للانسان والعالم .

نحن نحترم التجديد ، والتطلع المستمر نحو أفضل الوسائل في الاداء والتعبير الفني ، ونقر بأن الشاعر الذي يجد في ايجاد طريقه الخاص بين الشعراء ، شاعر ينبغي ان لا نحرمه من ثقتنا (٤) ولكن ثمة فرق بين ان يكون التجديد استجابة لحاجة اجتماعية او نفسية .. وبين ان يكون استجابة لنزوة عارضة « مودرن » او لنزعة الاغراب من أجل الاغراب . او أن يكون تطرفا لا عقلانيا ، حيث تغدو كل مظاهر الحداثة ، هي تلك التي لم تكتشف بعد (٥) وبذلك يصبح البحث المستمر عن الاشكال ، هروبا من الواقع . وانعزال الاديب عن أوثق الروابط التي تشده الى المجتمع . اي ان البحث هذا ، يؤدي الى حالة من الاغتراب بين الشاعر والواقع الاجتماعي ، اغتراب ميتافيزيقي تضيع فيه المعالم الجوهرية لشخصية الاديب .

لقد كان الادب والفن ، وما يزال ، انعكاسا عن حاجة انسانية بجهد يستدر من العينين الدموع . وكان في الوقت نفسه « تعبيرا عن حاجة الخلق في داخل الفنان » حاجته الى الخلق والتغيير . فقد انتهى ذلك الزمن الذي كان الشاعر فيه يقوم على أساس قدرته على الوصف ، او رصف الكلمات ، او تفسير الظواهر وتقديم النصائح بشانها .

الشعر اليوم ، مثل الفلسفة ، موقف ازاء العالم . تتاكد فيه ارادة الانسان ومعاناته في تغيير هذا العالم ، بأقصى وأسمى درجات الحرية . ولهذا كان الشعر وما يزال ، مرتبطا في أذهان الفقراء ، ومقترنا بها كحاجة وجودية اساسية ، اقتران الخبز والحرية . وكل فصل بين هذه الحاجة وبين الناس ، انما هو فصل مفتعل وغير واقعي ولا تاريخي . وما الزعم القائل بان الشاعر عندما يسهم مع البشر من أجل المستقبل الافضل ، يتخلى عن كونه شاعرا ، الا كذبة برجوازية .

ان الشاعر في كفاحه مع البشر من اجل هذا المستقبل ، انما يؤكد جوهر وجوده الانساني ، ويبرر قدراته الخلاقة . أي انه عن طريق ذلك ، ينتسب ملامح الانسان الحقيقي - كما يقول فشر - والانسان الرائد الذي يقود البشر الى كنوزهم المخفية والى الحياة الانسانية الحقيقية التي تريد لها حياة الغربة المعاصرة أن تظل بعيدة عنا ، او أن نظل نحن غرباء عنها . وقد كان ايلوار على حق حين قال:

« لقد جاء الوقت الذي أصبح فيه من حق جميع الشعراء ومن واجبهم ان يؤكدوا انغماسهم بقوة وعمق في حياة سائر الناس ، في الحياة المشتركة . ان قوة الشعر المطلقة ستطهر البشر ، كل البشر ، وعلينا ان نصغي الى لوتريامون حين قال : « ينبغي للشعر ان يصنعه الجميع ، لا شخص واحد » » (٦) .

– ٣ –

« ان الفن والادب ظاهرتان اجتماعيتان - كانا وما يزالان ، رغم كل اعلانات الزهو الميتافيزيقي » (٧) . وان من يتحدث بلغة القرن العشرين ، ينبغي أن يحمل وعي هذا القرن ، ويعبر عن حاجة أناس هذا القرن ، هذه الحاجة الملحة الى المعرفة الاكثر والاعمق عن قوانين الواقع الموضوعية ، ليصبح بالامكان تسييرها بما يتفق ومصلحة الجماهير الشعبية الكادحة ، على أن يرتبط التعبير عن هذه الحاجات بأسمى درجات الفن . فالشاعر الحقيقي ليس ذاك الذي يوجه همه الى المضامين وحسب ، الشاعر الحقيقي بقدر ما يعمق وعينا بالواقع وبالثورة ، يشق طريقه بين الاشكال الفنية بتمايز وفذاذة . وفي هذا المعنى قال ماو تسي تونغ :

« اما نحن فنطالب بالوحدة بين الشكل والمحتوى ، أي الوحدة بين المحتوى السياسي الثوري وبين أعلى مستوى ممكن من الشكل الفني . فالاعمال الفنية الخالية من الجودة الفنية لا اثر لها مهما كانت تقدمية من الناحية السياسية ، وهكذا لا نعارض الاعمال الفنية ذات وجهات النظر السياسية الخاطئة وحدها ، بل نعارض ايضا النزعة التي تدعو الى اعمال فنية من طراز الاعلانات والشعارات تحمل وجهات نظر سياسية صحيحة دون ان يكون لها اثر فني ، لهذا يجب علينا في مجال الادب والفن ان نخوض الصراع في جبهتين » .

وعلى هذا ، فاننا نرى أن المشكلة في شعرنا المعاصر ، ولدى معظم شعرائنا ، لا تكمن في البحث عن الاتجاه الاجتماعي الثوري ، فهم يلتقون ، في معظمهم ، مع الجماهير في مطامحها . انما المشكلة تكمن في الوعي المعمق بهذا الاتجاه ، وفي الفصل بين الاتجاه الاجتماعي والشكل الفني . اي أن ثمة طموحا الى التجديد في الشكل لا يوازيه التطموح الى تعميق الوعي بالاتجاه الاجتماعي ، ولهذا فاننا كثيرا ما نقرأ قصائد لا نخرج منها الا باحساس واحد ، هو انها تصدر عن تجريبية شكلية لا غير .

وهذه المشكلة ، هي دون شك ، واحدة من المشكلات التي تعوق وصول الشعر الجديد الى جمهوره ، وتضعف فاعليته بالتالي . ولا حل لها ، في رأينا ، سوى ان يبذل الشاعر جهودا صادقة ،

(٣) بول ايلوار - بقلم لويس باروث وجان مرسيناك . ترجمة فؤاد حداد ، ص ١٨٦ ، ومقالنا (علامات في الشعر والادب) مجلة « الثقافة الجديدة » بغداد .
(٤) بول ايلوار : المصدر السابق ، ص ١٨٨ .
(٥) مفهوم الطليعة - الآداب - ايلول ١٩٧١ ، ص ٧ .

(٦) بول ايلوار - المصدر نفسه ، ص ٦٤ .
(٧) مشكلة الواقع في الفن الحديث - فشر - « الآداب » - آب ١٩٧١ ، ص ٥٣ .

لتحقيق الوحدة بين اتجاهه الاجتماعي وطموحه الفني الى الشكل التعبيري الجديد ، بين تمثل المشكلات المصيرية التي يعانيها الانسان العربي اليوم ، واللغة الفنية المبتكرة . بين ايقاع العصر باحداثه المثيرة ، وايقاع الشعر المتفجر (٨) . ذلك ان الشعر المعاصر ، وقد اكتسب حرية لم تكن معروفة له سابقاً ، في مجال الابداع والتجربة، وهي حرية تحولات وابداع لا حرية ثبات على الطريق الاسلم ! وقد جعل هذا كله ، مسؤولية الشاعر اكبر ، والالتزام امراً اكثر ضرورة من أي وقت مضى . فالحرية مع الالتزام سمات عصرنا ، كما هي سمات الشعر العظيم على مر العصور . لان الحرية والالتزام يرتبطان، عضويا ، بالتحولات الجارية في واقع العالم ، وبرغبة الانسان في التغيير « فحين تعلن التحولات هذه عن نفسها يحركها الشاعر قبل ان تسجن في اللحظات » (٩) وتؤبد تأبيد الاحداث التاريخية .

— ٤ —

ان هذا الارتباط بواقع العصر ، وحركة التاريخ القومي والانساني المعاصر نشهده ، حقيقة ، في أهم وأعمق اتجاهات شعرنا العربي المعاصر ، أقصد الاتجاه الاجتماعي — الثوري .

ولا غرابة في هذا ، ان هذا هو الامر الطبيعي « فالشاعر عضو في مجتمع ، منغمس في وضع اجتماعي معين ، ويتلقى نوعا من الاعتراف والمكافأة . كما انه يخاطب جمهورا ، ولو كان افتراضيا » (١٠)

ومن اجل فهم هذا الشعر ، ومدى ارتباطه بحركة العصر ، وقدرته على التأثير فيها ، لا بد من معرفة هذه الحركة وأسلوب الفكر المعاصر في أعمق تحولاتهما ، والتغييرات التي طرأت ، وتطرأ باستمرار عليهما ، ثم تبين بعد ذلك موقع المجتمع العربي منهما ، والقضايا التي يطرحها هذا المجتمع على الادب والفن ، ثم تحديد امكانيات هذا الشعر في خلق المستقبل العربي ، على ضوء الواقع المادي والاجتماعي والثقافي الراهن .

ان ما يميز حركة العصر ، وأسلوب الفكر المعاصر في أهم وأعمق خصائصهما :

١ — ان عصرنا هذا ، شهد وما يزال يشهد ، تحولات هائلة ، جذرية ، وشاملة لكل ميادين الحياة .

أي لم يقتصر ذلك على الكشوف العلمية ، والثورة التكنولوجية المعاصرة ، بل تعدى ذلك الى الآداب والفنون والعلوم الانسانية الاخرى في الاقتصاد والاجتماع والفلسفة ... الخ .

٢ — هذه التحولات لم تعد مقصورة على فئة دون اخرى ، لقد أشرك الناس جميعا في هذا التحول . « ففي الوقت الذي تطحن فيه التناقضات الاجتماعية ، العالم فانه يتمتع بوحدة عالمية لم يعرف لها مثيلا من قبل . فالاشياء جميعا مترابطة . ولم يعد ممكنا ان يعيش الانسان على هامش الحياة » (١١) . العالم كله يموج بالحركة والتغيير . والطبقات الكادحة تندفع بحماس نحو تحقيق اهدافها في الحرية والعدالة الاجتماعية (١٢) .

٣ — الميل نحو العلم ، والتفكير العلمي ، والابتعاد عن كل ما يمت الى عالم الاسطورة بصلة .

حقا ان عصرنا هذا يحتفي باساطيره . ولكن تجريدات القديم تتداعى ، والفكر الجديد يتقدم بانجازات ونظريات متعددة ذات طبيعة مؤقتة ، ونسبيه من حيث كونها مرتبطة بمرحلة تاريخية معينة . ان الحقيقة الازلية تتحطم ، ويمضي المسطور في الالواح.. والايديولوجيات التقليدية تنهار ، لتقوم على انقاضها ايديولوجيات جديدة أو لا ايديولوجيات أحيانا !

معنى هذا ان اليقين القديم ، التقليدي أو الغيبي ، ينهار ، والاساليب ومناهج البحث القديمة ، أضحت عقيمة لا تفي للاجابة عن كل الاسئلة المطروحة امام الانسان اليوم ، او التي يطرحها على نفسه انسان اليوم .

ان رغبة ملحة ، استولت علينا ، لارتياد مختلف السبل لفهم طبيعة الكون في جوانبه المتعددة ، سواء عن طريق العلم او الفن ، ورغبة في التجريب بمختلف مناهج البحث مع استخدام أدوات جديدة » (١٣) .

ولكن هذا لا يعني « تضييع الحدود » بين الاشياء . اعتقد ان هذه الحدود ما تزال قائمة في وقتنا الحاضر على الاقل . كما انه لا ينبغي أن ينسينا ان الانسان منذ بدء الخليقة حتى اليوم ، في بحثه المستمر هذا ، انما يهدف في الاساس الى اعلاء شأنه ، والتغلب على قوى الاستلاب والتخلف ، واخضاع الطبيعة والقوانين التي تحكم التطور الاجتماعي لصالحه .

أي — على حد تعبير ايلوار : « من العالم المفروض علينا ، ننشىء العالم الذي نحلم به » .

٤ — واذا كان ما يميز عصرنا هذا ، انه (عصر الامبريالية) و (عصر السريالية) فان على الشاعر الثوري ان يدرك ، انه ايضا عصر الاشتراكية العلمية ، وعصر الواقعية الاشتراكية في الادب والفن، وعصر الشعوب التي بادرت بأن أمسكت بزمام حركة التاريخ لتسييرها باتجاه مطامحها . ان ادباءنا كثيرا ما ينسون ذلك . يقول الاستاذ لطفي الخولي : « ان الصراع الطبقي العالمي بين الاشتراكية والرأسمالية قد اصبح يجري في ظروف مواتية — موضوعيا وتاريخيا — لصالح الثورة العالمية . وذلك نتيجة قيام ونمو كل من ظاهرتي عالمية الاشتراكية وعالمية حركة التحرر الوطني . وازدياد وثائق التعاون والتحالف بينهما » (١٤) .

واذا كان الظلام ما يزال يغطي نصف عالمنا ، فان الشاعر الثوري يدرك بوعيه التاريخي ، ان نصفه الاخر قد غمره النور ، وانه يتسع ويضم كل يوم رقعة من الارض ، جديدة .

ان الشاعر الظلامي ، الشاعر الذي لا يرى سوى النصف المظلم من العالم ، شاعر بعين واحدة ، لذا فهو غير قادر على رؤية الحقيقة كاملة ، وهو شاعر « مثبط » بالتناقض بين رؤيته وبين ما هو واقع حقيقة . وهو ، بعد ، شاعر معرقل لمسيرة حركة التاريخ ، حركة الجماهير ، بما يبثه في النفوس من يأس ، وبما يبعثه في الاذهان من أوهام .

ان الوعي التاريخي ، والفهم الجدلي للاشياء ، ضروري للشاعر كما هو ضروري لرجل الاقتصاد ، والاجتماع ، والسياسة ... لقد انتهى زمن الشعر التلقائي ، الشعر الذي ينفعل بالاحداث عاطفيا وحسب ، وحل زمن الشعر الثوري ، الشعر الجدلي ، بوعيه لحركة العصر ، وحركة الافكار والاشياء .

وعلى هذا فان الشعر العربي ، يقدر ان يؤثر في الاحداث ،

---

(٨) مقالنا : (علامات في الشعر والادب — الطليعية في الشعر) مجلة « الثقافة الجديدة » .

(٩) معجم الادب المعاصر — اعداد بيار دي بواديفر — منشورات عويدات ، ص ٧٧ .

(١٠) الادب والمجتمع — لرينيه ويليك ، ترجمة محيي الدين صبحي — مجلة « الآداب » ، كانون الاول ١٩٧١ ، ص ٢٣ .

(١١) مشكلة الواقع في الفن الحديث — ارنست فشر — «الآداب» — آب ١٩٧١ ، ص ٥٢ .

(١٢) آفاق الفكر المعاصر ، اعداد غايتان بيكون — منشورات عويدات — ص ١٩ .

(١٣) منازع الفكر الحديث — للاستاذ جود — ص ١٩ .

(١٤) مجلة الطليعة — ابريل ١٩٧٠ ، ص ١٣٦ .

ويسهم في خلقها ، بقدر ما يحمل من وعي تاريخي وحضاري . وبقدر ما يحرض ، ويحرك ، ويتنبأ ، ويبشر بالحرية .

يرى انجلز :« ان حرية الخلق لا تستقيم الا بمعرفة قوانين الطبيعة والمجتمع ، ومعرفة امكانية وضعها موضع التنفيذ بصورة منهجية ، وبدون هذا التصور لا تعني حرية الارادة غير اتخاذ القرارات مع المعرفة الفعلية للموضوع .. ان الحرية تقوم في السيطرة على انفسنا وعلى الطبيعة الخارجية ، هذه السيطرة المؤسسة على معرفة الضرورة الطبيعية » (١٥) .

معنى ذلك ، ان الشاعر والاديب ليس الا جزء من هذا العالم الذي تحكمه قوانين مستقلة عنا ، ولكنه الجزء المتعالي : (بالوعي والقدرة على الخلق والتغيير) .

« فالفهم الموضوعي للتناقضات التي تسود قانون الحياة ، وفهم واكتشاف منطق حركة التاريخ والتفاعل مع أحداث العصر ، يمنع الشاعر الرؤيا الشاملة ، والقدرة على التخطي والتجاوز والتوجه الى المستقبل . والتوجه الى المستقبل لا يمكن ان يتم اذا لم يستطع الشاعر أن يعايشها ويستوعب الحاضر الذي يسقط ميتا في كل لحظة لكي يصبح ماضيا ، لان المستقبل لا يولد من الفراغ واللاشيء » .

« فالشاعر الذي لا يعلن ولاءه للحاضر ، ولا يحدد موقفه منه بصورة واضحة وصريحة ، ولا يأخذ مكانه بين صفوف كادحيه وجماهيره ، لن يكون له شرف منح المستقبل مثل هذا الولاء... » (١٦)

وفي وطن مثل وطننا العربي يطمح الى مستقبل افضل ، الى تحويل نفسه الى وطن متحرر ، اشتراكي ، موحد ، تكون مهمة الادب والثقافة ، الشعر ، مساعدة الفرد العربي على تكوين نفسه بنفسه ، وان يعيد خلق نفسه بنفسه في عالم يتحول باستمرار وبسرعة كما يقول غارودي (١٧) .

أي ان ذلك أشبه ما يكون بخلق (البطل الاسطوري الذي يعي بوجدانه ، قضية يطرحها على الانسان ، وضع تاريخي ، والذي يكتشف معناها الانسان (أي الذي يتخطى الوضع) والذي يؤلف لدينا انتصاره - بل واخفاقه احيانا - يقظة مسؤولة لجل قضايا عصرنا ((١٨) .

هذا البطل الاسطوري ، هو النموذج الاشتراكي ، الانسان الخلاق في مجتمع التحول او الجمود (الشخصية النموذجية في ظروف نموذجية - على رأي انجلز) . موضوعا كبديل للنموذج البرجوازي الذي تطالعنا به الثقافة البرجوازية . هذا النموذج الاشتراكي الذي يمكن تحديد ملامحه من خلال بعض التحولات الاشتراكية ، ومن خلال التصور الموضوعي لما يمكن ان يصير اليه المجتمع ، ومن خلال النظرية الاشتراكية التي نؤمن بها ، والنضال ضد الافكار البرجوازية والليبرالية التي تغرقنا بها دور النشر العربية اليوم (اللبنانية خاصة) .

اي أن هذا الانسان هو : « حضور المستقبل باعتباره خميرة في رحم الحاضر » (غارودي) أو هو : ذاك « الذي يستأنف الموت برغبة دموية في الحياة » (محمود درويش) .

ان هذا ليس تصورا مثاليا مجردا ، انه تصور مثالي على اساس الممكنات ، والشروط المادية التي يسمح بها الواقع ، انه الممكن وليس المستحيل . فقد أكد ماركس وانجلز - مؤسسا الاشتراكية العلمية - « ان الاحساس البروليتاري الجديد بالعالم يتشكل ، ويوجد حتى قبل قيام الثورة الاشتراكية . انه يقوم على تناقض المجتمع البرجوازي المعاصر ، على الاتجاهات الاشتراكية الداخلية التي تتدعم فيه يوما بعد يوم تبعا لتطور المجتمع الدائم الى الامام ولازدياد حدة الصراع الطبقي فيه » .

ولكن « على الرغم من أن هذا الاحساس الاشتراكي بالعالم يوجد موضوعيا فانه ليس شهادة مجانية ممنوحة بشكل آلي لكل بروليتاري أو انسان انتقل الى مواقع البروليتاريا ، بل ان عملية تكوين هذا الاحساس عملية طويلة معقدة ومتنافضة . فالاحساس الاشتراكي بالعالم ينمو في الناس نتيجة نشاطهم الحياتي المتنوع والهادف ، ولهذا الاحساس معيار معين كالسعة والعمق والتماسك ووضوح التعبير، كما أن هناك صيغا عديدة وطرقا متنوعة لظهوره الحسي المشخص، اذ ان الاحساس الاشتراكي بالعالم هو أغنى وأوسع ما وجد من أحاسيس في تاريخ البشرية » (١٩) .

- ٥ -

اذن ، الشعر هذا الفرع المهم من فروع الادب والمعروفة عندنا ، مطالب لكي يسهم اسهاما خلاقا في صنع المستقبل العربي ، قوميا وانسانيا ، بأن يكون شعبيا (١٩) ملتحما بواقع الجماهير ، مجسدا آمالها ، مزعزعا استقرارها ومظاهر الجمود في حياتها ، محرضا لها ، وقائدا لها نحو النور ، مغنيا انتصاراتها وانتصارات الكائن البشري، على الجوع ، والموت والاغتراب الطبقي .

ان الشاعر الذي لا يقدم للجماهير اكثر مما تعرف من افكار أو صور ، أو ينقل لها الواقع نسخة مكرورة على الورق .. على طريقة (فذكر عسى أن تنفع الذكرى ..) شاعر ملول ، وغير مؤثر .

الشاعر الفاعل ، كان وما يزال ذا سمو فني وعمق فكري ، ذلك ان الشعبية هي التي تقود القارىء الى فكرة عميقة ، والى تعليم عميق ، انطلاقا من اكثر الوقائع بساطة وانتشارا ، كما قال لينين ، الى اكثر المشاكل تعقيدا وخصوصية . كما انها تعني المشاركة في البناء الخلاق لعالم ما يزال في طور النمو والتكوين .

ونحن مع علمنا بخطل أية دعوة لتوحيد أساليب التعبير في الشعر وأهمية اختلاف الشعراء في ذلك ، الا اننا مع ذلك نعلم ان هناك رابطا يجمع هذه الاساليب كلها ، جوهرا هو الانسان . والشعر الثوري هو الذي يتوجه الى الحياة والناس . انه صوت الامة ، صوت

---

(١٩) الجمال في تفسيره الماركسي - « دمشق » ١٩٦٨ ، ص ١٣٨ - ١٣٩ .

(١٩) نعني بالشعبية ما عناه لينين بخصوص معنى الادب الشعبي في مقال له حول مجلة (زنو بودا) قال : « ان يكون الادب شعبيا امر يختلف كثيرا عن كونه تعميميا ، ابتذاليا . الكاتب الشعبي يقود القارىء الى فكرة عميقة ، الى تعليم عميق ، انطلاقا من اكثر الوقائع بساطة وانتشارا . انه يدل اعتمادا على تحليلات غير معقدة او امثلة يحسن اختيارها ، على النتائج الاساسية التي تستخرج من هذه الوقائع ويدفع القارىء الذكي الى ان يطرح على نفسه باستمرار، مزيدا من الاسئلة . الكاتب الشعبي لا يفترض قارئا لا يفكر ، لا يريد او لا يعرف ان يفكر . انه على العكس ، يفترض أن كل قارىء على شيء من الثقافة يود جديا ان يدفع دماغه الى العمل ، ويساعده لتحقيق هذا العمل الجدي الصعب ويوجهه ، فيؤازره للقيام بخطواته الاولى ، ويعلمه أن يندفع وحده الى الامام . اما الكاتب الابتذالي فيفترض قارئا لا يفكر وغير قادر على التفكير ، فلا يقدم له المبادىء الاولية لعلم حقيقي ، بل على العكس ، يقدم له جميع نتائج علم ما « جاهزة بكاملها » في صيغة تبسيطية الى درجة العبث « تملحها » العبارات والكلمات المضحكة ، بحيث ان القارىء لا يحتاج ان يمضغ بل الى ان يزدرد وحسب » .

مجلة « الاحد » ع : (٩٧٥) ١٩ نيسان ١٩٧٠ - ترجمة ادونيس .

(١٥) المادية والمذهب النقدي التجريبي - لينين - ص ١٨٤ .
(١٦) عبد الوهاب البياتي : تجربتي الشعرية ، ص ٣٣ .
(١٧) منعطف الاشتراكية الكبير - ص ٤٥ .
(١٨) ماركسية القرن العشرين - غارودي - ص ٢١١ .

الطبقات المسحوقة ، صوت هذا العصر المتفجر ، وهذه الفترة من تاريخنا النضالي على المستويين القومي والانساني .

ولن يكون الشاعر شاعرا الا اذا رسم على الافق ، منطلقا من ارضية الواقع ، خطا يتجاوز به نفسه ، كما يقول سارتر (٢٠) وخطا تتجاوز به الجماهير واقعها ، وتصنع مستقبلها بنفسها .

اننا مثلما « نناهض الفن الذي يكيف نفسه مع عالم يسوده اغتراب الانسان نناهض بشكل اكبر الفن الذي يلبس الاغتراب زورا ، ثوب الحتمية الكونية . وفي تدريجنا الواقع يجب وضع الانسان في المركز البؤري ، ذلك الانسان الذي يعيش ويناضل في المجتمع. وتتحدد وظيفة الفن الاكثر أهمية بالنسبة لنا في مساعدة الانسان وخدمته وعرض علاقاته المتعددة مع الطبيعة ومع المجتمع ومع نفسه ذاتها . اننا نؤمن بأن الفن يجب أن ينحاز من أجل الحياة ضد الموت ومن اجل الضرورة ضد المخادعة ب « الكائن الخالد » ويجب أن ينحاز الانسان ضد عالم يسوده اغتراب لانساني » (٢١) .

واذا صح ما قيل عن الفلسفة ، وما نظنه الا صحيحا ، ان الفلسفة اكتفت منذ عصورها الاولى ، بوصف العالم وتفسيره . وان عليها اليوم ان تعمل على تغييره ، وخلقه خلقا جديدا . فان الشعر ، عليه هو الآخر ، أن يتجاوز حدود الوصف والتفسير التي استغرقته عصور طويلة ، الى محاولة تغيير العالم .

ذلك انه اذا كانت القوة المادية لا تقلبها الا قوة مادية ، فان الفكر الثوري ، هو الآخر ، يكتسب قوة المادة اذا ما تغلغل في نفوس الجماهير (انجلز) .

ان كل ذلك ، دون شك ، مرهون بالشروط الموضوعية والحضارية التي يتوجه بها للجماهير . فالشعر الثوري سواء قيل في (الهواء الطلق) أو في غرف التعذيب وسجون الاعداء ، ومهما تعددت أساليبه ومناهجه ، يمكن أن يؤدي مهماته . المهم عدم الاستسلام للواقع الجائر ، والانحياز الى جانب الانسان .

ولعل معظم الآثار العظيمة في الاداب والفنون ، والتي خلدت عبر العصور ، هي تلك التي حرضت وساهمت في التحولات والثورات الاجتماعية ، وتلك التي رسخت التحولات الجديدة « واكتنزت بنزوع الانسان وطموحه وقلقه الخلاق من أجل حياة جديدة » (٢٢) .

ان المفارقة في الفن والذات الانسانية هي الاتصال والانفصال في وقت واحد بالمعنى الجدلي ، لذا لا يمكن الادعاء بان الاديب خارج تنظيمات المجتمع (الاحزاب ، المنظمات ، الاتحادات ...) غير قادر على التحريك والاثارة .

المهم أن الاديب داخل المجتمع بوعيه ، مفارق له بمعاناته . اذ هو في الحالة الاولى مدرك لاحواله واحتياجاته وبؤسه . وهو في الحالة الثانية ، مغاير له ، مغترب عنه بفكره وأمانيه .

ان هذه المفارقة تدفعه ، فكرا وممارسة ، لان يعمل على تغييره وقيادته . وهو في الوقت نفسه يغير نفسه . وبذلك تسقط كل المعادلات الصعبة والسهلة معا ، التي تجعل من الاديب طرفا ، والمجتمع طرفا آخر ، وكأن ما بينهما حالة انفصام . ان ما بينهما في أسوأ الاحوال ، حالة مرضية ، حالة المريض والطبيب المعالج . حالة تحكمها وتوترها المصلحة المشتركة ، والنوازع الانسانية ، والتمرد على الموت ، والخلل في الكيان الاجتماعي ، واثارة حوافز التحدي لتجاوز ما هو كائن الى ما ينبغي أن يكون .

ولهذا « وليس مصادفة على الاطلاق ، ان حركة الشعر العربي الحديث بمجموعها ، ما عدا استثناءات لا تخلو منها حركة ابداعية ، تسير منذ بداياتها الاولى مع الحركة الثورية وحركة التحرر والتقدم الاجتماعي ، ثم حركة المقاومة بالتالي ، وتصبح عنصرا فعالا في هذه الحركة . ولا نستطيع هنا أن نفسر هذه الظاهرة بموقف الشعراء وحده ، من الحركة الثورية . بل لعله من الاصح القول ، ان الحداثة نفسها والمعاصرة في البناء الفني واللغة والتراكيب ، هي احدى ظاهرات ذلك الموقف الثوري للشاعر ، تحولت فيما بعد الى ظاهرة ثقافية فنية عامة » (٢٣) .

ان الشعر الجديد ولد بين دوي القنابل ، وأنين الجرحى ، وضياع الارض (فلسطين) وصراخ المظلومين والجياع ، حيث يخلط الدقيق بنشارة الخشب .. وحيث (القنانة) في الريف ، والطبقات الكادحة المسحوقة في المدينة . فكان الصوت الجديد النازف الذي يحاول ان يثبت قيما جديدة ، ويخلق عالما يشق فيه صوت الجائع والمقهور ، سجف الظلام والقهر ، الى نسمة من النور ، ونسمة من الحرية . يحمل الى الجماهير المضطهدة ، الامل ورياح التغيير . كان صوت الجماهير المعبر عن واقعها المؤلم والمتوجه بها نحو غد انساني قويا ، مباشرا ، مسموعا . اي انه « كان ادب معركة واضحة المعالم » كما قال الاستاذ محمد دكروب (٢٤) على المستويين المادي والفني .

يعني ان ولادة هذا الشعر كانت ضرورة تاريخية ، في مجتمع يعاني تحولا في العلاقات الاجتماعية والانتاجية : من (عشائرية ـ شبه اقطاعية) الى (مدنية صناعية) . كما كان استجابة فنية لكل هذه المتطلبات . ذلك ان الشكل التقليدي (العمودي) للشعر المرتبط بعالم مستقر ، وعلاقات اجتماعية وانتاجية معينة ، كان لا بد من تغييره أو احداث ثورة في وسيلة التعبير . فكان الشعر الجديد الذي هو اكثر مواءمة ، وقدرة على الاستجابة للتحول الجديد ، والتكوين النفسي والفكري للمجتمع الجديد .

وهكذا « لا بأس من القول ان الشعر الحديث قد ولد اولا من مناسبة الثورة في الجامعة وفي الشارع وفي الحزب . ان ذلك يدل على الاقل ، على الصلة العضوية المباشرة بينه وبين فترة اليقظة الاولى ، جماهيريا ، على الكارثة ، وضد الكارثة » .

« فان الصرخات ضد الاحتلال الاستعماري وضد الفئات الحاكمة الظالمة معه ، هي التي وجدت طريقها فيما بعد لكي تصبح صرخات ضد الذات ، وتنتقل من مناسبة التوتر السياسي المؤقت الى مناسبة التوتر الحضاري الشامل . وهكذا فان رفض أشكال الكارثة في الخارج ، سوف ينعكس على الذات ، ليصير الى معاناة تجربة الكارثة ، أسبابها ومعانيها القومية والاجتماعية ، في ذات الشاعر وذات الامة » .

« ولا شك أن يقظة الشعر الجماهيري ، توجهت الى وعي الوجه السياسي من الكارثة . ولذلك أعطت دفقا ثوريا ضمن القضايا السياسية ، ومحتوياتها اليومية . وما كان لليقظة السياسية ان تتحول الى صحو حضاري ، لولا ان الحركة السياسية نفسها ، قد تجاوزت عفوية النضال الجماهيري وسلبيته المادية المباشرة » .

« لقد استطاع الشعر الجماهيري اذن ان يبشر بيقظة ، وان يحتال على وجود الكارثة ببعث الشخصية البطولية للفارس العربي القديم . وبذلك عاد للكلمة الفنية اثرها الحي العضوي لدى الكتلة ،

(٢٠) الرؤيا الابداعية ـ ص ٢٥٩ .

(٢١) ارنست فشر ـ مشكلة الواقع في الفن الحديث ـ مجلة « الآداب » آب ١٩٧١ ص ٥٣ .

(٢٢) عبد الوهاب البياتي ـ قضايا التحول الاجتماعي ـ جريدة « الثورة » عدد ٣٠ ـ ٣ ـ ١٩٧٢ .

(٢٣) محمد دكروب ـ مجلة « الطريق » ع (١) كانون الثاني ١٩٧١ ، ص ٧٥ .

(٢٤) محمد دكروب ـ مجلة « الآداب » كانون الثاني ١٩٧٢ ، ص ٤٩ .

ولعب الشاعر دور القائد مرة اخرى في أوساط الشباب الثائر ، في الجامعات والمدارس والاحزاب ، وفي مسيرات التظاهرات الشعبية. وبذلك تولدت الوظيفة الاجتماعية للشعر الجديد ، من صميم المعركة المادية ، وبقيت هذه الوظيفة ملازمة لتطوره ، حتى بلغ أعلى درجات الذاتية الحضارية » .

« ومن هنا فان هذا المولد التاريخي الواضح للشعر الحديث ، يبرهن بصورة قاطعة ، على ان هذا الشعر لم يصطنع من خارج حدود الامة ، ولم يفد عليها غريبا ، لكي ينسال على اقلام امزجة ناشزة .

بل انه ولد من هدير الثورة الجماهيرية ، ثم ارتفع في لحظات الهدوء الى حدود المعاناة الفردية ، وراحت تصب فيه تجارب ثقافية وانسانية عالية ، لبعض وجدانات من نخبة المثقفين العرب ، وهم يغوصون على الاصول ، من اجل الكشف عن لحظة البراءة المطلقة ، واعادة الصفاء الى ينبوع الخلق والتقييم . وهي اللحظة الضرورية في كل بداية انبعاث حضاري في التاريخ البشري » (٢٥) .

فاذا كانت الستينات ، وهي تحمل معها الكثير من التغييرات (الانتصارات والانكسارات) على جميع المستويات : السياسية والثقافية ، وولادة جيل جديد من الشعراء ، شهدت أو عانت الحركة الشعرية من حالة انفصام بينها وبين الجماهير الشعبية لاسباب كثيرة يطول شرحها ، ولكن لا بد من ذكر أهمها ، مثل :

- الاحباطات السياسية المتعددة ، والدموية أحيانا .

- الغزو الثقافي الليبرالي الذي ساهمت فيه بعض دور النشر العربية .

- تمزق القوى الوطنية (أحزابا ومنظمات ..) في صراعات ثانوية .

- تدهور الاوضاع الاقتصادية ، وخاصة فئات البرجوازية الصغيرة التي ينحدر منها معظم الشعراء ، تحت ضغط وسطوة البرجوازية التجارية والصناعية .

كل ذلك ، مع عوامل أخرى بالتاكيد ، أدى بالترابط الى ولادات شعرية عسيرة ممزقة . وفي أفضل الاحوال الى تيارات مفرقة في (الآنية) والصوفية والغموض والشكلية . هي في الواقع ، افرازات اوضاع مأساوية مضطربة ، ومعركة غير واضحة المعالم - امام هذا الجيل الجديد على الاقل - الذي طحنته التمزقات الداخلية ، وغياب الحرية وانعدام الوضوح في الرؤية السياسية ، والاجواء الكابوسية للاداب الغربية الجديدة .

كان هذا هو الاتجاه السائد ، وان كنا لا نعدم ان نجد شعراء ظلوا في مستوى القضايا المصيرية ، وعلى قدر من وضوح الرؤية ، ولكنهم لم يكونوا مسموعين في غالب الاحيان ، حتى اذا كانت نكسة الخامس من حزيران ١٩٦٧ ، صحا الجميع على واقع جديد ، لا لانه غير معقول وحسب ، بل لان التبدل جاء سريعا وصاعقا (٢٦) .

وفي الوقت الذي دفع هذا التبدل ، البعض الى اليأس والندب والبكاء ، حدد موقف البعض الآخر بشكل أوضح . وأبرز قوى جديدة في ساحة المعركة العربية لم تكن ملموسة (شعر المقاومة ، والمقاومة المسلحة) . كما خلق ذهنيات جديدة .

بل انني لاستطيع القول ، أن بعض قوى اليسار العربي قد أعادت النظر في مواقفها القديمة تجاه القضية الفلسطينية وتجاه كثير من القضايا النظرية ، والاحداث اليومية : العربية والعالمية . كما دفع حزيران ببعض القوى المترددة من البرجوازية الصغيرة الى صفوف اليسار ، وضاعف من قوة الافكار العلمية ، والثورية ، وانتشارها بين الجماهير ، وشدد بالتالي من جبهة محاربة الافكار والتيارات البرجوازية الليبرالية المعادية للفكر الاشتراكي ، وثورات الانسان الجديدة .

وبعبارة وجيزة ، استطاعت نكسة حزيران أن تخلق وضعا جديدا ، وعلاقات جديدة بين قوى الثورة العربية المعاصرة . لعلها في الجبهة الثقافية ، أكثر نصوعا وأشد تماسكا .

وهكذا عاد الشعر العربي الى مجراه الطبيعي ، الابهى ، وبدأ يتخلص من كثير مما علق به ، زمن الستينات الاولى ، من الارتباك في المواقف والغموض في مفاهيم الحياة والفن ، رغم اننا ما زلنا نجد « الاستثناءات التي لا تخلو منها حركة ابداعية » .

- ٦ -

ان الشعر العربي الجديد بواقعه الحاضر ، وطموحه المستقبلي ، شعر يقدر ان يؤثر تأثيرا موازيا لاي اتجاه أدبي آخر ، ان لم يكن اكثر ، ذلك اننا ما زلنا أمة شعر على ما يبدو (وقد لا يكون هذا علامة خير) .

فالشعر يرتبط دائما بمشاعر بدائية (او فن السحر - على رأي فشر -) تمت الى عالم الطفولة والاسطورة اكثر مما تمت الى عالم العلم والحقيقة الواقعية . ولكن عزاءنا ، ان هذا الشعر بدأ يفهم ان تأثيره في الجماهير ، ينبغي ان يأتي عن طريق الوعي لا المشاعر وحسب . فهو يأخذ اذن دور العلم والنظريات ، او اشبه بذلك ، وقد حصل هذا بفعل التحفز الحضاري والتحرك الاجتماعي نحو العلمية في العالم العربي ، دون ان يقطع هذا الشعر جذوره الموغلة في الطبيعة البشرية والتي بدونها لن يكون شعرا .

معنى ذلك ، اذا كان التقدم التكنيكي في البلاد الصناعية المتقدمة قد قطع الانسان عن الطبيعة ، وسحبه بعيدا عن خضرة شجرة الحياة ، الى المناظر الصناعية الكئيبة ، كما قال جاك بيرك ، فان الشخصية العربية تستطيع ان تستعيد الطبيعة او ان تظل ممسكة بها ، بواسطة الآلة او معها . ذلك اننا لم نفقد موهبة التوحيد

---

(٢٥) مطاع صفدي : (مسؤولية المعاناة في الشعر الحضاري) - مجلة « الآداب » آذار ١٩٦٦ ، ص ٢٠ . ونحن نهدف ايضا من هذا الاقتباس الطويل من مقال الاستاذ صفدي ان نرد على اولئك الذين ما يزالون يرون في الشعر الجديد وليدا غير شرعي ، او محاولة مشبوهة لهدم التراث العربي !

(٢٦) بعد الهزيمة راح الكثير من الشعراء يتحدثون عن انهم تنبأوا بالهزيمة . ومع اننا لا نجحد رؤيا الشعراء التقدميين ونقدهم للواقع العربي قبل الهزيمة ، والتحريض على تغييره ، ولكن الذي لا شك فيه وبلا ادعاءات ، رأينا الجميع قد هللوا للحرب مع اسرائيل في اللحظة التي انطلق فيها صوت اول مذيع يعلن النبأ ، معتقدين ان هذه الحرب ستكون الخاتمة لحل هذه القضية ، وان النصر أكيد . كان هذا التفاؤل ، حشوا حشاه في وجداناتهم ، الساسة والخطباء ، وكان جهلا بامكانيات الدول العربية ، وامكانية اسرائيل ومن ورائها الامبريالية الاميركية التي كان يجهلها حتى اولئك الساسة والحكام .

بينهما (٢٧) بعد . وهذا يتوقف دون شك على حسن استخدام الآلـة ووعي ظروف التطور الصناعي ومشكلاته .

وهذا يعني ايضا ، بدوره ، ان ما يشاع من افكار القلـق او الاغتراب التكنولوجي لدى بعض أدبائنا ، ما هي الا دعاوى زائفة ، أو هي بالاحرى افكار ومشاعر « مستعارة » من القراءات في الآداب الاجنبية ـ الاوروبية خاصة ، والا فأين هي التكنولوجيا ، او الآلة المتقدمة التي « غرّبتنا » !

اننا لا نعاني اغترابا من التكنولوجيا ، بل نعاني غربة عـن التكنولوجيا . ونعاني صداع ارث هو مزيج من حضارة بدائيـة وحضارة وسيطية) .

وفي عصر العلم والاشتراكية هذا ، الشعر مطالب بالثورة على هذا الارث من الحضارة البدائية والوسيطية ، وعلى الانانية والفردية، والاتجاه نحو تحقيق المزيد من الانتماء الى الجمـاهير الشعبية ، والتحديث الاجتماعي ، والاسهام في التحولات الاشتراكية عن طريق « اثارة وعي جماهير القراء التي تشكل جزءا فاعـلا من قوى الحركـة الثورية » (٢٨) .

والاسهام الفعال ، كذلك ، في المعركـة التحررية ضد قوى الاستعمار والصهيونية والاحتكارات الاجنبية ، ومناهضة كل مظـاهر التخلف في الوطن العربي ، وبعبارة مختصرة العمل على تغيير المجتمع العربي تغييرا جذريا ، واشعال الحرائق في كـل ما يعوق تحرره وتقدمـه .

وما دام الشعر والادب عموما ، يفعل كل ذلك عن طريق الوعـي والانارة ، فلا بد من الاعتراف بأن هناك مشكلات عديدة تقف بوجـه هذا الشعر ، وتحول دون وصوله الى الجمهور وتأثيره التأثير المطلوب.

هذه المشكلات لسنا في مجال عرض الا ما كان منها لصيقـا بهذا البحث :

(١) حقيقة الواقع الثقافي للمجتمع العربي ، سواء ما يتصل منه بتفشي الامية وانتشارها او ما يتصل باساليب ومناهج التربيـة والتعليم في المدارس والمؤسسات والجامعات .

(٢) المشاكل الفنية للشعر الجديد ، وعلاقة ذلك بالقارىء .

(٣) غياب الحرية والديمقراطية ، والارهاب الذي تمارسه بعض أنظمة الحكم العربية او بعض المؤسسات الثقافية ضد الشعر والشاعر الجديـد .

(٤) والى جانب ذلك ، بعض الاتجاهـات التغريبية والمشككة التي تشيع باسم التجديد والكتابة الجديدة ، والثورة التكنولوجية ، وتبث مفاهيم فكرية ـ طوباوية وجمالية ـ شكلية .

وهي اتجاهات « مهوّلة » ، ذلك انها اما تحاول ان تقفز فوق الواقع وامكانات تطوره ، بحجة الاتجاه الى المستقبل ، محاولة ايجاد مكان لها هناك . اي في وضع لم يتشكل بعد ، كمن يحاول ان يفرض نفسه « ضيفا » على وضع قد لا يقبله .

واما هي اتجاهات محدقة في الواقع ، باتجاه واحد ، وحيـن لا ترى سوى عالم الفوضى والفساد ، تعود منكفئة علىنفسها ، محاولة أن تقدم صورة تحليلية بمعيار ذاتي و (مجاهدات) صوفية استلابية.

ان كل هذا يضعنا مرة اخرى في مواجهة الكيان المادي والثقافي للمجتمع العربي . هذا الكيان الذي تتعايش فيه علاقات انتاجيـة ، وايديولوجيات او وجهات نظر طبقية ، متناقضة .

(٢٧) عن كتاب الدكتور شكري عياد (الادب في عالم متغيـر) ص ٦٩ .
كما يمكن اعتبار الفقرة الطويلة الموضوعة بين قوسين ، فقرة اعتراضية من وضعنا .

(٢٨) محمد دكروب ـ المصدر السابق ـ ص ٤٣ .

ورغم التطور الذي نلمسه في الآداب والفنون والافكار الانسانية التقدمية الا انه تطور يكاد يكون فوقيا ، ذلك اننا نفتقد القاعـدة الاجتماعية المادية المتطورة تطورا حقيقيا .

ان ثمة عوامل تاريخية وثقافية واقتصـادية أوجدت جماهير عريضة في وضع المستهلك للادب والفن ، وحرمتها في الوقت نفسـه من امكانية التطور معهما ، اذ أطرتها في أطر وقواعد ثابتة توارثتهـا جيلا بعد جيل ، والازمة القائمة هي بين أمرين :

١ ـ الارتفاع بالجماهير الىمستوى الفنوالادب وآخر تطوراتهما.

٢ ـ تلاؤم الادب والفن مع الجماهير ، اي تحويل الانتاج الفني الى ما يشبه الانتاج السلعي ، بكميات كبيرة ونوعية رخيصة .

ولكن الفنان يرفض هذا المصير والجماهير عاجزة عن الترحيب بفنه بوضعها الحالي .

وازاء هذا الواقع ، لا بد من احداث ثورة اجتماعية شاملة . الشعر أداة من أدوات هذه الثورة التي ينبغي ان لا تعفي الشعر نفسه من الاحداث الثوري .

ان الشاعر لكي يؤكد حريته ازاء الواقع ، وانه شاهد عصره المنبىء بعصر جديد ، لا بد من ان يعلن انحيازه الكامل الى جـانب الفقراء والمضطهدين ، والديمقراطية والثورة . « انه لا حوار فـي قضية الثورة ولا مكان لاية وجهة نظر ترفض رؤية المعاناة الجماهيرية في حركتها التاريخية او تمنح نفسها حرية الاختيار في اتخاذ موقف محايد (٢٩) . هذا اذا كان ثمة امكان لموقف محايد .

ان ما ينبغي ان يدركه المثقف الحر ، انه ليس حرا وهو يقف في صف المستغلين ودعاة العنصرية وأعـداء التحرر والاشتراكية ، أو يقف متفرجا وسط المأساة .

ان مناضلة الواقع الجاثم على صدر هذه الامة ، والذي يكاد يكتم انفاسها ، مهمة الشاعر ، كما هي مهمـة رجل الاقتصـاد والسياسة ، والاجتماع ... الشاعر مطالب بأن يتفور اعماق الواقع ليكشف عن جذور التخلف والارهاب ، وتأكيد حرية الخلق والابداع . هذه الحرية التي هي في عصرنا مؤسسة علىمعرفة الضرورة التاريخية، ثم لا بد من ارتبـاط الشاعر بما هو مصيري ، وبقـوى الثورة وجماهيرها ، والعمل على توحيد هذه القوى (احزابا .. منظمات .. او ايديولوجيات طبقية تقدمية) في جبهة وطنية ، طالما ان هذهالقوى، قوى ثورية ، تربطها بالجماهير مصالح طبقية .

ان الشعر الذي يعمل على تمزيق وحدة القوى الوطنية في مثل هذه المرحـلة ، شعر مخرب ، تجب تعريته وكشف نواياه امـام الجماهير .

ان الشاعر هنا يلعب دوره في خلق ودعم قـوى الخلق والتغير الاجتماعي وفي (اعداد أرضية طليعية جديدة للمصائر الانسانية التي لم تتكون بعد) (٣٠) .

هل يعني هذا ، ان شعرنا المعاصر ، يكاد يكون سياسة ؟

أجل . ولكن ليست السياسة بالمفهوم الشائع هي قضيةالشعر. السياسة عرض ، والشعر جوهر ، والمعانـاة هي ما نقصده والاداء الشعري المخصوص هو ما تتجسد فيه هذه المعاناة .

ان الشاعر العربي الجديد (كائن سياسي) ولكنه شاعر اولا ، وقضية العصر والانسان هي التي تملي عليه الشعر السياسي (نقد المؤسسات الاجتماعية والسياسيـة التي تسلب الانسان انسانيته ، وتحده في بقعة معينة من التاريخ والحضارة .

ولهذا نقول ان الشاعر الاعمق تأثيرا في المجتمـع ، ليس ذاك الذي يكتفي بتصوير ما يرى .. بل هو ذاك الذي يثير السؤال بعد السؤال .. يحرض ، ويكشف ، ويوحي ، ويوقظ .

(٢٩) صديقي اسماعيل ـ مجلة « الآداب » كانون الثاني ١٩٧٢ ، ص ١٠ .

(٣٠) نفس المصدر السابق .

قال الاستاذ صديقي اسماعيل : « العصر الذي نعيش فيه هو عصر يقظة للضمير الانساني ، يقظة زادت نظرة الشعب الى الحياة شمولا وعمقا . واصبح الشاعر مطالبا بأن يعبر في غنائه عن قضية شعبه في أعمق صورها . ان الشاعر المعاصر هو شاعر بمقدار ما يضع يده على ضمير الانسان في عصره ، وتكون اللفظة والصورة في تجربته الفنية تجسيدا لهذا الضمير في ايمانه واضطرابه في سعادته وشقائه ، في قوته وضعفه . ان مصير الشاعر العربي المعاصر أن يرد الينبوع ابدا . بذلك وحده يحسن تناول الاشياء والناس من خلال وجهة نظر جديدة في حياة الانسان » .

وعلى هذا نقول ، ان الشعر العربي الثوري ، هو الذي يعمل على :

١ ـ هدم كل المؤسسات والمنشآت المادية والثقافية والفنية المهترئة والسكونية في المجتمع ، والتي تعمل على قمع قوى الخلق والابداع للفرد العربي ، ليتاح لهذه القوى ان تنمو وتزدهر في ظل التقدم والحرية والديمقراطية .

٢ ـ تطوير الموروثات الثقافية والمادية والفنية ، التقدمية والانسانية لتكون الارضية الجديدة للبناء الجديد .

٣ ـ بناء مواقف ثورية وتقدمية ـ مادية وفكرية وجمالية جديدة ـ فالشاعر الحقيقي ، الثوري ، نقول مع (البيان الشعري) : (هو مع المستقبل دائما . أي انه ثائر تقدمي يخوض حروبا مستمرة ضد انغلاقات المجتمع : ضد العبودية ، ضد الاستغلال ، ضد البيروقراطية ، ان الشاعر الذي يرتبط بالمستقبل والحلم والحقيقة يتخذ موقفا عسكريا من امراض عصره . فهو لا يدين فقط وانما يكتب قصائده بدمه ايضا عندما تقتضي الضرورة وعندما يكتشف ان موته اكثر اهمية في رحلته الانسانية نحو الحقيقة » (٣١) .

ـ ٧ ـ

أما وقد انتهينا الى هذا المسار . ماذا نقصد بالشعر الجديد ؟ الشعر الذي انبنى عليه رأينا ، في قدرة الشعر على التغيير والابداع ؟ اننا نجد اليوم في شعرنا العربي المعاصر (المعاصرة ـ الزمنية) عدة اتجاهات واشكال في كتابة القصيدة ، وهي تمثل في الوقت نفسه وعي الشاعر للعصر ، ولعملية الخلق الفني :

(١) القصيدة التقليدية : وهي تمثل في جوهرها ، الوعي المحافظ والتقليدي في فهم العالم والانسان ، كما تمثل خصائص النفس والذوق العربي الذي تشكل عبر قرون طويلة ، انتهت .

(٢) القصيدة الجديدة : وهي التي خصصناها بهذه الدراسة ، وهي تمثل بأبعادها الفنية والفكرية ، وعي العصر ووعي الشاعر للاداء الفني ومهماته ازاء مرحلة تاريخية معينة .

وهذه القصيدة ذات مستويات فنية متعددة ومختلفة لدى شعرائها ، أي ان ما يميزها ، فنيا ، انها ذات طابع تجريبي ، ولكن ما يقارب بينهما : الرؤية . اذ هي تحول ان تقدم شهادة صادقة للعصر ، او حوارا دائما مع الوجود الانساني من أجل الكشف ، واستشفاف آفاق المستقبل (٣٢) .

اي اننا داخل هذه القصيدة التي نصفها بالجديدة ، يمكن ان نميز نوعين من الرؤية ، يرتبط بها الشكل او ترتبط به ، ارتباطا عضويا وجماليا :

١ ـ رؤية تصويرية ـ رافضة : اي أن القصيدة التصويرية هذه ، تصور الواقع ، او تصفه . وفي الحالة هذه ، تضع نفسها في ظل الاشياء . وعندما ترفض فان رفضها ، يظل مجرد رفض (خارجا عن القانون) ولكنه ليس ثورة .

ان القصيدة هذه ، والتي تتخذ شكلا جديدا غير قديم ، ترتبط بوعي طبقي او انساني ولكنه غير ثوري ، انه في جوهره ، وعي البرجوازي المستنير .

اذن ، وكما قال ادونيس : « ما نسميه اليوم شعرا جديدا ليس كله جديدا ، فالشكل غير القديم لا يعني ، بالضرورة ، انه جديد . ثمة شكل جديد ، ظاهريا ، يحمل نفسا جديدا . فالفرق بين القديم والجديد لا نلتمسه ، بالضرورة ، في الشكل ، بل في الروح ، في الحضور الشعري الشخصي الجديد الاصيل ، تعبيرا ورؤيا » .

« وكل اثر شعري جديد يكشف عن أمرين مترابطين :

شيء جديد يقال ، وطريقة قول جديدة . فكل ابداع يتضمن نقدا للماضي الذي تجاوزناه ، وللحاضر الذي نغيره ونبنيه . وعلاقة الجدة في الاثر الشعري هي طاقته المغيرة التي تتجلى في مدى الفروقات ومدى الاضافة : في مدى اختلافه عن الآثار الماضية ، وفي مدى اغنائه الحاضر والمستقبل » (٣٣) .

٢ ـ رؤية ثورية : أي شعر يهدف الى تحطيم الاطر التقليدية للبنية الاجتماعية ، شعر مقلق للضمير الانساني ، ومتجاوز لنفسه باستمرار ، انه التجسيد الحي لثورة الانسان . و « التعبير عن هذا الصراع الازلي والعميق فيما بين الانسان وبين نفسه ، وما بين الانسان ومجتمعه ، وما بين الانسان وقدره » (٣٤) .

ان الرؤية الثورية ، رؤية جدلية ، مؤسسة على معرفة الضرورة التاريخية ومنحازة الى الحاضر ضد الماضي المتخلف ، والى المستقبل ضد الحاضر المتبلد . اي ان الشعر الثوري ، ليس شعرا (مسكونا بالمستقبل وحده) بل تسكنه (وحدة الزمن التي تشمل الماضي والحاضر والمستقبل) وتوجهه الرؤية الجدلية التاريخية ، لمتناقضات الحياة والمجتمع .

اننا محاصرون بوجود اجتماعي يقمع فيه القديم ، الجديد ، ويضطهده ، والعالم الجديد ينبعث من هذا العالم القديم ـ الميت ، كنقيض له ، وانتصار عليه . وعظمة الشعر ، تتمثل في قدرته على تحدي الموت والغربة والاضطهاد اللاانساني . والتبشير بالبعث ، والحب ، وتأكيد الوجود الانساني الحقيقي .

ان احراز انتصارات فكرية ومادية للطبقات الشعبية ، في مرحلة معينة (اقطاعية او برجوازية) هي بشير بانتصار هذه الطبقات على واقعها .

وفي مثل الظروف التي يعيشها الانسان العربي ، والانسان في العالم ، لا وجود حقيقي ، ولا حرية حقيقية للشعر الا في ارتباطه بالثورة وبالنضال العملي للجماهير من اجل التغيير الاجتماعي الشامل .

بغداد — **طراد الكبيسي**

---

(٣١) مجلة الشعر ٦٩ ـ ع (١) ص ١٢ .

(٣٢) سيلاحظ القارىء انني أهملت ما يعرف بـ (قصيدة النثر) ، ذلك انني ارى انها لم تستطع حتى لدى أقدر كتابها انتكتسب صفة (قصيدة ...) .

(٣٣) تجربتي الشعرية ـ «الآداب» ـ آب ١٩٦٦ ، ص ٣ .

(٣٤) محمد الفيتوري ـ مجلة « الثقافة العربية ٧١ » لبنان ـ آذار ١٩٧١ ، ص ٦٧ .

الأدب العربي والثورة التكنولوجية في النصف الثاني من القرن العشرين

بقلم
علي الشوك

اذا استعرنا لغة الاقتصاد فانه ليسعنا القول ان حتمية التقنيات الجديدة ستكون لها أهمية أساسية في حياة المجتمعات الحديثة على اختلاف أنظمتها ، وان التقدم العلمي والتكنولوجي انما يأتي في مقدمة الشروط التي تقتضيها التحولات الاجتماعية في عصرنا . وهناك من يرى ان التكنولوجيات باتت لها الصدارة اليوم حتى على الايديولوجية . ولئن كان في هذا القول شطط او غلو ، فهو لا ينفي الدور الخطير الذي تلعبه التكنولوجيا في مصائر المجتمعات المعاصرة ، بل في مصير البشرية جمعاء . فما يزال شبح الحرب النووية الماحقة اكبر مظهر من مظاهر النقمة التي تمخضت عنها التكنولوجيا الحديثة . وعلى صعيدنا العربي لعب التخلف التكنولوجي دورا هاما في انتكاسة حزيران ١٩٦٧ ، حتى لقد دخل في روع البعض منا ان مشكلتنا بالاساس انما هي مشكلة الكترونية ، واننا لن نستعيد حقنا وماء وجهنا السليبين الا عن طريق الجدارة التكنولوجية وحدها . وسواء ندّ مثل هذا المنطق عن تشخيص صحيح للمشكلة او عن نظرة ضيقة لها ، فنحن لا نملك ان نسقطه من الحساب . بل لعل في هذا التحدي التكنولوجي الذي نواجهه ما يحرك ساكنا . والا فلا خيار لنا . فنحن نعيش في عصر لعل من حسناته انه لا يرحم التخلف والتلكؤ . فاذا كانت أمة كالولايات المتحدة وهي في طليعة البلدان المتقدمة قد وجدت في القمر السوفياتي الاول تحديا لمنعتها وكرامتها التكنولوجيتين فراحت تعيد النظر بمناهجها العلمية والتعليمية ، فما أحرانا نحن بأن نفعل شيئا من هذا ، ما دمنا نواجه التحدي في عقر دارنا ، وما أحوجنا الى ان نعمم تجربة كتجربة الرياضيات المعاصرة التي بدأت معظم بلداننا العربية بتطبيقها في بعض مناهجها التعليمية . ما أحوجنا الى ثورة شاملة ومتناسقة في شتى ميادين حياتنا . والا فستبقى الرياضيات المعاصرة ترفا فكريا او فوقيا في مجتمع ما يزال يقتل المرأة غسلا للعار . وكذلك سيكون عقيما او ضربا من البطر الفكري حديثنا عن اثر التكنولوجيا في النصف الثاني من القرن العشرين على أدبنا العربي في الوقت الذي ما زال أدبنا يشهد صراعات بين الشعر العمودي والشعر الحر ، وما زال فقيرا في عطاءاته النوعية التي باتت تعتبر اليوم كلاسيكية ، كالرواية والمسرحية . وفي الوقت الذي لم يعرف أدبنا سرفانتس وتولستوي ودوستويفسكي الا بعد النصف الثاني من القرن العشرين ، بل ماذا اقول ، ان نوافذنا تكاد تكون مغلقة او في أحسن الاحوال مواربة امام المؤلفات العلمية العالمية الحديثة التي اخذت تتضاعف كل خمسة عشر عاما ، كما تفيد الاحصاءات ، وباتت مواكبتها أمرا يكاد يكون مستحيلا .

يخيل الي انا هنا انما نضع العربة امام الحصان . أم اننا نحاول ان نقنع انفسنا والغير باننا عصريون حقا ؟

أيها السادة ، انني أسألكم قبل ان تستمعوا الى حديث عن السيبرنطيقا والادب العربي ، ان كان ثمة ما يقال بهذا الشأن ، ماذا فعلنا بصدد الحواجز القائمة في معظم بلداننا العربية امام الكتاب العربي ؟ من منكم سمع بكتاب (موازين الشعر العربي باستعمال الارقام الثنائية) للدكتور محمد طارق الكاتب وهو محاولة لاستخدام الآلة الالكترونية الحاسبة ونظامها الرياضي لمعرفة اوزان الشعر العربي ، أقول من سمع بهذا الكتاب ، ربما عدا بعض من تهيأ له ان زار العراق في مهرجان المربد الاخير .

وكيف يمكن ان يكون حديث عن ظاهرة تتعلق بالادب العربي ، كحديثي ، وافيا بالغرض ، في الوقت الذي أكاد اجهل جهلا مطبقا عما يجري في الحياة الادبية المعاصرة في المغرب العربي برمته . أليس حريا بنا والحالة هذه ان نتواضع فنتدارس مشاكل ادبنا الاساسية قبل التصدي لدراسة ظواهر لما تتبلور بعد في أدبنا العربي . حقا اننا نعيش في عالم يشهد ثورة تكنولوجية عظيمة الشأن . ولكن ما هو مقدار ما أصابنا من هذه الثورة ؟ او بكلمة اخرى ما هو موقعنا في العصر الحديث ؟ او بالاحرى الى أية درجة نحن عصريون ؟ وما هو مقياس التقدم والتخلف الحضاريين ؟ اذا اخذنا بنظر الاعتبار وتائر التطور الاقتصادي اساسا نقيس بموجبه نسبة المواكبة العصرية ، فسنجد أنفسنا أكثر تخلفا اليوم مما كنا عليه قبل عشر سنوات ، وذلك بالمقارنة مع البلدان المتقدمة . أنا لا أملك احصاءات عن معدل الزيادة في دخل الفرد من السكان في البلدان العربية ، ولكن أمامي احصائية استقيتها من كتاب نشرته وزارة التخطيط العراقية تفيد بأن دخل الفرد في البلدان النامية في سنة ١٩٧٠ أصبح أقل مما هو عليه في البلدان الرأسمالية المتقدمة باثنتي عشرة مرة ، بعد ان كان في سنة ١٩٦٠ أقل باحدى عشرة مرة . وحسب التكهنات الاحصائية فان دخل الفرد من السكان في البلدان الرأسمالية المتقدمة سيكون في نهاية القرن العشرين اكبر بخمس عشرة مرة عما سيكون في البلدان النامية . فما الذي يمكن ان نستخلصه من هذه المعطيات ؟

ومن جهة اخرى لو اخذنا حالة قطر مثل الكويت ، حيث ان مستوى

دخل الفرد فيه ينافس أعلى دخل في العالم المتقدم ، فهل يصح هنا ان نعتبر الكويت بلدا متقدما كالصين التي تعرف الكثير من اشكال الصناعة المتطورة وتفجر القنابل الذرية والنووية ولكن الفرد فيها لا يتمتع بدخل يمكن أن يقارن بدخل الفرد في الكويت ؟ ربما يحسن بنا هنا ان نميز بين مفهومي المعاصرة والتقدم الحضاري ، بالرغم من ان هناك قاسما مشتركا بينهما . فالمعاصرة ، كما يبدو ، تتطلب شروطا اكثر تواضعا مما يتطلبه التقدم الحضاري . ذلك اننا نستطيع ان نستعمل الآلة الالكترونية الحاسبة في بعض مؤسساتنا الصناعية والعلمية ، ونتحدث عن اثر التكنولوجيا الحديثة على أدبنا العربي ، بالرغم من اننا لا ننتج ما هو أبسط من الحاسبة الالكترونية في ديارنا . كما انه لا يسعنا ان نستبين بما أحدثته الصناعة الحديثة كالترانزستور والتلفزيون من تحولات اجتماعية في حياتنا الراهنة، بالرغم من اننا لا ننتجها ايضا . فبفضل الراديو والترانزستور الصغير والذي لا يكلف كثيرا اقتحم العصر الحديث آخر معاقل التخلف عندنا ، فصار بوسع فلاحنا أن يحمل هذا الجهاز الصغير معه الى الحقل ، وباتت أمهاتنا لا يستغنين عنه حتى في مطابخهن .

كل هذا صحيح ، ويؤكد الفائدة التي جنيناها ونجنيها من الثورة التكنولوجية المعاصرة . ولكن هذه الفائدة ما تزال محدودة وفي حدها الادنى اذا أخذنا بنظر الاعتبار ان الثورة العلمية الحديثة انما تتجسد بصورة اساسية في الصناعة الالكترونية وفي الانتاج الواسع الضخم الذي تنهض به وتسيره العقول الالكترونية . او بعبارة اخرى اننا سنبقى بعيدين عن جوهر هذه الثورة العلمية الجديدة ما لم تشملنا بانقلابها النوعي الذي حقق تغييرا جذريا في وظيفة الآلة .

فاذا كانت الثورة الصناعية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قد حققت ، عن طريق الآلة البخارية التي حلت محل العضلة او القوة الفيزيقية عند الانسان ، انعطافا حضاريا كبيرا ، ربما يضاهي بأبعاده التاريخية اكتشاف الزراعة التي نقلت البشر من مرحلة الاعتماد الكلي على الطبيعة الى محاولة السيطرة عليها وتذليلها ، فقد حققت التكنولوجيا الحديثة عن طريق الاجهزة السيبرنيطيقية والالكترونية انعطافا ثوريا في عمل الآلة . لقد حلت الآلة هذه المرة محل العقل البشري . اننا هنا اذن ازاء مرحلة جديدة من مراحل العلاقة بين الانسان والآلة ، مرحلة تتميز بهذا البعد الجديد للالة ، ونعني به الدور الابداعي لها . فما هي بصمات هذه الثورة التكنولوجية الجديدة على حياتنا ، وعلى واقع الحركة الفكرية والفنية عندنا . بل قبل ذلك ما هي بصماتها على الفنون المعاصرة في العالم .

على صعيد الفنون التكنولوجية هناك نزعة تتخذ من التكنولوجيا والفن شعارا لها ، وتسعى الى تجاوز العمل اليدوي واقتحام ميادين جديدة ليس لها تأريخ استيتيكي معروف كما تقول جين لفنغستون . انها محاولة للانطلاق بالفن من أطره الستاتيكية الى صيغ وأشكال اكثر ديناميكية وحركة . فاذا كان الفنان قبل اليوم يؤكد على العناصر التشكيلية وحدها ، فانه اليوم يطمح في ضوء الامكانات التكنولوجية العصرية في أن يستثمر عناصر اخرى ، كالفراغ ، والزمن ، والحركة ، وسيلجأ الى استعمال مواد ووسائل تعبيرية جديدة يستعيرها من ترسانة العلم كالضوء والرائحة والمادة الغازية المؤينة ، والاشعة ، وكل ما تتمخض عنه المبتكرات العلمية والصناعة الحديثة . وسيقتضي ذلك من الفنان ان يدخل المختبر والمصنع جنبا الى جنب مع العالم والمهندس التكنولوجي ، ويقترح القيام بالتجارب المختبرية او يشارك في الابحاث العلمية . وانا لنشهد اليوم محاولات فيها من الطرافة ما يجعلنا نعيد النظر بالمفهوم التقليدي للفن . هناك مثلا أعمال فنية تتغير من صورة او حالة الى اخرى وذلك حسب طبيعة المادة التي يتالف منها العمل الفني او بفعل مؤثرات علمية معينة . ويحلم فنانون وتكنولوجيون بآفاق فنية عجيبة لاشعة ليزر ، ويتحدثون عن تماثيل فراغية يمكن ان تصنع من هذه الاشعة . وتبعث من جديد أحلام الموسيقي سكريابن بالموسيقى الملونة والمعطرة . ويزداد دور الآلة في تنفيذ بعض الاعمال الفنية كما تفعل الحاسبة الالكترونية .

اما في الموسيقى فان بصمات الثورة التكنولوجية تبدو اكثر وضوحا . فما يسمى بالموسيقى الكونكريتية والالكترونية انما يتم صنعها اليوم في المختبر فقط ، وذلك عبر عمليات معقدة قائمة على أساس من نظريات وأنظمة رياضية وفيزياوية ، وباستخدام آلات جديدة كهروالكترونية ، مثل مولدة الموجات الجيبية (من جيب الزاوية) ، ومولدة الموجات المربعة ، ومولدة الضوضاء البيضاء ، والدائرة الكهربائية التكاملية (من التكامل في الرياضيات) ، وما الى ذلك . وبفضل نظام الستيريو والتوجيه الصوتي يدخل عنصر المكان لاول مرة عالم الموسيقى الى جانب البعد الزمني . ولعل اكبر انقلاب حققته الموسيقى الالكترونية هو الغاؤها او تجاوزها اللغة الموسيقية التقليدية أي النوطات السبع المعروفة ومتفرعاتها ، واستبدالها بلغة الاصوات المجردة الالكترونية التي تضم الاوكتاف الواحد لا الى اثنتي عشرة نوطة او نصف نوطة كما هو الحال مع الموسيقى التقليدية ، بل الى اضعاف ذلك بكثير . أو بعبارة اخرى ان الموسيقى الجديدة باتت موسيقى اصوات ومؤثرات أخرى بعد ان كانت موسيقى نوطات .

وفي الأدب ايضا تتناهى أصوات تقترح اعادة النظر بعملية الكتابة بالاساس ، على غرار ما يقوله أحد شخوص رواية ((الانتباه)) لالبرتو مورافيا . يقول هذا البطل الروائي : ((لكن الادب ، اعذرني ، قد امسى شيئا باليا . انه من نتاج الصناعة اليدوية (...) والحال اننا نعيش في عصر صناعي بكل ما في الكلمة من معنى)) . وتظهر كتب تحمل عناوين مثل ((الكتاب المضاد)) ، أو يفكر بعضهم بصنع شعر يذاق ، ويشم ، ويشترى بالارطال ، شعر يخرج عن نطاق الطباعة كما تقول جاسيا رينشارد . وتبلغ النزعة التجريدية عند آخرين حد ان يجربوا تحويل الكلمات المنطوقة الى أصوات ليست ذات معنى وذلك بمطها او ضغطها او التلاعب بها بأي شكل من الاشكال ، او تحويلها الى شيء آخر غير صوتي : اشعاعات تتوهج باشكال مختلفة طبقا لمقاطع ونبرات الكلمات . ولعل اكثر هذه المحاولات تواضعا صنع الشعر بواسطة الحاسبة الالكترونية . ويبدو ان هناك اكثر من دليل على ان هذه ليست نزوة . فثمة من يعلق عليها أهمية ويتوقع لها مستقبلا باهرا . فهيرمان كان يتساءل فيما اذا كان بوسع الكومبيوتر (الحاسبة الالكترونية) ان تتفوق على الانسان . وهو يميل الى الاعتقاد بالايجاب بالرغم من انه يتهيب من نتائجها . فقد يكون بوسع الكومبيوتر ان تنظم شعرا افضل من شعر الانسان ، وان تؤلف مسرحيات افضل ، او تجترح أحكاما أفضل . وهو يرى اننا سنشهد ذلك قبل نهاية القرن ، ويعتقد ان الوسيلة الوحيدة لتحقيق ذلك هي عندما يكون بوسع الكومبيوتر ان تتعلم من التجربة . وماذا بعد ذلك ؟ ماذا سيفعل الشعراء والمؤلفون ؟ هل يبحثون عن عمل آخر شأن رجال الاعمال والادارة الاميركان الذين اخذت تشردهم الحاسبة الالكترونية ؟ هل نلومهم اذ يباركون التخلف التكنولوجي ؟!

هل نحن نواجه مرة اخرى الموقف الاغترابي من الآلة الذي يتاتى من مزاحمتها الانسان والتحكم بمصيره . ويبلغ هذا الموقف ذروته في الهلع من القوة التدميرية الهائلة للآلة المتمثل باسلحة الذرية والنووية . والحق اننا لو حاولنا أن نتقصى أسباب القلق والضياع والافكار العبثية في الادب العالمي الحديث لوجدنا انها ترجع في جوهرها الى الطبيعة اللاديمقراطية للمجتمعات الطبقية ، والى الحالة الاغترابية

التي تفترضها طبيعة العمل في هذه المجتمعات ، والفزع من الآلة وما تملكه من طاقة تدميرية هائلة .

على ان هذا الهلع ينبغي ان يترجم الى سخط لا على الآلة بل على من يسيء استعمالها . ان سيف ديموقليس ليس هو مصدر الرعب، بل الطاغية الذي علقه من شعرة الحصان فوق رقبة ديموقليس . ومع هذا فان من حسن حظ البشرية ان يكون هناك تكافؤ تكنولوجي ولا سيما على صعيد الصناعة الحربية . اما التنكر للآلة ، والهلع من التقدم التكنولوجي ، كما يبشر بعض مفكري الغرب المتياسرين ، من امثال ماركوزة ، فمردود ، ولعله يخفي وراءه قصدا مشبوها ، لانه موقف رجعي ومخالف لطبيعة التطور ، ودعوى تنطوي في حقيقتها على ابعاد امبريالية غايتها ابقاء الدول المتخلفة على حالها من التاخر والتبعية الاقتصادية . كما ان اصوات بعض فئات الشباب في الغرب التي تدعو الى التمرد على المدنية والعلم ليست سوى رد فعل ضد فوضى وضراوة الحياة في المجتمعات الرأسمالية ، وضد الآلة اذ تستخدم لقهر الانسان . وما هذه الاصوات ، ومخلفات الافكار الميتافيزيقية ، سوى مظهر من مظاهر النوستالجيا الى القديم فالذي ما يزال يعيش فينا بنسبة عالية اذا تحدثنا بلغة الرياضيات . ذلك ان ٩٠ ٪ من العلماء الذين عاشوا منذ بداية المدنية ما زالوا حتى يومنا هذا مصدر معلوماتنا كما جاء في تقرير لمنظمة اليونسكو (١) . ولكننا نستطيع ان ناخذ فكرة افضل عن ابعاد الثورة التكنولوجية المعاصرة اذا علمنا « ان هذا التطور يسير بمعدل يجعل معلومات الانسانية اكبر بمقدار ٤ مرات عما هي عليه عندما سيتخرج من الجامعة احد الاطفال الذين ولدوا اليوم . وعندما سيبلغ (هذا الطفل) الخمسين من عمره سيكون ٩٧ ٪ مما يعرفه في تلك السن قد تم التوصل اليه او اكتشافه منذ ولادته فقط » (المصدر السابق) . الن يكون لهذا مغزى كبير ؟ او لا يحق لنا بعد هذا ان نراجع مواقفنا ونعيد النظر بالعديدمن افكارنا ومفاهيمنا السابقة ؟ صحيح ان الحديث عن الفن هو غير الحديث عن العلم ، كما اعتدنا ان نقول . ولكن اثر التكنولوجيا الحديثة على الفن يتزايد يوما بعد آخر كما رأينا ، الامر الذي ربما يجعلنا نعيد النظر بفلسفة الفن اياها ، وبهذا المفهوم الذي يضع حدا فاصلا بين العلم والفن . بل وحتى بمفهوم خلود الاعمال الفنية . أولسنا نسمع اليوم من يشكك بفكرة الخلود الفني ؟ اليكم هذا الراي : « ... فان ما كان جيدا قبل عشرة قرون ، او حتى عشر سنوات ، لا يمكن ان يكون جيدا بنفس المقدار في وقتنا الراهن الا عند التعامل معه وفق قيم عصره او بالتعامي عن معطيات التطور . اي ان شعر المتنبي مثلا لا يكون جيدا بمقدار ما كان الا بعلاقته بالمتنبي نفسه وبعصره وبالقيم السائدة في ذلك العصر » (٢) .

حقا اننا حتى على صعيدنا العربي بتنا نلمس هذا التنامي في الحس بالمعاصرة والتخلي عن الحنين الى القديم الذي يصح ان نعتبره مظهرا من مظاهر التخلف والشعور بالنقص على حد تعبير بول ايلوار. فادبنا اليوم اكثر تفاعلا مع العصر ومع الحياة الراهنة منه بالامس . وينعكس هذا في المواضيع التي يعالجها ، وفي اشكالها ومضامينها ، وفي اللغة الجديدة التي يكتب بها هذا الادب . فشاعرنا الحديث لم يعد لسان حاله يقول :

واني وان كنت الاخير زمانه   لآت بما لم تستطعه الاوائل

---

(١) عن مقال لنبيل زكي بعنوان « فلسفة تغيير الحياة.. والعالم » المنشور في مجلة « الكاتب » السنة الثانية عشرة ، نوفمبر ١٩٧٢ – العدد ١٤٠ .

(٢) موسى كريدي .

كل همه وطموحه ان يعارض اشعار الاولين من امثال البحتري وأبي نواس والبوصيري ويتناول من مائدتهم ويعيش في فلك مجدهم وفي أطر عصرهم . انه اليوم يحاول ان ينفض عن نفسه وعن مجتمعه غبار سنوات الظلام بأن يعيش في صميم واقعه ويحيا هموم عصره ويتشوف الى مستقبل أرحب . فيسعى الى اجتراح أشكال وتقنيات جديدة من شانها ان تنهض بمثل هذه المهمات الجديدة . ولقد قطع شعرنا الحديث شوطا بعيدا في مسيرته القصيرة هذه التي لم تتجاوز ربع القرن . وعبر هذه المسيرة تجاوز الشعر نفسه من القصيدة الغنائية بأبعادها المسطحة ولغتها المونوفونية ، الى لغة اكثر تعقيدا وتشابكا ، وبالتالي أقدر تعبيرا عن سمة العصر وروحه . فحاول الشاعر الحديث الاستفادة من التكنيك العصري ، كأن يستثمر عنصر الصمت مثلا كجزء لا يتجزأ من عملية الايقاع الشعري ، مثلما فعل ملارميه من قبل ، او يستثمر تعدد الاصوات في آن واحد وهو يشبه ما يسمى بالالقاء الآني للشعر كما فعل الشاعر سعدي يوسف في قصيدته « غرناطة » . أو ان يلجا الى أسلوب الكولاج الذي استخدمه قبله الرسامون فيضيف بذلك بعدا تشكيليا الى القصيدة او يستخرج جوا اخر ، كما فعل سعدي يوسف ايضا في قصيدة نشرت في مجلة « الاديب المعاصر » العراقية بعنوان « تسجيل » ، وفي « قصيدة تركيبية » المنشورة في مجلة « الاقلام العراقية » . وتذكرنا احدى قصائد بلند الحيدري – أقراص للنوم – بتكنيك التقطيع السينمائي . كما حاول بعض شعراء الموجة الجديدة تجزئة الكلمة ومنح الحرف قيمة ايقاعية ومضمونية وتشكيلية مستقلة ، او تنضيد وترتيب حروف وكلمات القصيدة على نحو ايديوغرامي . واخيرا فان شاعرنا الحديث لم يتردد في استعارة لغة العلم ايمانا منه بعدم وجود مناطق محرمة على الشاعر، فراح يستخدم لغة الرياضيات ورموزها والقوانين والمعادلات العلمية.

وقد كان بدر شاكر السياب يفكر في امكانات التفنن والتصرف بأوزان الشعر العربي باستخدام بعض قوانين الجبر ، مثلما فعل في قصيدته « جيكور أمي » حيث قال في هامشها : « اذا كان ٣ (فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن) = ٣ فاعلاتن ، ٣ مستفعلن ، ٣ فاعلاتن ، مثلا ، فان الفرضية التي تقوم هذه القصيدة موسيقيا عليها ، صحيحة . ارجو ان تتاح هذه الفرصة لتجربة هذه الفرضية على جهاز الاصوات الذي سبق للدكتور محمد مندور ان قام ببعض التجارب عليه في باريس .. » .

وعلى غرار ذلك حاول شعراء آخرون التفنن بتقنية القصيدة مستفيدين من لغة العلم والامكانات التكنيكية الحديثة .

وقد يجدر بنا ان نشير هنا الى محاولة الدكتور محمد طارق الكاتب في دراسة وسبر أوزان الشعر العربي باستعمال الارقام الثنائية والآلة الالكترونية الحاسبة . ولاهمية وطرافة هذه المحاولة لا ارى بأسا من ان انقل فقرة عن مقدمة الكتاب (المشار اليه سابقا) لنقف على طبيعة وآفاق هذه المحاولة . يقول الدكتور الكاتب :

« كنت أفكر دائما بأن الشعر العربي موزون بطريقة رياضية ، وعندما كنت أتحدث الى أصدقائي بذلك كان هذا الحديث يجابه بابتسامة مهذبة من بعضهم ، والاستفسار والاستفهام من بعضهم الآخر، حتى اهتديت مؤخرا الى ان العلاقة التي تربط بين موازين الشعر العربي والرياضيات هي ان وزن الشعر العربي مبني على التفعيلات التي وضعها العبقري الفذ الخليل بن احمد الفراهيدي حيث تتوالى الاحرف المتحركة والساكنة بأسلوب ونمط خاصين ، بينما يوجد في الرياضيات ما يعرف بالارقام الثنائية التي يمكن بواسطتها تمثيل اي عدد بالرقمين (صفر) و (واحد) ، فيمكننا اذن تمثيل الحرف المتحرك في الشعر العربي بالصفر والحرف الساكن بالواحد » .

اما القاص العربي فهو الآخر وجد نفسه ملقى في وسط العالم

والعصر بعد الحرب العالمية الثانية . وقد كانت روايات نجيب محفوظ الاولى ولا سيما ثلاثيته تصويرا بارعا لواقع المجتمع المصري على طريقة الكتاب الواقعيين في القرن التاسع عشر . واذا كان لهذا الاسلوب في الكتابة ما يبرره يومئذ ، حيث كان المجتمع المصري يتحرك بمثل الطريقة السردية البطيئة التي كتبت بها روايـــات تلك الفترة ، فما لبث ان اصبح عاجزا منذ أوائل الستينات عن ان يعبر عن روح العصر الحديث الذي يمور بالحركة والثورة في كل مكان وعلى كل صعيد ، وكاد هذا الشعور بالعجز ان يصيب بالعقم والشلل كاتبا كنجيب محفوظ الذي انبهر بالثورة العلمية الحديثة . ولكنه ترجم انبهاره هذا الى موقف عبثي مؤداه ان الفن فقد عرشه الـــذي اغتصبه العلم ، وأعياه العجز والجهل عن اقتحام الحقائق الكبرى ، فانقلب الى الغضب والرواية الضد ، والعبث ... ليسرق الاعجاب الذي استحوذ عليه العلمـاء ، كما اشار السيد شفيق مقار في كلمته « الحس بالعبث في عالم نجيب محفوظ) . فها هو بطله في « الشحاذ » يقول :

« اقرأ أي كتاب في الفلك او في الطبيعة او في أي علم مـن العلوم وتذكر ما تشاء من المسرحيات او دواوين الشعر ثم اختبر بدقة احساس الخجل الذي سيجتاحك » (١) .

ولكنه في احدى رواياته الاخيرة كان أكثر استجابة للعلم ، حيث جرب ان يستفيد من مدلول نظرية النسبية متأثرا بلورنس دريل فـي رباعيته الاسكندرانية .

ويتعزز عند نجيب محفوظ هذا الشعور بالمعادلة القلقة بين الفن والعلم في عصرنا ، والانبهار امام التطور العلمي والحضـــاري الذي يتلاحق على نحو متوالية هندسيـــــة تتضاءل في مجرى تقدمها قيمة التراث ، فنجده يشكك حتى بمفهوم خلود الآثار الفنية ، ربما باستثناء بعض الاعمال المتميزة جدا .

ويبرز مثل هذا الموقف العبثي من العلم ، عند كتّاب آخرين بهذا الشكل او ذاك ، فنجدهم يحاولون الخروج من أطر وعيهم الاجتماعي ، والانطلاق الى وعي يواجه الكون ويطرح أسئلة جديدة ، كما يدعو أحد كتّابنا في العراق . فيؤلف هذا الكاتب قصة يصفها بأنها « قصيـدة مخترع شرير مدحور توصل الى صنع جهاز يشع أوبئـــة غير معروفة تحيل سكان المدينة الى أنصاب جامدة ... وعبر عذاب هذه التجربة يحاول تعيين موقفه كقاتل شرير بعد كشوفات متواصلة للبهجة والبؤس والحلم والموت والحب في التأريخ والعالم » حيث تظهر فيها مؤثرات الادب العلمي الخيالي العالمي ، ويبرز الجـــانب السلبي للعلم في حياتنا .

وينعكس كذلك تفاعل أدبنا مع العصر الحـــديث في الاهتمام بالشكل وفي ظاهرة ما يمكـــن ان يسمى بالتجريبية التكنيكية عند أدبائنا الشباب . ولا شك ان هذا الاهتمام بالشكل مشروع ويستنـــد الى أسس ومبررات موضوعية ، وان بين الكثير من هـــذه المحاولات التجريبية ما يمكن ان يتمخض عن قيم جديدة قد تثبت جدارتها ، كما ان بينها ما قد يأتي مفتعلا او مرتجلا يفتقر الى النضج أو تقليدا أعمى لتجارب الغير دون ان يكون له طعم مستساغ عندنا . ولست هنا في معرض تقييم هذه الظاهرة او نقدها ولكنـي سأشير فقط الى بعض هذه المحاولات التقنية والتجريبية في القصة العربيـــة الحديثة التي تعكس اثر العصر عليها .

أسلوبا ، يلاحظ ان القاص الحديث لم يعد يلتزم الكتابة بضمير واحد ، الغائب مثلا ، او المتكلم ، او المخاطـب ، بل قد ينتقل مـن طريقة الى أخرى او يستعملها كلها في آن واحــد ، كما فعل نجيب محفوظ في رواياته الاخيرة ، وكما يفعل معظم الادباء الشباب اليوم بمزيد من الاصرار . وعلى غرار ذلك لا يلتزم القاص الحديث بصيغـة زمنية واحدة للفعل ، بل ينتقل من الفعل الماضي الى المضارع والـى المستقبل ، او يستعملها جميعا في آن واحـــد . وقد يكتب البعض قصة بأكملها بصيغة المضارع وضمير الغائب او المخاطب .

وعلى أية حال فلعل اهم ما يميز القصة الجديدة لغتها الجديدة التي تبرز فيها كل مؤثرات العصر الحديث . أو بالاحرى ان من مزايا القصة الجديدة انها لا تلتزم لغة معينة تنحاز بها بشكل واضح عـن بقية الانواع الادبية ، شعرية كانت أم نثرية . فقد يستخدم القـاص في قصة واحدة لغة الشعر والصحافة والمسرح والسينما والعلم..الخ.

ولا يكتفي القاص الحديث بتجاوز شكل وبناء القصة التقليدي ، بل يعمد الى تشويه الشكل ، والغاء السياق . فيلجأ الى طريقة تبنيد القصة اذا جاز القول ، ووضع العناوين الجانبية ، وعدم الالتـــزام بهيكل متكامل ومتنام للقصة ، والتفنن بالترقيم (التنقيط) وبترتيب الجمل والكلمات في الصفحة ، واستخدام طريقـــة الكولاج . وبذلك تفقد القصة شكلها المتعارف عليه كنوع أدبي ، « ونصبح ... قصيدة ومسرحية وفيلما ولوحة وموسيقى في الوقت ذاته دون ان تعني ذلك » كما يقول فاضل العزاوي في مقدمة روايته (مخلوقات فاضل العزاوي الجميلة) .

ويجرب العزاوي هذه الخدعة أو اللعبة التكنيكية في روايته ، فيبدأ نشيدها الاول — كما شاء أن يبوب فصولها — بكلام شعري : « الليل المتألق كالفراشات يهبط فوق الغابات الجديدة » . ولو تساءلت عن أية غابات جديدة يتحدث لما حظيت بطائل ، لان الحقيقة هنـــا ستختلط بالوهم . ففي عصرنا هذا الذي لا ينى يحول الاحلام والاوهام الى حقائق ، يفقد المنطق معناه ، أو هكذا يتراءى للبعض ، وتستعيد السريالية مجدها .

وحين تكون ثمة حالة فصامية بين الانسان وعصره ، فان العالم يبدو له غريبا او وهم . « انني أرى العالم داخـل نفسي ولا املـك سوى الاسئلة ، واذ أكون وحيدا تعتريني أوهام جديدة ، سرية بعض الشيء ، تمنحني السلوى . العالم وهم وكذلك التأريخ » .

وفي هذه المنطقة الحرة حيث يفقد الشكل والمضمون أهميتهمـــا تفجؤك ، او لا تفتجؤك ، مقاطع في الرواية مثل :

« لقطة بعيدة : رجل يعود الى البحر ويختفي داخل غواصة .

شريط مسجل : ليس للحلم سماء العصفور .

لقطة قريبة : طقوس مغادرة الباص .

لقطة متوسطة : فتاة شقراء ترتدي ثوبا برتقاليا تحترف تدويـن المعادلات في جزيرة × .

ها هنا يكون للمعادلات سحر عند الانسان الذي لم يتعامل معهـا عن قرب . وتتخذ الاشياء العلمية بريقا خاصا ، ربما مقدسا : « عند ممر قسم الفيزياء في الكلية أوقفت صديقتي وقلت : انني أحبك » . واحيانا سرياليا : « « تاجر الروبيان السيد أشعة غاما كان المحقق الاول في القضية » » .

وتتخذ هذه اللغة العلمية والرياضية عند عبد الرحمن الربيعي بعدا طلسميا :

(س)

علامة استفهام واحدة .

الجدول + الماء + الشعر .

أمور كثيرة يجب ان تحدث (١) .

---

(١) أنظر بهذا كلمة السيد شفيق مقار بعنوان الحس بالعبث فـي عالم نجيب محفوظ المنشورة في مجلة « الاقلام العراقية » العدد ٩ سنة ١٩٧٢ .

وفي قصة لسعد داود بعنوان (رحـــلة باتجاه الاسهم) تفرض الارقام حضورها على نحو كابوسي : « في الليلة الماضيــة كان الحيز الذي تشغله الارقام الشهرية في ساعته ممتلئا بالماء (...) أصبــح الرقم ٩ باتجاه معاكس حيث اصطدم بالرقم ١٥ ومع هــــذا فالزمن ما زال مستمرا (...) وصل الرقم ٢٩ الى الرقم ٢٠ الذي كـــان يشكل مثلثا مفتقدا أحد أضلاعه فالتحق سريعاً رقم ٩ وكمل المثلث »

وفي مقطع آخر :

« قــالت هي :

ـ ألم تزل هنا ؟

اجابها : ـ لا أستطيع الذهاب ابعد .

نظرت اليه بزاوية ٤٥ :

ـ لا يهمني ان كنت تستطيع » .

وقد يتحذلق بعضهم فيطرح الاسئلة في سياق قصتــه على غرار أسئلة الامتحانات ، كما فعل محيي الدين زنكة في قصته (المـــوت سداسيا) حيث يقول :

س ١ : ما الذي يجري أيها الصديق ؟

س ٢ : لماذا تركض ؟

س ٣ : أين وجهتك ؟

سين ألف : أين تساقون ؟ ..؟ ..؟ .

سين مليون : أية قوة تسحب الارض من تحت أقدامكم ؟ » .

ويمزج أحمد ممو من تونس في قصته « الفضاء والزمن والبعد » بين مفهوم صراع الاجيال ونظرية النسبية التي تتناول العلاقة الجدلية بين الفضاء والزمن . فحين يكون الزمن ميتا يختل منطق الاشياء مثلما يكف الفضاء عن الامتداد في الزمن الساكن .

ويجرب ممو ان يستخدم فكرة النسبية ايضا في تقنية القصة ، وذلك بتغيير وضعية الاشخاص ، فينتقل بين الواقع والرمز وكأنــه ينتقل من بعد الى بعد . ولكن المشكلة عنـــده تبقى مشكلة كلمات . « ووجدت انه من التمثيل أن أراجع كل الكلمات التي نطقت بها والتي لم يقع تسجيلها » . ذلك ان الكلمات وحدها لا تسعف احيانا . ويبرز هذا الشعور بعجز الكلمات عند القاص محمد ابراهيم مبروك بشكـل صارخ ، فيلجأ الى ترك « مساحات صمت تتخلل الكلمات ، وهـي ليست فاصلا ، بل انها امتلاء غير مرئي لكل ما تعجز عنه اللغة المنطوقة بها » على حد قوله .

ويبحث جمعة اللامي عن الكلمات التي لم تكتب بعد . ولكنه في الحقيقة يبحث عن الشكل الذي لم يطرق بعد . وقد يوفق أحيانا في تطويع مضامين قصصه لتجاربه الشكلية ، كما حاول في قصتـــه (اهتمامات عراقية) ، حيث مزج التاريخ بالفولكلور وبقضايا الثورة المعاصرة على نحـو متداخل ومتقطع يذكرنا حينـا بالاسلوب السينمـائي وحينا آخر بأسلوب المسرح الملحمي او التسجيلي . ولكنه لا يفلح في أحيان أخرى الا بالقدر الذي يجعل من قصته لعبة شكلية طريفة ، كما فعل في قصة « الليل في غرفة الآنسة م » التي استعمل فيها الكــولاج (صورة لثديي امرأة) وكتب مقاطعها بخط يدوي وعلى شكل هندسي .

واخيرا ، فاذا كانت هذه الرغبة في تجاوز لغة القصة وفــي تخطي الطبيعة النوعية بالاشكال الادبية نابعة عن شعور بعجز الكلمـــة عن منافسة وسائل التعبير والتوصيل الجديدة ، كالصورة المتحركـة والصوت ، فيبدو انها سابقة لاوانها في مجتمع ما يزال ثلاثة اربـاع سكانه لا يعرف القراءة والكتابة .

بغداد

علي الشوك

الأديب العربي والثورة التكنولوجية

بقلم الدكتور أبو القاسم سعد الله

موضــــوع « الاديب العربي والثـورة التكنولوجية » هو أهم الموضوعات المقترحة في هذه الدورة من حياة الاتحاد . فلا دراســة الاتجاهات الادبيـة المعاصرة ولا مـوقف الادب العربي مـن الاستعمـار والصهيونية بجديدين في نظري . ونعتقد كما اعتقد الـذين اقترحوا هذا الموضوع ، أن الوقت قد حان للعناية بهذا الجـانب من الادب العربي . ذلك انه وسيلتنا الى معرفة مواقع أقدامنا امام تحديـات العصر . فاذا كان اديب العربي يرود في هذا الطريق فيجب ان نشعـر بالتفاؤل والاطمئنان على المستقبل ، واذا كان الاديب ما يزال يعيش في خيام التراث والميتافيزيقيا الشعرية فيجب علينا ان نتشاءم ونـدق ناقوس الخطر .

واعتقد ان الذين اقترحوا دراسة الاديب العربي والتكنولوجيـة كانوا يهدفون الى تحسس العلاقة بين العلم والادب ، او بين واقـع العالم الثالث وواقع العالم الاول . ولا شك ان التحديد الزمني لهذا الموضوع (النصف الثاني من القرن العشرين) يعني أشياء كثيرة عند العرب . فخلال العقدين الماضيين شهدت الامة العربية احداثا خطيرة في حياتها من ثورات سياسية ضد الاستعمار والنفوذ الاجنبي وتجارب فاشلة للوحدة الشاملة ، وهزائم متكررة على يد الصهاينة بالاضافـة الى محاولات داخلية للخروج من كابوس التخلف المتمثل في الاقطـاع والامية . وكل هذه الاحداث جعلت عددا من المفكرين العرب وبعض الملاحظين الاجانب ، يحكمون على ان سبب فشلنا في الداخل والخارج هو التخلف التقني وشيوع الخرافات والتقاليد البالية بيننا وضعف الايمان بالعلم . وباختصار كوننا لا نعيش عصرنا . فطرح موضوع الاديب والثورة التكنولوجية في هذا الظرف هو اذن محاولة لمعالجة هـذه المشكلة ودور الاديب ازاءها . ولكن هناك خطرا في معالجة هـذا الموضوع ، ذلك ان العنوان بصيغته الحاليـة يتناول موقف الاديب بالنسبة لقضايا المستقبل في مجتمعه . وهل هذا ممكن ؟ وهل مـن المفروض على الاديب أن يتنبأ بما سيحدث لامتـه في نهاية القرن العشرين ؟ او هو مقيد بثقافته ومحيطه الاجتماعي بحيث لا ينطلق اكثر من مد بصره ؟ ثم هل على الاديب ان يصف ويتناول الحاضر فقط او عليه ان يتمثل تراث حضارته ليخلق منها نماذج المستقبل ؟

هذه بعض الاسئلة التي خطرت لي وأنا أقلب هذا الموضوع على وجوهه . ويضاف الى ذلك سؤال آخر هو همزة الوصل : هل ان الامة العربية (أمة الاديب) قد دخلت فعلا عصر التكنولوجية حتى نـدرس العلاقة بين الاديب وبين هذه الظـاهرة التي تعتبر أهم ما أنتجت الحضارة الغربية ؟ ويبدو ان الذين طرحوا الموضوع أعلاه مؤمنون بأن الجواب على ذلك سيكون بالايجاب ، ولم يبق علينا سوى أن نبحث ونقيم دور الاديب ازاء هذه الظاهرة . وما دمت لا اشاطر هؤلاء رأيهم، فاني سأتناول الموضوع على أنه « امل » او « حلم » فقط وعلـى انه « تخطيط » لمستقبل قد يكون قريبا أو بعيدا . ذلك ان الامة العربية اذا ظلت على ما هي ، فلن تدخل في نظري عصر التقنية حتى فـي القرن الواحد والعشرين . تبقى قضية اخرى تحتاج الى جواب واضح، وهي هل من الممكن ان ينتج الاديب « ادبا تخييليا » مثل ما ينتج العلماء « علما تخييليا » ؟

حقا لقد شاهدنا كثيرا من النوع الاخير قد اصبح واقعا كصنع الطيران وغزو الفضاء ، والوصول الى القمر ، ولكن هل في امكان الاديب ان يخطط لمجتمعه بعد ثلاثين سنة مثلا فيتصوره مجتمعا موحدا عقلانيا مبدعا متمتعا مسيطرا على كل المخترعات العلمية مضيفا اليهـا تجاربه الذاتية ؟ وبعبارة اكثر وضوحا : هل الاديب العربي في النصف الثاني من القرن العشرين اديب واصف أو موجه رائد في البحث عن مستقبل افضل او داعية تغيير في حاضره البائس ؟ من الواضح ان الذين طرحوا هذه المشكلة لم يتوقعوا كل هذه التساؤلات .

ولكي نتمكن من درس هذا الموضوع بشيء من الاستيعاب والعناية التي يحتاجها رأينا ان ندرسه من هذه الزوايا : الاديب امام مشكل التراث ، والمحيط السياسي والاجتماعي للادب ، بوادر الاتجـاه العلمي في المجتمع العربي الحديث ، علاقة الاديب العربي بالتقنية المعاصرة ، ثم الاديب والاتجاه التقني لامته .

ففي الوقت الذي يتحدث فيه أدباء العالم الاول والثاني عـن « عصر ما بعد الحضارة » ما زال الاديب العربي يبحث عن نفسه فـي مجموعة من التقاليد والاساطير والآثار التي نسميها التراث . والواقع ان التراث العربي الاسلامي غني بنفسه وبتجارب الشعوب التـي اعتنقت الحضارة العربية الاسلامية ، ورغم أن العقل العربي يميـل بطبعه الى الشعرية والعاطفية والخطابية فانه أنتج ، ولا سيما في مرحلة صحوته الكبيرة روائع علميـة اضاءت لما نسميه اليـوم العالم الاول معالم الطريق عندما ابتدأ هذا العالم يكتشف نفسه كما نحاول نحن اليوم ان نكتشف أنفسنا . ولست بحاجة الى التذكير بالاعمال العلمية التي أبدعها عقل الرازي والبيروني وغيرهما . كما انني لست بحاجة الى التذكير بالتفتح الذي قام به هؤلاء وأمثالهم نحو حضارة الاغريق والهند والفرس وهي القضية التي ما زال يحلو لبعض أنصار

التراث التشكيك في فعاليتها .

ثم أعقب ذلك عصر من التدهور والهروب من مواجهة العـــلم والانكماش السياسي والديني والتقوقع داخل الحدود المعروفة « بدار الجهاد » في مقابل الجبهة الاخرى المعروفة « بدار الحرب » ، فمنذ الحروب الصليبية والعقل العربي في تقهقر مستمر بينما العقــــل الاوروبي في هجوم مطرد . وزاد الامر سوءا وقوع العرب سياسيـــا ودينيا تحت طائلة أقوام أشداء في الحرب لكن متخاذلين امام الانتاج الفكري ، ونعني بهم آل عثمان والمماليك ، يضاف اليهم ملوك الطوائف بالاندلس والامارات الانفصالية في المغرب والمشرق . ومنذئذ دخــل العقل العربي عصر الشعوذة والخرافات والسحر والقدرية والتصوف وسادت الطرقية والاقطاع .

ولم يكن الادب خلال تلك العصور كلها سوى صورة للمستــــوى الحضاري في العالم العربي والاسلامي . فعندما ازدهرت العـــلوم ونقل العرب من حضارات غيرهم وجدنا ادباء عمالقة كالمتنبي والجاحظ وابي تمام . لكـن تدهور العرب العلمـي و (السياسي) لـم ينتج سوى شعراء المدائح النبوية ، وادباء المحسنات البديعية امثال البوصيري وابن الوردي والمقرى . ولقد شاع عندنا في المغرب العربي خـــلال عهد الانحطاط الحضاري ادب الرحلات والتصوف والميتافيزيقيا ، وسيطرت الطرق الدينية سيطرة كاملة على عقول العامة . بينما سيطر الاجانب على مقاليد السياسة والتجارة والاقتصاد . وانعزل الادب عن وظيفته كمحرك لضمير الامة واصبح في خدمة الحكام للوصول الى منصب او جاه ، او في خدمة شيوخ الطرق .

وعندما واجه العرب اول تحد لهم من العلم الحديث متمثلا فـي حملة نابليون على الشرق وفي حملة شارل العاشر على الجزائر شعـر الرواد منهم بالهوة التي تفصلهم عن ماضيهم ، وكما انتجت النهضة الاروبية رجالا امثال ليوناردو دفنشي ، وروجي باكون ، وفرونسيست ، انتجت النهضة العربية رجالا كابن العنابي ، والطهطاوي وحمدان ، خوجة ، وحسن العطار ، وغيرهم ممن اخذوا بالعلم الاروبي فدعوا الى تقليد الاروبيين في اختراعاتهم للخروج من الظلام الذي كانت امتهم تتخبط فيه . وقد استجاب لهم بعض المسؤولين كمحمد علي بمصر والامير عبد القادر في الجزائر وخير الدين باشا في تونس ، ولكن هؤلاء الدعاة لم يكونوا أدباء بالمعنى التقليدي ، بل كانـــــوا اساسا رجال دين ثم تحولوا الى دعاة تجديد . اما الادباء المجددون فلم يكونوا قد ولدوا بعد . لقد ظلوا ينتظرون حوالي قرن منــــذ بداية النهضة . ولم يحتضن بعض الادباء قضايا امتهم والتعبير عـن آمالها في التقدم العلمي سوى في الفترة الواقعة بين الحربين ، ولكن حتى في هذه الفترة كان الادباء يمثلون طبقة اقطاعية بورجوازية أكثر مما كانوا يعكسون آمال الجماهير ، ذلك ان الاستعمار التقليدي لـم يسمح بالثقافة الا لعدد محظوظ من العائلات الكبيرة ، وقليل هــم اولئك الادباء الذيـن جاؤا من عائلات متواضعـة . غير انه يلاحظ على هذا العدد القليل انه سرعان ما اندمج في التيار الاجتماعي الـــذي كان يعتمد على اسس طبقية واضحة .

ونود ان نلاحظ انه خلال هذه المسيرة الطويلة من التراث العربي الاسلامي من جهة وتراث الحضارة الاروبيـــــة من جهة أخرى نجد أن العقل كان يسبق العاطفة او بتعبير اكثر دقة ان العلم كان يسبــق الادب فلم تزدهر الاداب العربية الاسلامية الا بعد تمثلها للانتاجـــات العلمية العالمية ،ولم تزدهر المذاهب الادبية الاوروبية الحديثة الا بعد مرور اروبا بثورات علمية على يدي غاليلي ونيوتن وكوبرنيكس ، وباستـــور وانشتاين واضرابهـــم ، وقد يكون من محض التكرار القول بان الادب العربي الحديث لم يصل الى المستوى العالمي لانه لايقوم على اسس علمية ، فالمجتمع العربي المعاصر ما يزال لسوء الحظ مجتمعا متخلفا يحكمه الاقطاع والبداوة والامية ، وبالتالي فهو ما زال بعيدا كـــل البعد عن العلم والتقنية .

ولكن في هذا المجتمع يتحرك الاديب ، وهو اليوم بين ثلاث قوى ضاغطة عليه بعنف ، وهي الامية تفصله عنه . ومن ثم فتأثيره في هذا المجتمع سيظل محدوداً . ان صوت الواعظ والسياسي وحتى المغني ينفذ الى دواخل الاسرة وطبقات الفلاحين وورشات العمل بينما يظل صوت الاديب في عزلة عن هذه الميادين . فالامية تجعل جمهور الاديب قلة من الناس لهم في الواقع غير الجمهور الذي يريد الحديث اليه والتعبير عن تطلعاته ، والقلة المحظوظة ثقافيا والتي قلنا انها اساسا اقطاعية بورجوازية هي التي يمكنها أن تفهم الاديب ولكن مصالحها ومصالحه متعارضة في اغلب الاحيان . وبالاضافه الى ذلك فان (النخبة) التي خلفت الاستعمار لدى شعوب العالم الثالث تعاني من مركبات متعددة ، فهي تعيش عالة على رصيد حضاري مستورد ، وهي مفصولة عن قاعدة الهرم الاجتماعي ، وهي تشن حربا على التعبير الحر والنقد السياسي ، وهي بالتالي تقوم على نظرة ضيقة في اساليب الحكم وتساعد الدكتاتوريين على خنق الحريات واقامة حكم مطلق . والعالم العربي اليوم واقع تحت وطأة هذه الظاهرة من الحكم . فمصادرة الرأي واصدار احكام النفي والسجن وادارة البلاد بدون مراعاة الحـــد الادنى من النظم السياسية والحريات المدنية ، كلها تجعل الاديب يعيش في دوامة من القلق والغربة والخوف ان ظل ينتج او في كابوس العزلة والنسيان ، ان فضل الصمت .

يضاف الى ذلك ان الاستعمار التقليدي لم يخرج من الوطـــن العربي حتى ارسى في قلبه قاعدة (اسرائيل) ينقض منها عـــلى الحركات التحررية ويراقب التطورات الداخلية في اجزاء هذا الوطن التي قد لا تكون في صالحه . وهذه القاعدة التي يقوم عليها الصهاينة لها مهمة واضحة في الوطن العربي ، فهي تخيف الحكام العرب وتجعلهم يحافظـون على كراسيهم ، ويستميتون في المحافظة عليهـا ، وهي تتدخل لحماية هؤلاء الحكام عند الحاجة ضد اي تيار تقدمي او وحدوي ، وهي تثير الرعب بوسائل العلم الحديثة والتقدم التقني ، فتجعل اي تحرك ضدها أمرا مستحيلا ولا طائل وراءه . والعرب الذين يبررون تنازلهم امام هذه القاعدة بدعوى الخوف من (الحرب الاليكترونية) هم واقعون تحت تأثير هذه الدعاية النفسية الخطيرة . وبدل ان يتجه الحكام العرب والنخبة العربية نحو العمل بنفس الوسائل يفضلون اللف والدوران وتخدير الجماهير باستحالة المواجهة ، وابعادها عـن مسرح الاحداث بمسليات بدائية كالتهريج وافلام الجنس .

وللمرء ان يتساءل : هل قام الاديب العربي بدوره نحو القضايا المطروحة على امته اليوم ؟ غير ان الاجابة لن تكون بالجملة . فنحـن نرى ان الاديب قد ادى دوره في بعض هذه القضايا مثل الاستعمار والامبريالية والصهيونية . حقيقة اننا قد نختلف على الطريقة والمستوى والعمق التي عالج بها الاديب هذه القضايا ، ولكن الذي لا ينكر هو ان المعالجة اخذت حقها على الاقل من ناحية الكم . اما القضايا الاخرى وهي لا تقل اهمية ، كمحاربة الحكام المنحرفين والدعوة الى العصرنة والتقنية والوقوف ضد الآفات الاجتماعية كالخرافات والامية والطبقية فدور الاديب ازاءها ضعيف .

وما دمنا نتناول هذه الزاوية ـ المحيط الاجتماعي والسياسي ـ فيجب أن نذكر ان هناك اتجاها في الوطن العربي يقف ضد المثقفين . كان الحكام الاقدمون يقربون اليهم « العلماء » ويسترشدون بهم او يشترون رضاهم وصمتهم . اما معظم حكام اليوم ، وهم في الغالــب نصف متعلمين او عسكريون بالمهنة ، أو مغامرون مدعون ، فانهــم يضطهدون الاديب والمثقف عامة ، ويشنون عليه حربا احيانا باســم الانقطاع عن القاعدة ، واحيانا بتهمة استيراد المبادىء ، وتارة يثيرون عليه طبقات الفلاحين والعمال بدعوى انه عنصر مشاغب ، واخـــرى يحرشون ضده رجال الدين بدعوى انه ملحد او عقلاني ...

* * *

ومن هنا اصبح الاديب يعيش في « استلابية » غريبة ، ولا يكاد يجد له مكانا فعالا في مجتمعه ، وهو يواجه المعوقات في كل مجال ينشده . هذا بالطبع اذا كان صاحب رسالة . فنحن هنا لا نتكلم عن « الادباء » او « المثقفين » الموالين والمداحين . ذلك ان هؤلاء يجدون في نفس المجتمع الحظوة والتمكين ، وحتى المكافأة بالجوائز ونحوها .

غير اننا ندرك ان الاديب العربي يجب ان ينطلق من واقع علمي. وهل هذا الواقع متوفر له ؟ فطالما ظل معظم الحكام العرب يخافون « التقدم العلمي » ويتعوذون من التقنية كما يتعوذون من الشيطان ، لا يمكن للاديب في نظرنا ان ينطلق في الاتجاه الصحيح . ذلك ان وطننا ما زال وطنا زراعيا ! والصناعة لم تدخله الا في شكل بدائي او هي ما تزال في ايدي الاجانب ، اما العلوم المحضة فما يزال تدريسها في بعض الجهات محرما ، وفي بعضها الاخر ما تزال محتشمة ، وفي اخرى تقليدية . فالمحيط الذي يتفاعل فيه الاديب ما زال غير علمي . فكيف نطلب منه ان يكون « علميا » في ادبه ، في لغته وفي تصوراته بينما هو يعيش بيئة تقليدية لا تؤمن بالعلم ولا تتعامل معه ؟.

ولنضرب مثلا على ذلك باللغة ، وهي بدون شك اداة الاديب الفعالة في نقل معارفه ومشاعره الى الاخرين . انها ما زالت تعاني من التحديدات العلمية ، والفقر في الالفاظ المستحدثة . وكثيرا ما يجد العلماء ، والادباء ايضا ، صعوبة في نقل افكارهم باداة واضحة محددة .

حقا ان اللغة العربية قد واجهت هجومات مضادة عنيفة ومغرضة في بعض الاحيان . فقد حاربها الاستعمار ليفرض لغته وحضارته بدلها وهذه وضعية معروفة في المغرب العربي ، ولا سيما في الجزائر . وطعن فيها بعض المستشرقين ليتوصلوا من خلال ذلك الى محاربة القرآن والاسلام عامة . وقد عانت اللغة العربية من عصور طويلة من الانحطاط الفكري والسياسي للامة العربية ، فكانت التركية هي لغة الحكم والدواوين في كثير من البلاد العربية ، بينما برزت اللهجات المحلية في الحياة اليومية في مناطق اخرى . وانحصرت لغة الثقافة في طائفة من القضاة والمفاتي وشيوخ الطرق وبعض المدرسين والشعراء التقليديين ، وحينما واجه العرب الاستعمار الحديث ثم الاستعمار الجديد والصهيونية وجدوا لغاتهم ما تزال تتخبط في التقاليد وتستمد قوتها من تراث حضاري جيد في ذاته لكنه غير متطور . واصبحت مسايرة الحضارة الحديثة هي شعار العصر . وقام المعارضون للعربية يدعون بانها ليست لغة علم وانما هي لغة ادب وشعر . وانها لغة غنية بالفاظ الابل والصيد والفروسية والغزل . ولكنها فقيرة في الفاظ الطب والصيدلة والفيزيا والكيميا والاختراعات الجديدة . وجاءت المجامع اللغوية لتعالج هذه القضية ، ولكن هذه المؤسسات اللغوية ما تزال بعيدة عن تلبية الحاجة الملحة والمستعجلة التي يواجهها الاديب والمثقف والطالب والاستاذ .

واذكر انه اثناء نقاش عن التعريب في الجزائر قد طرح سؤال محتواه : هل علينا ان نستعمل اللغة ثم نطورها ، او ننتظر اللغة حتى تتطور ثم نستعملها ؟ قد يبدو هذا السؤال ساذجا او غير وجيه. لكن القضية كانت مطروحة بحدة ، وكان على المعنيين ان يجيبوا عليه. فقد كان هناك تياران :

تيار يقول ان اللغة العربية لغة شعر وادب وليست لغة ادارة عصرية وعلوم حديثة تدرس على مستوى الجامعة وتستعمل في الابحاث العلمية . وان علينا « مؤقتا » ان نستعمل لغة اجنبية متطورة في المرحلة الحاضرة ثم نستعمل العربية عندما تصبح هي ايضا لغة علمية . ويدعي اصحاب هذا التيار ان الوقت ليس في صالحنا ، وان علينا ان نتطور بسرعة ، وان العربية على حالتها الراهنة لا تساعدنا على هذا التطور .

ويدعي التيار الثاني ان اللغة كائن حي ، وانها لكي تعيش يجب ان تستعمل ، وان انتظار تطورها يعني قتلا ثانيا لها . فاستعمالها في الجامعة وفي المصنع وفي الادارة كفيل بأن يجعلها تتطور بسرعة وتستجيب لحاجة المجتمع . وكان هناك نقاش حاد وحجج متضاربة .

ولكن اصحاب التيار الاخير يؤمنون ايضا بان اللغة لا يمكن ان تنمو منعزلة عن المجتمع . فعلى المجتمع الذي تنمو فيه ان يكون ايضا مجتمعا متطورا فحصر اللغة في الجامعة او في المدارس الثانوية لا يكفي لتطويرها . وعليه فانه اذا لم تدخل الثورة التكنولوجية الى المجتمع العربي (في المصانع والورش والمخابر ومراكز البحث العلمي الخ) فان اللغة العربية ستظل لا محالة لغة الشعور والخطابة وستبقى بعيدة كل البعد عن ميادين العلوم المحضة . ومن هنا اصبح تقدم اللغة مشروطا بالتقدم الاجتماعي . ولكن هل المجتمع العربي اليوم مجتمع متقدم مصنع ؟ طبعا لا ! وماذا يستطيع الاديب ان يفعل ازاء ثورة تكنولوجية موجودة في المجتمعات الاخرى ، لكنها مفقودة في مجتمعه ؟

ولكن الاديب العربي الذي يعاني من الاغتراب والاضطهاد السياسي والاجحاف الاجتماعي يشترك مع ادباء العالم الاول في عدة ظواهر . فالشكوى من العصر والآلة والاحساس بالاغتراب حتى مع توفر الشروط الحضارية اصبحت ظاهرة شائعة لدى ادباء اروبا وامريكا . فقد قال بعض الباحثين منهم « ان ادباء الغرب يشكون من احساسهم بالضياع عندما يكتبون قصة . فهم يعيشون بمشاعر معزولة ويحسون انهم محكوم عليهم ان يعيشوا ايضا في مناطق معزولة (كالقرى والمدن الصغيرة) او على هامش المدن الكبرى « وكلنا يعرف الثورة المعروفة باسم « الدادئزم » او رفض كل شيء على اساس انه مستعمل وقديم ومعروف . وهي ظاهرة الرفض لوحشية الحضارة الية التي جعلت الاديب يعيش غربة قاتلة واحساسا خانقا بالعزلة . ولكن الاديب العربي ، ولا سيما اديب ما بعد الخامس من جوان (حزيران) ١٩٦٧، لم يصل الى هذه الدرجة من الرفض ، غير انه يعاني هو الاخر عزلة من نوع آخر . بل لعله على الضد من ادباء الغرب اصبح يطالب بالدخول في عصر الآلة والالتجاء الى وحشية الحضارة لحل مشاكل امته الكثيرة . فهو يعلم مثلا ان تلك الهزيمة لم تحل بامته الا لانها كانت انسية اكثر مما ينبغي .

وهناك تيار في الوطن العربي يرفض التقنية بدعوى انها غير انسانية او بدعوى انها مستوردة . ويعتمد اصحاب هذا التيار على هبوط الاخلاق في المجتمعات المتحضرة ويستشهدون ايضا بضياع الشباب والادباء والفنانين في هذه المجتمعات . كما يستشهدون بمقالات وابحاث تندد بما وصلت اليه الحضارة الغربية من عنف ولا اخلاقية . ومقياس هؤلاء آراء شبنقلر في كتابه (تدهور الحضارة) وبعض آراء المؤرخ توينبي وغيرهما . غير ان هؤلاء ينسون ان شبنقلر وتوينبي وغيرهما لا يرفضون الحضارة في حد ذاتها . ولكنهم يرفضون بعض مظاهرها الدنيا ، ثم يحذرون مواطنيهم من مغبة ما هم صائرون اليه اذا لم يحافظوا على القيمة الاخلاقية للحضارة . فالعرب الذين يرفضون التحضر والتقنية استنادا الى هذه الدعاوي يخادعون انفسهم، لانه لا احد من مفكري الغرب قد رفض الحضارة كظاهرة من ظواهر تطور الفكر الانساني ، اذا استثنينا طبعا بعض الفوضويين ودعاة البدائية .

واذا كان هذا هو وضع الاديب العربي امام تراثه العلمي وامام مشاكل عصره وواقع امته ، فماذا سيكون موقفه نحو مستقبل هذه المشاكل ؟ هذا هو السؤال الذي سنحاول ان نجيب عنه بشيء من الايجاز . وقبل كل شيء سنقسم هذا الجزء من البحث الى شطرين : شطر يخص الاديب نفسه وشطر يخص مجتمعه .

ونبدأ بالشطر الذي يهم مجتمع الاديب . فالاديب لا يمكنه ان

ينتج الا اذا توفرت بعض الشروط الموضوعية ، ولعله من نافلة القول ان نكرر بان اول شرط هو توفر الحرية المطلقة للاديب . فكل قيد على حريته ، مهما كان شكله ، في القول وفي الرأي وفي الكتابة وهي التنقل هو هدم تلقيم التي نطالب الاديب على اساسها بالانتاج المساير لعصر الثورة التكنولوجية . واذا كانت المطالبة بالحرية قضية قديمة فانها في النصف الثاني من القرن العشرين قضية مستعجلة واكيدة . ويتصل بالحرية تحقيق الديموقراطية الاجتماعية والسياسية . فالحضانة الحقيقية للاديب وغيره من المواطنين توجد في النظام الديموقراطي . ومن الاسف ان معظم النظم العربية المعاصرة تطبق انواعا اخرى من اشكال الحكم باستثناء الديموقراطية . وتفاعل الاديب مع قضايا العصر والمجتمع في حاجة الى مشاركة جميع العناصر الاجتماعية في الوطن العربي ، ولكن ذلك لا يمكن ان يتحقق الا في جو من التفاعل العام الذي هو معنى الديموقراطية .

ولكي نتحقق الديموقراطية والحرية ، لا بد من القضاء على الاقطاع . ان هذه الظاهرة تشكل عقبة كاداء في طريق التطور والتقدم. ومن المعروف ان المجتمعات الاروبية المتطورة اليوم لم تصل الى ما هي عليه الا بعد ثورات دموية (فرنسا ، روسيا) للتخلص من الاقطاع وفتح عهد جديد من العلاقات الاجتماعية . وكذلك فعلت اليابان عندما عزمت على دخول عصر التصنيع والتقنية . بل وكذلك تفعل الصين اليوم . حقا ان بعض البلاد العربية قد اتخذت خطوات في هذا السبيل ، ولكنها ما زالت تمر بمرحلة الخطر التي لن تسلم من الهزات وربما النكسات . ودور الاديب في عدم الاقطاع لا يقل اهمية عن دور العامل والفلاح . بل ربما فاقهما نظرا للوعي الذي يتمتع به دونهما .

ويتصل بهذه النقطة نشر التعليم في جميع مراحله ، وجعله ديموقراطيا يعم سائر طبقات الشعب ويفتح المجال امام المواهب الخفية ، ويجب الالحاح هنا على تعليم المرأة ايضا . فالمجتمع العربي في عصر التقدم العلمي الباهر لم يعد يستطيع الاستغناء عن مشاركة المرأة في القطاعات الحيوية . ونعتقد انه قد مضى ذلك الزمن الذي كانت فيه المرأة مجرد موضوع للاديب فيها يتغزل وبها يلهو وينتهي دورها عنده وعند مواطنيه بانطباق اربعة جدران عليها . فاديب الثورة التكنولوجية عليه ان يغير نظرته الى المرأة فيعتبرها رفيقة له في طريق التقدم الاجتماعي بدل اعتبارها اداة للهو والمجون .

واذا كانت المدرسة الجديدة هي التي ستخلق لنا الاديب الجديد ، فان الجامعة هي التي تكوّن هذا الاديب تكوينا ادبيا وعلميا في نفس الوقت . وقد يكون في هذا القول بعض التناقض لان الجمع بين العلم والادب يكاد يكون مرفوضا عند الذين ما يزالون ينظرون الى الاديب على انه الشخص الذي لا يخضع لقواعد علمية او منطقية . غير اننا نطالب بضرورة التكوين العلمي للاديب ايضا بجعله يخضع للعقل الرياضي اذا صح التعبير . اليس هو الذي سيصف لنا المصنع والمخبر والطائرات والحافلات ، والدبابات ، والغواصات ، وسفن الفضاء وخارطة القمر في روايات وقصص ومسرحيات ، واشعار؟ حقا ان هذا يدخلنا في الحديث عن ثقافة الاديب المعاصر ، وهو حديث طويل وجدلي ولكن حسبنا هنا ان نؤكد ان « الثقافة العلمية » للاديب اصبحت لا غنى له عنها ، وانها من مستلزمات هذا العهد الجديد الذي نتحدث عنه ، وهو عهد الثورة التكنولوجية .

والحديث عن الجامعة حديث ، كما يقال ، ذو شجون . فهناك عدد ضخم من الجامعات العربية ، بعضها حديث العهد وبعضها قديم نسبيا تجاوز عمره الخمسين سنة . ولكن هذه الجامعات التي كنا نتوقع منها ان تكون مراكز للبحث العلمي المحض الذي يفتح امام المجتمع العربي مجالات الذرة ، والفضاء والتقنية بمختلف عناصرها ما زالت في الواقع دون المستوى ، بل لعلها لا تشعر بهذه الحاجة القومية . ان كثيرا من جامعاتنا تمنح الشهادات بالمجان ، وتكون اطارات غير ذات كفاءة ، وتعتمد التعليم المجرد والدروس النظرية وحشو امخاخ الطلاب بمواد مملاة للحفظ الاعمى لا ملقاة للتأمل والتطبيق ، وهي ما تزال عالة في اساتذتها وادواتها وحتى في لغتها على الاجانب ، وكثير من اساتذتها العرب قد تكونوا « بسرعة » في جامعات اجنبية وعادوا بالقاب ضخمة ولكن بمحتوى فارغ . لذلك فان كثيرا منهم قد توقفوا عن الانتاج منذ ان دخلوا الحرم الجامعي ، بينما المفروض ان يكون دخولهم لهذا الحرم نقطة الانطلاق في الانتاج المنظم الهادف الخلاق ، حقا ان هناك ظروفا تخرج عن طاقاتهم كانعدام الوسائل وضعف المقابل المادي ، وقلة الاهتمام بالابحاث العلمية في مجتمعاتنا ، ولكن المسؤولية ستظل بالدرجة الاولى على عاتق هؤلاء ، وقد يتساءل البعض عن دور الاديب في هذا كله ، لكن الواقع انه هو انتاج هذه البيئة التي عليه ان يشارك في تغييرها لصالحه وبالتالي لصالح الجميع .

وتستطيع أجهزة الاعلام ان تلعب دورا هاما في خلق المناخ العلمي في المجتمع العربي ، وهو المناخ الذي سيتفاعل معه اديب الثورة التكنولوجية ، فالتلفزة والافلام والاذاعة والصحافة وغيرها أصبحت وسائل مباشرة لنقل المعارف وبث التوعية لدى الجماهير وازالة الحواجز بين اللغات والثقافات المعاصرة . وهي في الواقع تمهد الطريق لاتصال الاديب مع جمهوره ، لا سيما اذا اعتبرنا شركات النشر والتوزيع الحديثة من وسائل الاعلام ايضا . حقا ان بعضهم قد رأى مهمة الاديب الحق تتمثل في دفاعه عن « الثقافة ضد بربرية وسائل الاعلام الحديثة » . ولكن الواقع ان هذا يصدق على أديب الغرب الذي وصل مجتمعه حد التخمة العلمية وسيطرت عنده وسائل الاعلام (والاعلانات ايضا) سيطرة مخيفة على العقلية العامة . اما الاديب العربي فما تزال وسائل الاعلام في وطنه ، رغم تقدمها ، متخلفة وهي اداة نقل لا اداة خلق . وعلى كل فنحن نعتقد انها تقوم في هذه المرحلة بخدمات جلى للاديب نفسه وتوصيل صوته الى الجمهور .

ولكي نخلق هذا الجو العلمي في الوطن العربي علينا ان نهتم بعدة اشياء اخرى كالترجمة . ونعني بالترجمة هنا ترجمة الكتب والآثار العلمية بدل الادبية . فاهتمام مترجمينا حتى الآن ينصب على الكتب الادبية من روايات وقصص ونحوها ، او على الكتب السياسية والاجتماعية ذات الطابع المثير كالثورات وأدوار بعض الشخصيات المغامرة ، او على الكتب الجنسية والبوليسية الخ .. حقا ان بعض الجامعات تلجأ الى الترجمة ، وهي تلك التي بدات تجربة التعريب ، ولكن معظم جامعاتنا ما زالت تدرّس بلغات أجنبية بطريقة مباشرة . ونعتقد ان وضع برنامج لترجمة أهم الكتب العلمية التي تصدر في الدول المتقدمة ولنضف اليها ما يسمى بالقصص العلمية المتخيلة ، سيحدث ثورة فكرية في الوطن العربي ، وستكون هذه الثورة مادة خصبة يستغلها الاديب وتجعله يغير من مقاييسه التقليدية.

وهناك نقطتان متصلتان بهذا الموضوع هما اصدار المجلات المتخصصة في العلوم والاختراعات الحديثة ، وفتح حوار متصل مع الثقافات الاجنبية . انني لا أنكر هنا الجهود التي تبذلها بعض الجهات في نشر مجلات علمية ، لكني على يقين من ان هذه الجهات نفسها لا تنكر أن ما تقوم به يعتبر جهدا « متواضعا » جدا ، وانه ليس في مستوى المرحلة التي نريد دخولها ، والتي نطلب من الاديب ان يتمثلها. ودعني أطلب هنا من المجلات الادبية نفسها ان تصدر أعدادا خاصة بالموضوع الذي نتناوله وهو الاديب والثورة التكنولوجية ، انها بلا شك ستساهم بذلك في احداث حركة تنوير عامة ، وفي اشعار الاديب بأن هناك قضايا اخرى عالمية تشغل أذهان قرائه . اما الحوار

مع الثقافات الاخرى فيفتح أمام الاديب مجالات بكرا وتخرجه من العزلة التي يفرضها بعضهم عليه باسم التراث وباسم الخوف على « عقله الصغير » من مرض الايديولوجيات الاجنبية ، ونحو ذلك .

ولكن اكبر عمل يمكن ان يتحقق ويثري تجربة الاديب العربي ، ويفتح امامه آفاقا لا حدود لها في المستقبل هو تحقيق الوحدة العربية. ان الادباء سيظلون في نظري أسرى الاقليمية وأسرى النظم السياسية ذات النظرة الضيقة ، واسرى الدكتاتوريات التي يساندها الاقطاع والخرافات الدينية ، ما لم تتحقق الوحدة الشاملة للوطن العربي . وبالاضافة الى ذلك فان هناك امكانيات ضخمة بشرية وطبيعية واقتصادية ستجعل الثورة التكنولوجية في بلادنا لا حلما نسعى لتحقيقه ، ولكن تجربة نمارسها ونعايشها . ولذلك فان دور الاديب في العمل على تحقيق الوحدة يجب ان لا يقل عن دوره في العمل على تحقيق التقنية والنهوض بأمته صناعيا . ويجب ان نحذر بأن كل محاولات التقنية ستظل جزئيه وقليلة انفعالية ما لم تكن في ظل وحدة عربية شاملة .

ولعله أصبح من الواضح بعد ما سبق ان الاديب ليس هو الذي يخلق التقنية ، ولكنه هو الذي يهيىء الجو لسيادتها وتحبيب الناس فيها ، فالاديب هو انتاج التقنية وليس منتجا لها ، ورسالته تتمثل في نظري في التبشير لهذا العصر الذي تسود فيه الوسائل العلمية الحديثة وتصبح امته فيه تسيطر على قوى الطبيعة بقوى العقل ، وتساهم مع الركب المتحضر في دفع عجلة التقدم الانساني .

واكبر خدمة يقدمها الاديب لامته في عصر التقنية هي حربه ضد الشعوذة والخرافات ، والقدرية والتواكل وغيرها من مظاهر التخلف، فقد مكنت القرون السابقة الى هذه العناصر انهدامة ، واصبح الفرد العربي خلالها لا يؤمن بنفسه وتكن بقوى خارقة وغيبيات وميتافيزيقيات ، وزاد الاستعمار الحديث هذه العناصر تمكينا لانها تساعد على الاستغلال المطلق لخيرات الشعب . والادهى هو ان بعض النظم العربية المعاصرة ما زالت تبقي على هذه العناصر الخطيرة لا ايمانا بها ، ولكن لانها تنوم الشعب وتلهيه عن قضاياه المصيرية . وأعتقد ان مهمة الاديب هنا على جانب كبير من الخطورة . فلكي ندخل عصر التقنية لا بد من محاربة هذه الآفات عن طريق الادب ، وذلك بخلق أدب عقلاني هادف متفتح .

وهناك آفات أخرى تتعلق بالادب نفسه . فادبنا ما زال يئن تحت وطأة الخيام والصحارى والفردية وغيرها من مظاهر البداوة . كما انه لم يتحرر من روح الخلاعة والمجون ، وهي ايضا تقاليد موروثة عن العصور التي ساد فيها الانحطاط السياسي والاجتماعي وسادت فيها حضارات أخرى غير الحضارة العربية الحقة . والاديب اليوم مطالب بالثورة على هذه الظواهر الدنيا في مجتمعنا واستبدالها بطاقات خيرة جديدة تتيح للعقل العربي ان ينمو وينطلق في مجالات الانتاج الحضاري القائمة على المشاركة والجماعيه والايجابية . والشعوب التي ابتليت بالاستعمار المباشر ، تدرك ان مفكريه (الاستعمار) قد وضعوا كل امكانياتهم المادية والمعنوية لتفتيت الطاقة البشرية بوسائل اللهو والخلاعة والكحول ، والعزلة في الجبال والفيافي ، وتشجيع الخلافات والقبليات والمطامح الشخصية ، ولا نعتقد ان اعداء الامة العربية قد انتهوا . فما نشاهده في مجتمعاتنا من روح الاستسلام والخوف ومن الافلام والمجلات المنحطة ، ومن حيرة شبابنا وقلقهم ، ومن توجيه نحو النظريات والبيزنطيات والابتعاد عن العلوم الحية والعملية ، كلها في نظري مظاهر لتدخل أعدائنا غير المباشر في حياتنا اليومية ، ولذلك فان رسالة الاديب العربي في محاربة ما أسميناه بالخلاعة والقدرية وغيرها ، تكتسي أهمية خاصة في وقت نطمح فيه الى النهوض على اساس علمي سليم .

وبعد فان موضوع « الاديب والثورة التكنولوجية » يعتبر في نظري قد جاء في الوقت المناسب ، بل لعله قد تأخر عن وقته . فقد كان علينا أن نعالجه ونهتم بأبعاده القومية والدولية منذ أمد طويل وها نحن نشاهد اليوم أجهزة التعبير في العالم المتقدم تتحدث عن القرن الواحد والعشرين ومواجهة مشاكله العقلية والعاطفية للانسان. وما زلنا نحن نهتم ببقية القرن العشرين ، وربما لم نكن على استعداد لمواجهة هذه المرحلة من جميع الوجوه . ذلك ان الشعور بأهمية هذه المرحله لا يكفي ، ونعتقد ان امكانيات الامة العربية لم تستغل كلها بعد في هذا الاتجاه ـ الاتجاه العلمي . كما نعتقد ان الاديب العربي ، رغم ما يعانيه من اضطهاد وعزلة ، ما زال بعيدا عن تلبية حاجات هذه المرحله ، لا في روحه ولا في تعابيره ولا في ثقافته الاساسية .

ولكن هذا لا يمنعنا في الختام من أن نركز على بعض النقط واولها ان الفكر العربي عامه والادب خاصة ما زال دون مستوى الثورة التكنولوجية .

وثانيها ان المجتمع العربي ما زال يعاني من مخلفات الماضي وقيود الحاضر ولم يواجه بعد عصر التقنية بجد رغم الهزات التي عرفها ، بل الهزائم التي جربها في اكثر من مناسبة . وهذا راجع الى ضعف العقلية العلميه لدى قادة الرأي في الوطن العربي وبالتالي ضعف الوعي بالعصر لدى الجماهير .

وثالثها أنه لكي نطالب الاديب بانتاج يواكب حاجات النصف الثاني من القرن العشرين علينا ان نطالب الاجهزة الاخرى في الوطن العربي بتطوير اللغة حتى تصبح لغة علمية ، وتوفير وسائل البحث العلمي في مستوى الجامعات وغيرها ، ورفع القيود على الرأي والتعبير فلا يمكن أن يبدأ الاديب ثورة تقنية ولكن عليه أن يتمثلها .

ورابعها اننا نعتقد ان أهم حادث يساعد على دخول العربي عصر التقنية هو تحقيق الوحدة الشاملة . فالى جانب الضعف الذي نتسم به الاقاليم العربية متفرقة ، هناك تفاوت في مستوى التقدم الحضاري ، ولكن تحقيق الوحدة العربية سيجعل من ذلك الضعف قوة وسيجعل التفاوت الحضاري تكاملا في سبيل النهضة العلمية ، وسأظل متشائما نحو مصير التقنية (التي هي مظهر من مظاهر القوة) في بلادنا اذا ظلت الاوضاع فيها على النحو الذي نشاهده من التنافر والتشتت والضعف .

وأحسب اننا في غنى عن الدخول في متاهات فلسفيه عن اثر التقنية على الانسان . ان بعضهم يتخوف من أن التقنية ستذهب بالايمان وتفتح المجال امام سيادة العقل وحده . وبعضهم يتخوف من أن الانسان قد أصبح آله في البلدان التي نسميها متقدمة ، وانه قد أصبح شقيا اكثر منه سعيداً بدل ان يحدث العكس ، نتيجة التقدم الآلي ، بل ان آخرين يحذرون من أن الدخول في عصر التقنية سيجعل الشعوب تتخلى عن خصائصها القومية ، وتتجه نحو التفكير العالمي الذي يهم الانسان أينما كان . وهناك آخرون يثيرون قضية طغيان العلم على الادب وطغيان المادة على الروح (الدين) ، غير اننا اذ نذكر ان هذه التخوفات يجب أن لا نوليها أهمية كبيرة لانها صادرة عن قوم بلغوا شأوا عظيما في الحضارة وأصبحوا يتحسسون مواقع أقدامهم ازاء دوي المدافع ورجات التجارب الذرية فاستبد بهم الخوف من الحرب العالمية الثالثة وتخريب الانسان لمنتجاته الحضارية . اما نحن فما نزال في الواقع حقل تجارب لهؤلاء المتخوفين من التقدم العلمي . لذلك فليس علينا من حرج ان نرحب بالتقدم العلمي وان ندعو كل العناصر الحية في الوطن العربي ، وعلى رأسهم الاديب ، الى تبني هذا الموقف انقاذا لامتهم من براثن التخلف والعمل على جعل وطنهم لا حقل تجارب علمية لغيرهم ولكن مصنع انتاج حضاري لانفسهم ولاطفالهم .

الجزائر **أبو القاسم سعد الله**

فن المسرح في لبنان

تابع المنشور على الصفحة – ٣٦ –

اشمل ما يمكن ان يكون ، وعلى اعمق ما يمكن ان يتوصل . اقصد بذلك ان الاختبار في التيار الاختباري لا يتوقف على التفتيش المهني عن اشكال جديدة . بل يقصد اول ما يقصد الى اكتشاف المعطيات الاجتماعية والتاريخية والنفسية للبيئة التي يعيش فيها ، ثم يسعى من ضمن هذه المعطيات الى ايجاد الاشكال الفنية الملائمة لها . ومن هنا يتوجه اهتمامه الى البحث في العمارة المسرحية كمكان ملائم لتبليغ المحتوى ، وفي الاخراج كوسيلة ممكنة لاتصال اعمق مع الجمهور وفي طرق الاداء كأساليب مؤتية للتعبير عن الرسالة الاجتماعية التي يؤديها المسرحي الى مجتمعه وبيئته .

وخلاصة القول أن التأليف ، ككل عمل فني ، يجب ان تكون له وحدة عضوية لا يمكن ان يكفلها الا المؤلف الواحد .

فكل خلق ينبغي ان يكون مسؤولا عنه انسان واحد في اخر المطاف هو الفنان المبدع واذا تعدد المبدعون المشاركون في الخلق الفني الواحد قام التنافر بين الاساليب ، والتضارب في وجهات النظر ، وتم التباعد بين الشكل المتعدد الالوان والمضمون الذي ينبغي ان يرتكز على فكرة اساسية واحدة .

في سبيل هذا التأليف العضوي بين الشكل والمضمون قام التيار الاختباري في لبنان . فما هو هذا التيار وما هي نظرته الى العمل المسرحي ؟

الواقع اننا اذا استثنينا المسرح التقليدي الذي يسميه اصحابه المسرح الشعبي ، نرى ان جميع التيارات المسرحية الاخرى في لبنان تعتمد على شيء من الاختبار والتجريب ، الا ان التيار الاختباري يختلف عنها في انه يعتمد التجريب كوسيلة علمية للاكتشاف على اشمل ما يمكن ان يكون . وعلى اعمق ما يمكن ان يتوصل . اقصد بذلك ان الاختبار في التيار الاختباري لا يتوقف على التفتيش المهني عن اشكال جديدة . بل يقصد اول ما يقصد الى اكتشاف المعطيات الاجتماعية والتاريخية والنفسية للبيئة التي يعيش فيها ، ثم يسعى من ضمن هذه المعطيات الى ايجاد الاشكال الفنية الملائمة لها . ومن هنا يتوجه اهتمامه الى البحث في العمارة المسرحية كمكان ملائم لتبليغ المحتوى ، وفي الاخراج كوسيلة ممكنة لاتصال اعمق مع الجمهور ، وفي طرق الاداء كأساليب مؤتية للتعبير عن الرسالة الاجتماعية التي يؤديها المسرحي الى مجتمعه وبيئته .

والواقع أن هذا التيار يستطيع ان يستوعب التيارات الاخرى ضمن نطاق التفتيش عن الاصالة التي يسعى اليها . فهو يتسع للارتجال كوسيلة ممكنة من وسائل اعداد الممثل وتهيئته نفسيا للاتحاد مع النص : كما يتسع للتيار الشكلي كوسيلة لتمرين جسد الممثل واكسابه ما يتطلبه الدور من خفة ومرونة ، كما يتسع لمبادىء المسرح السياسي وطرفه . كل ذلك في سبيل الاختبار والتمرين والاعداد .

الا ان الغاية القصوى التي يفرضها التيار الاختباري على نفسه هي التوصل الى الاصالة العميقة ، الاصالة الحقيقية التي تضع الفنان في اتصال لصيق بروحية جمهوره ، وحاجات هذا الجمهور ، وتمكنه من التعبير عنها بعمق وصدق . ولا شك ان التيار الاختباري في المسرح هو تيار عالمي بلغ ذروته مع غروتوفسكي ، الا ان الطرق التي يعتمدها غروتوفسكي نفسه مستمدة من اصول شرقية عريقة هي اصول الطريقة الصوفية التي ترمي الى الاتحاد المطلق بين الانسان والطبيعة والذات القصوى اي الله . والتمارين التي يخضع لها غروتوفسكي ممثليه ، هي تمارين الصوفيين على الصعيدين الجسدي والنفسي .

هكذا يتلقى التيار الاختباري مع حضارة شعبنا وتراثنا التاريخي والروحي ، وبامكان هذا التيار اذا تعمق اكثر فاكثر في اصوله الشرقية ، أن يبرز من نافذة المسرح كوجه اصيل لفنوننا العربية ، وهو المهيأ لان يولد المسرح العربي المتميز .

الا ان الخطورة فيه هي خطورة الاكتفاء ، اي الوقوف عند مرحلة التجريب من اجل التجريب ، فيغرق في الشكل دون التوصل الى المضمون .

تلك كانت لمحة عن اهم التيارات المسرحية في لبنان . ولا تزال الحركة في بدايتها . تلك البداية التي قيل انها لن تعمر طويلا اذ دخل المسرح الى لبنان – كما دخل الى معظم البلدان العربية – بعد انتشار السينما والتلفزيون ووسائل الاعلام السريعة . وقد كان الخطر على هذه البداية من طغيان السهولة والسرعة عليها من وسائل التعبير الاخرى . الا ان المسرح اللبناني ، على غرار اي مسرح عربي آخر ، استطاع أن يتجاوز مراحل هذا الخطر بكثير من الكفاءة وبثمن كثير من التضحيات . ولقد تم ذلك عن طريق التوصل الى مشاركة الجمهور ، وجعل الجمهور يعي حاجته الى هذا الفن . وقد اثبتت تجارب التاريخ ان الفن الذي يبنى على حاجات الجمهور لا يمكن ان تقضي عليه المصاعب والازمات . ان قدرة المسرح اللبناني والمسرح العربي على الاستمرار قائمة على نجاحه في تغذية هذه الحاجة الجماهيرية وتقويتها ، وتطوير حركتها ، وقد تم ذلك حتى الان بفضل مخرجين استطاعوا أن يخلقوا من حولهم حركة مسرحية اصيلة قائمة على فهم المسرح على انه خلق على الخشبة وليس مجرد كلمة شعرية او قصة تتوالى حوادثها . ان هؤلاء المخرجين الذين عني بعضهم بالتأليف أو بالتمثيل يشكلون الرواد الاول الذين قام على اكتافهم المسرح العربي الحديث ، وعليهم وعلى اخلافهم من الاجيال الطالعة ، يتوقف مستقبل المسرح وهو الفن الذي انتظره شعبنا طويلا وينتظر منه في المستقبل تعبيرا عميقا وقويا عن جميع ما يعانيه الانسان العربي .

بيروت **انطوان ملتقى**

حركـة الشعر العربي الحديث
بقية المنشور على الصفحة ـ ٢٢ـ

الحركة في واقعها الراهن

الذي يرصد شعر الحركة الحديثة في مسافها الاخير منذ حزيران المشؤوم وفي واقعها الراهن ، تطالعه الظواهر الثلاث التاليه :

١ ـ ظاهرة عودة الالتزام :

وهي الظاهرة التي يعبر عنها الشعر الذي انفجر في الارض المحتلة نتيجة شعور حفنة من الشبان بوطأة الظلم الطارىء الذي انصب عليهم، وعلى اثر تمادي اسرائيل في مزاولة عمليات القهر والاغتصاب والاستيطان ، ومحاولة محو الانتماء القومي لهؤلاء الشبان وجميع ابناء شعبهم ، مما خلف روح المقاومة عندهم ، وقد عبروا عن هذه الروح بقصائد غلبت عليها النزعة الواقعية التي سادت الشعر في الخمسينات متاثرين بالسياب في المرحلة الثانية من حياته وبالبياتي الذي كان زعيم الشعر الواقعي الجديد في تلك الفترة .

ثم جاءت هزيمة حزيران وما صحبها من وقوع الامة العربية وجميع جماهيرها في مهاوي اليأس ووهدات الانهيار ، فكان لذلك ردود فعل قوية في نفوس شعراء الارض المحتلة الذين شعروا كما لو ان القضية باتت تعنيهم وحدهم ، فهبوا وفي طليعتهم محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد ينظمون شعرا ذا نكهة خاصة اتخذ في الاغلب صورة الشعر الحر كما ظهر في العراق واغتنى بمثل مضامينه التي كانت سائدة يومذاك واكتسب صفات جديدة لعل ابرزها صدق التجربة وخصوصيتها والروح والصفاء اللذان يميزانها وبناء القصيدة على نسق الشعر الشعبي .

ويمكنني القول وأنا أتكلم عن الحركة في مسافها الزمني ورحلة تطورها ان شعر الالتزام عاد الى البروز مرة ثانية وحقق على ايدي اصحابه الجدد من ابناء فلسطين مهمة القيام بالدور الذي تفرض عليه المرحلة التاريخية ان يقوم به وهو ايقاظ الشعب الفلسطيني وتعميق وعيه على هويته الوطنية وابراز تراثه وملامحه الشخصية في شعر يرتفع عن مستوى العويل والصراخ والامتلاء بالحقد والنزعة الشوفينية ليصبح شعرا يتصل بالانسان ويتجاوز ارتباطه بقضيته القومية الخاصة الى الارتباط بقضايا البشر جميعا ويلتقي فيه وعي العقل والعاطفة معا ويستمد من العقيدة التي يؤمن بها ، وهي العقيدة الاشتراكية ، روح الامل والتفاؤل والمزاج المستبشر الدائم الذي يؤمن بيقين النصر في النهاية ايمانه بالحس التاريخي وانتصار عدالة الانسان فيه .

ومن هنا فان هذا الشعر قد قام بدور اللحن المواسي للجماهير العربية التي فقدت صوابها على اثر الكارثة ، وكان له صدى في شعراء نازحين آخرين التقوا معه في ما بشر به امثال وليد سيف ومعين بسيسو واحمد دحبور وخالد ابو خالد ومحمد القيسي ومي الصائغ وغيرهم .

٢ ـ ظاهرة الشعر التكاملي التجريبي :

الذي تطور اليه شعراء جيل الخمسينات انفسهم ، أدونيس وخليل حاوي وصلاح عبد الصبور وسعدي يوسف المتجاوز نفسه باستمرار ومحمد الفيتوري وعبد الوهاب البياتي وبلند الحيدري ومحمد سعيد الصكار وعبد الرزاق عبد الواحد وصلاح احمد ابراهيم ، في ما انتجوه من شعر في الآونة الاخيرة ، والشعراء الذين جاءوا بعدهم امثال ميشال سليمان ومهران اتسيد ومحمد عفيفي مطر ومحمود درويش في آخر انتاجه وخليل الخوري ومحمد ابو سنه وأمل دنقل وكامل ايوب وفؤاد رفقة الذين عاشوا مثل سابقيهم احداث ما بعد الستين وما رافقها من تناقضات أدت بهم الى هذا الاتجاه التكاملي الذي يأخذ فيه الشعر افضل ما في المدارس الاخرى فيعدل عن الشرح والتفسير ويتجه شأن الرمزيين نحو التركيز ، ويسرف في التصوير على طريقة شعراء المدرسة التصورية ويقترب من لغة الحياة اليومية ، ويستخدم النهج الاليوتي وهو التداعي الحر في المعاني والشرود الذهني وحشد الرموز والاشارات التاريخية والاسطورية المنوعة ، وتتمازج فيه عند بعضهم الرومنطيقية مع الواقعية والشعر السريالي بالشعر الوجودي ، ويغرق في الصوفية ويعاني صاحبه قضية مصيره كعربي ومصيره في الوقت نفسه كانسان محاولا تجاوز انتمائه السياسي المرحلي الى انتماء اوسع الى الاجيال كلها ، منتقلا في موضوعاته بين القضايا القومية والانسانية وقضايا الثورة والتحرير والالتزام واثارة مشاكل الوجود الميتافيزيقية كالموت والعبث والعدم والشعور بفقدان الجدوى وجهل المصير .

وكان أول من بدأ هذا النوع من الشعر المرحوم بدر شاكر السياب في المرحلة التموزية التي انفصل فيها عن الحزب الشيوعي ووثق علاقاته بجماعة مجلة « شعر » وكان في حينها يعاني التمزق بين التزام الابداع وتوظيفه للقضايا الوطنية ، ثم أعقبه الشعراء المذكورون سابقا الذين أعانتهم الظروف التي كانت تضطرب بها مجتمعاتهم على أن يسيروا في هذا الاتجاه ويعودوا منكفئين الى قاعدة الذات ويبحروا في باطنها منصرفين الى نوع من التجارب جديد يتسم بالطابع الفكري قوامه عند بعضهم : التعبير عن صراع الانسان في داخله وشعوره بالعبثية والبطلان ، ومواجهة الانهزام امام الواقع والهرب منه الى عالم متخيل موهوم ، وهو ما يبرز عند شعراء الرؤية الميتافيزيقية وشعراء الرفض الوجودي وشعراء الفن للفن .

وقوامه عند بعضهم الآخر الشعور بالتمزق بين تجربة العصر ويقظة الضمير ومعاناة قضية الحرية في عالم غير حر ، والاضطراب بين عوالم ثلاثة : عالم الشعر الفردي وعالم مجتمعه المحلي والعالم المعاصر ككل . وقد طغى في السنوات الاخيرة جماعة الفريق الاول الذين اصبح ادونيس قائدهم الى نوع من الشعر يسميه شعر التجاوز والتخطي او شعر التحول الذي يرفض الحياة السائدة ويعلن عن ارادة تغييرها، وينزل من فضاء اللامعقول ومتاهات الجنون حيث اختراع الطرق . وسأعرض للحديث عن هذا الشعر في كلامي على الظاهرة الثالثة وقبل ان انتقل الى ذلك أود أن ألفت الانتباه الى شاعر فذ ظلت له خصوصيته وظل على رغم اتخاذ شعره صورة الشعر الحر يغني خارج سربه باستقلالية تميزه عن الآخرين هو الشاعر نزار قباني .

لا نكران في ان نزارا قد يعاب في معظم قصائده بالرؤية الخارجية للاشياء وبخاصيتي الشكلية واللفظية وما اليهما من خصائص شعر ما بين الحربين ، الا ان احدا لا ينكر ان شعره مقتطع من لحم الحياة ومشتبك بتفاصيلها اليومية وانه ذو رسالة فيه تؤمن بشعبيته وباهمية ايصاله الى اكبر عدد ممكن من الناس ، ومن هنا هذا الالحاح عنده على عدم تجريده من طبيعة البشر وعلى عدم تقنيعه او الباسه مسوح الانبياء والحرص على نظمه هكذا بيّنا مكشوفا يقفز مباشرة الى القلب ويركض في دروب الحس .

٣ ـ ظاهرة الرفض والتمرد على جميع المدارس وعلى جميع الاشكال :

وهي الظاهرة التي حمل رايتها من سموا في العراق جيل الستينات أمثال فاضل العزاوي وصادق الصائغ وسركون بولص وسامي مهدي وفوزي كريم في بعض نتاجهما ، ثم علي جعفر العلاق ومن يمكن ان نسميهم في لبنان جيل السبعينات امثال سليم بركات وسمير الصايغ وسائر الذين تحتضنهم مجلة « مواقف » من ابناء العربية كعز الدين المناصرة ومحمد عبد الحي ومؤيد الراوي وكمال ابو ديب وهم فئة من الشبان فتحوا أعينهم على عصر الهزائم وذل الانكسارات وحقنوا بمصل الرفض الوجودي والادب اللاانتمائي والمواقف العبثية والنهلستية والرؤى التدميرية فطالعونا بمجموعة من القصائد متحصلة من كل هذا الذي ذكرته ، مضافا اليه تحويل القصيدة الى هذيان وحلم شاسع يتخطى مناطق النثر والذهنية الصارمة ويختلط فيه الشعر بالارقام بالنثر بالاعلانات وبالكلمات الاجنبية وبالملصقات وباستخدام اللغة القبيحة . واظلم بعضهم كحمزة عبود وشوقي بديع ومحمد العبد الله وشربل داغر اذا أصدرت الحكم عليهم بمثل هذه العجالة ، وقبل ان تتحدد ملامحهم تمام التحديد . ولذلك فانني اترك التحدث عنهم باسهاب الى وقت آخر لاشير الى سرب من ابناء جيلهم نشأ في الظروف نفسها التي نشأوا هم فيها ولكنه بعكسهم يتفادى ان يقع في تيار الرفض السلبي والتقليد الكسيح لصرعات الشعر الغربي وطلب التطور المفتعل تحت شعار التجاوز لكل نهائية او حتمية والرغبة في فتح آفاق اخرى وطرق تعبيرية جديدة ، ويخلق نتاجه مبرأ الى حد ما من فقدان التوازن بين الفكر والشكل الفني المستجد ، وينطلق من الواقع وحاجات الانسان ليقف الموقف المسؤول دون ان يفصل بين دوره كشاعر ودوره كانسان بحاجة الى اكتساب هويته الشخصية من واقعه الفردي وواقعه المحلي وواقعه العالمي وظروف المرحلة التاريخية التي تمر بها أمته وسائر الامم الراغبة في التحرر . أذكر من هؤلاء الشعراء العراقيين حسب الشيخ جعفر وخالد علي مصطفى ويوسف الصايغ ومالك المطلبي وحميد سعيد وعبد الكريم معله وحميد الحاقاني وموفق محمد وياسين طه الحافظ واللبنانيين حبيب صادق وحسن عبد الله ومحمد علي شمس الدين والسوريين علي كنعان ومحمد عمران وممدوح عدوان وفايز خضور والبحرينيين قاسم حداد وفيصل السعد وعلوي الهاشمي وعلي خليفة والمغربية مليكة العاصمي .

واني وأنا أختم هذه الدراسة لشاعر بأن الحاح الوقت عليّ بالسرعة في انجازها وحرصي على توسيع رقعة الموضوع صرفاني عن ذكر الشواهد واثبات التعليقات والمصادر والمراجع في الهوامش ، واوقعاني مرات كثيرة في الادلاء باحكام وتعميمات غير كافية مبرراتها ، وجعلاني في بعض الاحيان لا أزاوج بين التسجيل التاريخي للظواهر ومسحها خارجيا وبين تحليلها من داخلها تحليلاً فنيا وهو ما سوف استدركه في كتاب يصدر عما قريب ويتناول هذا الموضوع ويفصله على النحو الذي يضمن للقارىء فائدة اكبر من مطالعته .

بيروت **احمد أبو سعد**

من أجل نظرية في الانتاج الفكري

بقلم الدكتور حنفي بن عيسى

ان الثورة التقنية Technologique التي هي اهم مميزات النصف الثاني من القرن العشرين ، تستلزم من الاديب العربي ان يعيد النظر في العديد من المفاهيم الراسخة في الاذهان ، وان يؤمن بان التقنية التي نريدها للعالم العربي هي التي توفق بين الانسان المفكر Homo - Sapiens والانسان العامل المنتج Homo - Faber

ويطيب لي ان استشهد ببيت لابي الطيب المتنبي ربما يلخص الفكرة التي اعتمد عليها صاحب هذا المقال :

أعز مكان في الدنى سرج سابح وخير جليس في الحياة كتاب

وهي لعمري صورة رائعة لا يقوى على تصويرها الا فنان مقتدر ، وشاعر كبير من طراز المتنبي : تلك هي صورة الفارس الذي يقطع الفيافي والقفار على صهوة جواده الاصيل ، وصورة القارىء المنصرف الى كتابه ، لا يلتفت الى شيء سواه . فالجواد في هذا البيت رمز للزحف والفتح والعمل .. اما الكتاب فهو رمز للفكر الذي يبدد الظلمات .

ان العرب والمسلمين لم يرتفع لهم شان الا عندما حققوا الانسجام بين الفكر والعمل . وكان ذلك منذ اربعة عشر قرنا ، عندما نزلت الآية الكريمة التي تقول : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » . والعبرة التي نستخلصها من هذه الآيات ، ان استعمال القلم أساس الحضارة ، وان جميع أمم الارض لن يرتفع لها شان الا اذا انتقلت من مرحلة الرواية الى مرحلة التسجيل ، واتخذت الكتاب سلما للازدهار والرقي .

١ — المطالعة في المجتمع الحديث .

ظلت المسائل المتعلقة بالقراءة مدة طويلة من الزمان ، من اختصاص رجال التربية وحدهم ، لا ينازعهم فيها منازع . فهم الذين ما فتئوا ، سواء في الكتاتيب ، او في الزوايا ، او في المدارس الحديثة ، يعلمون الاطفال كيف يهجون الحروف وكيف يقرأون .. الا ان الاهتمام بمشكلة القراءة لم يعد في السنوات الاخيرة محصورا في نطاق المدرسة ، بعدما أصبحت المطالعة عنصرا فعالا من عناصر التقدم العلمي ، وسلاحا من اسلحة الثورة الثقافية ، واداة لا يمكن الاستغناء عنها للنهوض من كبوة التخلف ، واللحاق بركب الانسانية .

ومن جهة اخرى ، فان المطالعة ارتبطت اليوم بمفهوم المردود ، وبذلك اندرجت في اطار التنمية الاقتصادية للبلاد . فالانسان لا بد من ان يطالع بكثرة ، اذا شاء ان يكون من ابناء عصره ، والا ، فاته الركب .. ولكن المطالعة وحدها لا تكفي ، بل لا بد من ان يستفيد الانسان مما يطالع ، وان يضع في حسابه بان الجهود المصروفة في المطالعة ينبغي ان يقابلها مردود معين . ولهذا ، فان القراءة موضوع لا يهم رجال التربية والتعليم وحدهم ، بل يهم كذلك الكاتب الذي سوف يؤول به الامر الى اليأس والقنوط اذا لم يصادف من القراء حدا ادنى من الاقبال ... ويهم أيضا الناشر الذي لا بد من ان يدخل في حسابه ميول القراء ، واحتياجات البلاد ، وان يفكر في ازدهار مؤسسته وفي الحصول على قسط قليل او كثير من الربح ... ويهم كذلك مديري الشركات العامة والخاصة ، ورؤساء المصالح في الادارات والمؤسسات ، لان هؤلاء جميعا يعلمون أن الشعار الذي نادت به التربية الاسلامية وهو « اطلب العلم من المهد الى اللحد » ، هو اساس الازدهار ، وان ما يسمى اليوم في التربية الحديثة بالتربية المستمرة L'éducation permanente هو عماد المعاصرة وركيزة التقدم في هذه الحياة .

٢ — تصحيح بعض المفاهيم .

واذا كانت المطالعة بمثل هذه الاهمية لتقدم البلاد ، فانه يجدر بنا ان نصحح بعض المفاهيم التي لا تزال سائدة عندنا ، وبعض الافكار الخاطئة التي تزيف الثقافة وتسمها بميسم السطحية والتفاهة . ويبدو لي ان هناك خلطا بين ما يسميه البعض بالخلق والابداع ، وبين ما نسميه نحن بالانتاج الفكري .

وللاسف الشديد ما تزال الثقافة في بلادنا قائمة من حيث المنطلق ، على أفكار غيبية وعلى معتقدات خرافية لا أساس لها من الصحة . فلا يزال الاديب مثلا يستعمل عبارات توقع في الالتباس ، كالوحي ، والالهام والخلق والابداع ، وهي عبارات توهم القارىء ان الاديب من طينة أخرى غير طينة البشر ، وانه يشرف على هذا العالم الفاني من عليائه ، ويطل على عالم آخر هو عالم الابدية .

ولعل هذا الامر هو الذي دعا بعض الناس الى تشبيه الادباء ، وخاصة منهم الشعراء ، بالانبياء . وهذا ما نستشفه من قول احدهم في رثاء أبي الطيب :

هو في شعره نبي ولكن ظهرت معجزاته في المعاني

ولقد يقول البعض : لماذا تحذرنا من ادعاء النبوة في عصرنا ، ونحن نعلم ان سيدنا محمدا هو خاتم الانبياء ؟ فالى هؤلاء اقول بان ادعاء النبوة في عصرنا ، وان لم يكن صريحا ، الا انه يتخذ في مجال

الفكر طرائق قد لا يفطن لها الغافلون . والامثـلة على ذلك كثيرة ، منها عبادة الاشخاص ، والطرقية ، والتحيز للاراء والمذاهب مـن غير تمحيص . وقد اصبحنا نصادف في كل مكان ما يدعو الى هذا المذهب او ذاك ، وعبادة هذا الصنم او ذاك من اصنام الثقافة ، واتباع مـن يسمونهم أعلام الفكر ، وليس في وطاب بعض اولئك الاعـلام سوى الزيف والتضليل .

٣ ـ الاديب مظنة للسوء .

وهكذا فان تعاطي صناعة الادب والفكر مظنة للسوء ، لانها تتعلق بمجال خطير من مجالات الحياة ، وهو : وضع الانسان في الحاضر ، ومصيره في المستقبل . ولذلك فان الاديب قد تخول له نفسـه ان يتشبه بالانبياء ، وأن يدعي بأن له صلة بالغيب ، وانه يدرك ببصيرته ما لا يدركه الناس بأبصارهم .

ولا ينبغي ان ننسى ان الكلمة في نظر الناس مقدسة ، ولهـا أصل الهي ، فلا عجب أن ينسبوا اليها قوة لا تعدلها قوة ، وهي قوة السحر . وتعتقد العامة ان بعض الكلمات يمكن ان تؤثر في قـوى الغيب ، فاذا ما نطق بها الانسان ، أو كتبها ، أو وضعها في حرز ، فانها قد تشفي المريض ، او تحفظ من الشر ، او تيسر السبـل ، او تزيد المحبة او تحدث الكراهية .

وبما ان الاديب يتعامل بالكلمة ، فانه مظنـة للسوء ، لان تلك الكلمة سلاح رهيب يمكن ان يكشف به عن أمور قد تضر ابناء قومـه او تنفعهم . ولذلك فهو معرض لان تنزلق به القـدم في دروب الفكر الملتوية ، فيتاجر بالكلمة ، ويصبح مشعوذا كسائر الرقـاة او كتبة الحروز .

وقد حذر القرآن من هذا الموقف :

« وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا ، شياطين الانس والجن ، يوحي بعضهم الى بعض زخرف القـول غرورا ، ولو شاء ربك ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون » (١) .

ما الفرق اذن بين من يدجل على الناس بالحروز ، ومن يفتـري على الناس بالقول المزخرف والكلام المنمق ؟.. وهكذا نرى ان تسخير القلم في الافتراء وتزييف الحقائق لا يقل مضرة عن كتابـة الحروز ، وان الشعوذة وادعاء النبوة لا تختص بهما الشعوب البدائية ، بـل هي ظاهرة ملحوظة في الشعوب المتمدنة ايضا . واذهب الى ابعـد من هذا فاقول بان التدجيل في مجال الفكر يشكل اليوم خطرا جسيما على مستقبل الثقافة . ولـذلك قال الله تعالى في حق هـؤلاء المشعوذين :

« والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر انهم في كل واد يهيمون . وانهم يقولون ما لا يفعلون. الا الذين آمنوا، وعملوا الصالحات» (٢) .

ان الاديب الذي نريده اذن هو شخص عادي ، لا يوحى اليـه ، ولا يعلم الغيب ، وليس بملك من الملائكة عـلى أية حال . حتى ولو كانت له في ميادين الفصاحة والبيان ، سنحات ترفعه الـى منزلـة العظمـاء .

انه شخص لا يكتفي بتنميق الكلمات ، ورصف العبارات ، بـل يعمل « الصالحات » على حد تعبير الآية ، اي يشارك في بناء الوطن ، وينتج كما ينتج غيره من ابناء قومه .

٤ ـ نظرية في الانتاج الفكري .

ان ازدهار الثقافة في بلادنا مرهون بوضع نظرية في الانتـاج الفكري ، متجردة من الاعتقادات الغيبيـة الباطلة ، ومن الخرافات والاوهام التي علقت بالاذهان طوال عهود الانحطاط . وقد يكون مـن المفيد في هذا المقام ان نلتفت الى ماضينا المجيد ، لكي نستخلص منه بعض الآراء المفيدة لوضع نظرية سليمة في الانتاج الفكري . فقـد بين الاسلام ان الاسماء التي هي أدوات الانتاج الفكري انما هي توفيق من عند الله ، وليست ملكا لاحد من الناس . وخير من يمثل هذه النظرية من القدامى ، ابن فارس (توفي عام ٣٩٥ هـ ـ ١٠٠٤ م) ، اذ يقول : « ان لغة العرب توقيف » (٣) . ولقد يتوهم أحدنا ، اذ يجمع الكلمات بعضها مع بعض ، ويرصفها في جمل ، وينظمها في فقرات ، انه يقوم بعملية خلق وابـداع . فما أضل مسعـاه ! لان المسميات انما هي مخلوقات من عند الله ، وبالتالي ، فان الاسماء هي ايضا مخلوقات من عند الله . ومن ذلك قوله تعالى : « وعلم آدم الاسماء كلها » .

ان الاديب لا يبدع شيئا في عمله ، ولا يقوم بالخلق . والدليل على ذلك ان المادة التي يعتمد عليها ، وهي اللغة ، باسمائها وافعالها وحروفها ، وبما تحتوي عليه من فكر وتراث حافل بالقصص والاساطير والقصائد ، تلك اللغة موجودة قبل ان يوجد ، وقبل قيامه بمشروع الكتابة . فكيف يصح حينئذ ان نقول بانه خلاق مبدع ؟ وانما الخلق هو الايجاد من العدم . والاديب لا ينطلق في عمله من نقطة الصفر ، لانه يعتمد دائما على ما خلفه الاولون من تراث . ويضيف الى ذلـك التراث شيئا نسميه خلقا ولا ابداعا ، وانما هو انتاج من نوع خاص، نسميه الانتاج الفكري .

واذا ارتضينا لانفسنا نظرية الانتاج هذه ، واطرحنا نهائيا عبارات الوحي والالهام والخلق والابداع وما يختبىء وراءها من مغالطـات فادحة ، فاننا نستطيع حينئذ ان نعالج مشكلة الركود الثقافي بشيء من التفاؤل . وهذه النظرية تكاد تكون فيما أعتقد من البديهيات : فاكثر الناس يسلمون بأن خيرات الارض والثروات الطبيعية انما هي مـن نعم الله على عباده ، وليس لهؤلاء اي دخل في خلقها .. فلمـاذا لا نفترض كذلك ان اللغة من نعم الله على عباده ، وليس لاي واحـد منهم ، مهما أوتي من الفصـاحة والبيان ، اي نصيب في الخلق والابداع ، لان الله هو الذي « علم آدم الاسماء كلها » . فاذا كتب الانسان او ألف ، فانه لا يبدع ولا ياتي بما لم تات به الاوائـل ، على حد تعبير المعري (٤) ، بل يعتمد على ما خلفه الاولون من تراث حافل بالقصص والاساطير والقصائد والملاحم وما الى ذلك من فنـون البيان (٥) .

٥ ـ اللغة اداة انتاج .

ان اللغة بهذا الاعتبار ، ملك مشاع بين جميع افراد المجتمـع ، لانها ، كبقية الثروات الطبيعية ، من نعم الله ، فلا يجوز ان يختص بها قوم دون قوم . وبما ان الثروات الطبيعية مسخرة للانسـان ليستثمرها وينتفع بها ويزيد من دخلها عن طريق العمل المنتج ، فكذلك اللغة مسخرة للانسان ليتوصل بها الى قضاء مآربه المادية والمعنوية في هذه الحياة . فاللغة اذن انما هي اداة انتـاج ، كسائر الادوات المستعملة في الزراعة والصناعة والتجارة . والانسان اذ يكتب بهـا او يؤلف ، انما هو منتج كسائر العمال الآخرين المنتجين .

---

(١) سورة الانعام ـ الآية ١١٢ .

(٢) سورة الشعراء ـ الآيات ٢٢٤ ـ ٢٢٥ ـ ٢٢٦ ـ ٢٢٧ .

(٣) ابن فارس « الصاحبي في فقه اللغة العربية » ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ٣١ .

(٤) اشارة الى قول أبي العلاء المعري :

واني ، وان كنت الاخير زمانه   لآت بما لم تستطعه الاوائل

(٥) انظر في هذا الموضوع :

Pierre Macherey : « Pour une théorie de la Production littéraire » Maspero. Paris 1970P. 222 et 223

واذا كانت اللغة اداة انتاج ، وجب الا يحتكرها قوم يدعون بأنهم سدنتها وحماتها . فلكم رأينا هؤلاء يقفون بالمرصاد لكل من ينـــادي بالتجديد ، ويثور على الاساليب العتيقة التي أكل عليها الدهر وشرب!! بل قد تجد منهم من لا يتردد في رمي هؤلاء « الخارجين عن القانون » بالكفر والمروق . ومتى وصلت المسالة الى هذا الحد ، فان الانتاج يضعف ، وميدان الادب يقفر خوفا من هذه الفئة المحتكرة التي تدعي ان البيان ذهب ، وان اللسان العربي فسد ، وان الاجدر بالادباء ان يلازموا الصمت لركاكة أسلوبهم وضعف لغتهم واختلال تفكيرهم .

وقد حصل الاحتكار في عهد الاستعمار ، عندما استأثرت الخاصة بالثقافة والعلم ، وبقيت العامة من الناس تتخبط في ظلمات الجهل. فالامية لا تزال ــ رغم الاشواط البعيدة التي قطعتها الاقطار العربيــة في مضمار التقدم ــ لا تزال على رأس المشكـلات . ومن البديهي ان انتشار امية ينجم عنه هزال المطبوع من الكتاب ، لقلة القراء . ومــن المؤسف حقا ان تعاني الامة العربية التي تاتي في المرتبة الثامنة مــن حيث تعداد السكان في العالم ، من المؤسف ان تعاني أزمة قراء (٦) .

ولا يخفى على أحد ان هزال كمية المطبوع يؤدي الى ارتفاع كلفـة الانتاج ، وبالتالي الى غلاء الكتاب العربي ، مما يزهد القارىء في شرائه . غير ان الامر لا يقف عند هذا الحد ، لان انصراف الكـــاتب عن التأليف ، والقارىء عن المطالعة ، يؤدي الى نتيجة خطيرة ينبغي ان نحسب لها ألف حساب . وذلك ان رصيد الامة من الافكار يؤول به الامر الــى فقر مدقع ، اذ المفروض في هذا الرصيد ان يتجدد فــي كل جيل حتى لا ينفد . واذا كانت الدول تشعر بالقلق حين ينفــد رصيدها من الذهب في البنوك ، فما أجدرها ان تعلن حالة الطوارىء حين ينضب معينها من الافكار !

٦ ــ بين الانتاج الصناعي والانتاج الفكري .

ان الاديب الذي نريده اذن هو الاديب المنتج . ولكن المشكـــلة ان الاديب كان ــ ولا يزال ــ محتقرا ومستضعفا ، لان الناس يظنــون بأنه لا ينتج . ونستعمل كلمة الانتاج هنا بالمعنى المتعارف عليها لــدى العامة من الناس . فقد درج المجتمع على أن لا يقيم وزنا لما هو ناتج عن الجهد العضلي . اما الانتاج الفكري فليس فيــه كد ولا تعب ، ولا عرق جبين ، لان صاحبه قد يظل في بيته معتكفا ، فلا يدري أحد كم جاهد الفكرة المتأبية ، وكم تحايل على المعنى الشرود ، وكم سهـر الليالي حتى أشرق في ذهنه الحل المستعصي . فهو اذن انســـان لا يستطيع ان يقوم بأود عيشه ، بل يعيش في كنف غيره ، كما كان الامر في عهد الملوك والامراء ، وكما هو الشان اليوم في المجتمعـات البورجوازية التي لها أدباء يعيشون في ظلها وتحت رحمتها . المشكلة اذن بالنسبة الى الكاتب انه انسان يستهلك منتوجات الحضارة المادية، ولكنه لا ينتج شيئا ينتفع منه المجتمع في الحين ويسد به الحاجــة العاجلة . وحتى لو فرضنا انه وضع قلمه تحت تصرف ابناء قومه ، فسوف ينظر المجتمع اليه دائما بشيء من الاحتقار احيانا ، وبشيء من الشفقة احيانا اخرى . وبما ان انتاجه لا يخضع لتقلبات السوق ، خلافا لغيره من مواد الاستهلاك ، ولا يخضــــع ايضا لقانون العرض والطلب ، كما هو الشان بالنسبة الى المنتوجات الاخرى ، فان بضاعته بضاعة مزجاة ، وقيمتها تابعة لهوى المصادفة ، فتارة ينال الحظـــوة المرموقة لدى أحد الامراء ، وتارة يطرد شر طردة من مجلس أحــــد الاعيان ، وتارة تحدد له نسبة مئوية يتقاضى بموجبها ربحا يسيرا .

والادهى من كل هذا ان الاديب لا يستطيع ان يستهلك بضاعتــه التي انتجها . « فالاسكافي قد ينتفع من الاحذية التي صنعها ، اذا كانت من قياسه ، والمهندس المعماري قد يسكن في الــدار التــي بناها . » (٧) اما الاديب ، فليس له بعد الانتاج الا الصبر والانتظار، لان قصيدته او قصته تظل كل منهما في حكم العدم ، اذا بقيت حبرا على ورق ، وسطورا سوداء . ان انتاج الاديب في حاجة الى عمليـة لاحقة تخرجه من حيز العدم الى حيز الوجود ، وهذه العملية تسمى القراءة .

٧ ــ الانتاج الفكري لا يقيَّم بثمن .

والحقيقة أن الانتاج الفكري لا يمكن تقييمه بثمن ، لان العناصر المركبة له قد لا تظهر قيمتها الا بعد مرور اجيال ، فلا بد من دراسة الانتاج وتمحيصه واعادة النظر فيه المرة تلو المرة ، واثناء ذلك كـــله يكون الاديب قد فات ومات وأصبح نسيا منسيا . ولذلك فان قيمــة انتاجه عندما تحددها دار النشر ، لا يمكن ان تكون الا اعتبـــاطية وتقريبية . كيف السبيل مثلا الى تحديد عوامل الندرة والابتكـــار والسبق ؟ « ان الاثر الفكري اسمى من أن يكون بضاعة مادية » (٨) . فمواد الاستهلاك مثلا يمكن ان يستعـــان في صناعتها بالآلات الحديثة التي توفر على العامل كثيرا من الجهود . اما الاديب فلا يزال الــى حد اليوم يعتمد في توليده للمعاني ومعاناته للخبرة الفكرية على نفس الاساليب المضنية التي درج عليها الاوائل . والانتاج الصناعي ينسج على منوال واحد ، فكل نسخة ، وكل بضاعة ، شبيهة بأختها مــن غير زيادة ولا نقصان . اما في الانتـاج الفكري ، فان الفكرة تبعث دائما في ثوب قشيب ، وتظهر بوجه جديد . وكل فكرة فريدة فـــي نوعها . فمن يا ترى يستطيع ان يقدر هذه الامور كلها حق قدرها ؟

ان الاديب في كل هذه الحالات مهضوم الحقوق ، لانه يعلم ان انتاجه سوف يصبح بعد نصف قرن ملكا مشاعا ، وسوف يصير نهبا لدور النشر تستغله كيفما تشاء من غير حسيب ولا رقيب ، بدعـوى انه صار من التراث الانساني . وكم من اديب لم يعرف طوال حياته سوى البؤس والشقاء ، حتى اذا مات ، تحولت بضاعته الكاسدة في حياته ، الى كنز لا يفنى بالنسبة الى من يلبس مسوح الثقافـــة ويدعي انه نذر نفسه لخدمتها وان همه الوحيد هو احياء التراث !

بطبيعة الحال ، قد تجد من الادباء من يعزي نفسه ، معتقدا انه يكتب للمستقبل لا للحاضر ، وان الاجيال اللاحقة سوف تعرف قــدره وتمجد ذكره ، فينسيه ذلك ما يلاقيه من حرمان ، ويصادفه من اعراض على يد ابناء قومه المعاصرين له .. ولكن هذا العزاء للاسف الشديد لا يسمن ولا يغني من جوع .

٨ ــ هل يعيش الاديب على حساب المجتمع ؟

ما من شك اذن ان نشاط الاديب لا يفيد المجتمـــع في القريب العاجل ، وان بضاعته لا تستهلك في الحين وان نفعه قد لا يظهر الا على المدى البعيد . ولكن ، أيصح بعد هذا ، ان نقـول بان الاديب يعيش على حساب المجتمع ، وانه ليس من العمال المنتجين ؟

---

(٦) جاء في كتاب نشرته اليونسكو ان عدد السكان في العالم العربي يبلغ ١١٧،٢٧١،٠٠٠ عام ١٩٦٨ ، وان عدد المنخرطين فــي المدارس والمعاهد يبلغ ١٤،٣٩٦،٠٠٠ منهم ٤،٨٨٣،٠٠٠ مــن البنات . راجع : Apprendre à etre. - UNESCO Fayard 1972 pp. 315 - 317 et 320.

(٧) انظر في هذا الموضوع : J. P. Sartre : « Qu'est-ce-que la l'ettérature ? » Gallimard - Paris 1948, P. 52 et 53.

(٨) راجع مقال الاستاذ مصطفى الفارسي بعنوان « البلاد العربية وحقوق التأليف » في مجلة « الآداب » بيروت ، العدد الاول ١٩٧٢ ، كذلك في مجلة الفكر ، تونس ، العــدد الرابع ، جانفيي (تموز) ١٩٧٢ .

كلا ! لان الكتابة في حد ذاتها تعتبر عملا ، بل تعتبر دعوة الى العمل النافع للمجتمع . ان عمل الاديب يبدأ حين يشعر بان لديه كلمة تستحق ان تقال وان تنقل الى الغير مهما كلفه ذلك من تضحية . وهو اذ يتصدى لعمله ، يتخذ مسؤولية عظمى تجاه ابناء قومه وتجاه الاجيال اللاحقة : انه يتعهد بالكشف عن الواقع كما يشاهده ، بقصد تغيير ذلك الواقع ، وتجاوز الحاضر لبناء المستقبل . وهو لا يكتفي بالوصف وتسمية الاشياء باسمائها ، بل يعمل فكره في شؤون الحياة ، ويحلل ويقارن ويدعو بني قومه ، ولو عن طريق التورية والكناية ، الى الحوار والنقاش والاصلاح والتغيير .

٩ - انقطاع الصلة بين الكاتب والقارىء .

ان مشكلة المشاكل ان القراء اصبحوا اليوم مشغولين عن مطالعة ما ينتجه الكاتب . فالبعض منهم يقضي وقته في محو الامية عن نفسه وعن ذويه ممن حرمهم الاستعمار من نور العلم . والبعض الآخر منصرف لتدارك ما فات ، وملء الثغرات المتقطعة التي لم تتواصل على منوال واحد في زمن الاحتلال ... والبعض الآخر تراه مكبا على وجهه ليل نهار ، يحاول ان يستوعب ما يجد في عالم الابتكار من معلومات قد تفيده في مهنته او في ميدان تخصصه .. وحتى متخرجي الكليات ينقطع اكثرهم عن المطالعة بعد نيلهم الشهادة الجامعية . أضف الى ذلك كله ان الحياة أصبحت شديدة التعقد في كبريات المدن ، وان الفرد يجد نفسه مرهقا بالعمل الممل ، والمواصلات المتعبة ، والضجيج المهلك ، والجو الملوث بالدخان ، فاذا وصل الى بيته مكدودا ، فان مشاهدة التلفزة او الاستماع الى الاذاعة ، او قراءة الصحيفة ، ادعى الى الراحة ، واقل اجهادا للنفس من مطالعة الكتاب .

ان انقطاع الصلة بين الاديب والقارىء ظاهرة خطيرة لا بد ان يحسب لها حساب ، فلقد أتيح لي عشرات المرات ان اسال المترشحين للدخول الى المعاهد العليا عن مطالعاتهم ، والجواب الذي أسمعه في اكثر الاحيان ممن يشتغل منهم موظفا ان عمله المرهق لا يسمح له بالمطالعة ، وانه بالتالي لا يتذكر عنوان أي كتاب طالعه في الاعوام الاخيرة . اما الطلبة ، فجوابهم ان البرامج الدراسية تستغرق كل وقتهم ، فلا مجال للتفكير في المطالعة ، واذا صادف ان احدهم قد تصفح كتابا ، فانه قلما يتذكر اسم المؤلف . ويخيل اليّ ان المؤلف أصبح بالنسبة الى جمهور القراء شيئا ثانويا ، وان الاهم ليس هو المنتج بل الانتاج ، فلا حاجة اذن لتذكر اسم المؤلف . ومما يدل على ان الكاتب اصبح في المرتبة الثانية ، ان جمهور المتفرجين في قاعة السينما يهتم اولا بمعرفة اسماء الابطال ، واسم المخرج ، ولكنه قلما يلتفت الى اسم واضع القصة (٩) .

١٠ - التسرب في مجال الانتاج الفكري .

على ان انقطاع الصلة بين الكاتب والقارىء قد تترتب عليه نتيجة تشكل خطرا جسيما على مستقبل الثقافة ، ونعني بذلك ما يسميه البعض بالتسرب Déperdition في مجال الانتاج الفكري . والمقصود بالتسرب هنا هو انصراف الكاتب عن الانتاج ، على غرار تسرب التلميذ من المدرسة وانفصاله عنها وضياع الجهود والاموال التي بذلتها الدولة في سبيل تعليمه . ولا شك ان انصراف الكاتب عن الانتاج يعتبر خسارة عظمى حتى ولو استخدمته الدولة في مجال آخر ، كالتعليم او الادارة ، لان مكانه في عالم الفكر والثقافة سيظل شاغرا

(٩) راجع في هذا الموضوع :
J. P. SARTRE : Qu'est-ce que la littérature ?
op . cité , P. 294 .

باعتزاله الكتابة والتاليف . اما المنصب الذي صار يحتله في ميدان التعليم والادارة ، فما اكثر المترشحين له !

على ان الكاتب الذي « يتسرب » الى الادارة او التعليم ، تظل نفسه مع ذلك عالقة بدنيا الادب والفكر ، لان الانسان مهما تقلبت به الاحوال ، لا يستطيع ان يتخلص من وشائج الحب الاول . ومتى عاوده الشوق الى « بنات فكره » كما يقول العرب ، فانه لا يستطيع ان يغالب الشوق . ولذلك فانه قد يطالعنا بين الحين والآخر بقصيدة او بقصة قصيرة ، او بمسرحية نتلمس فيها بصيصا من موهبة اصيلة ، واشراقة من عبقرية مدفونة بين جدران المكتب . والحقيقة ان الذين نذروا أنفسهم للكتابة وحدها في العالم العربي نادرون ، ولذلك فان اكثرهم يتعاطى مهنة ما ، وينتج بين الحين والآخر ما تجود به القريحة .

وليس لهذه الطريقة من عيب سوى ان الانتاج قد لا يكون له من الرصانة والاتقان ما يتوفر مثله عندما يتفرغ الكاتب تماما لهذا النوع من النشاط الفكري . ومن هنا الضحل في الانتاج ، والسطحية في البحث ، وعدم الاستمرار في الجهد ، والتواني في العمل .

وهكذا نجد ان التسرب في مجال الانتاج الفكري يتخذ اربع صور :

اولا : التسرب الجزئي . وهذا ما نجده عند من يحاول الجمع بين الوظيفة والانتاج الفكري ، فيعيش مشتت الذهن ، موزع الامكانيات ، لا يفيد ولا يستفيد .

ثانيا : التسرب الكلي . ونجده عند من يتخلى نهائيا عن الانتاج الفكري ، ويبحث عن عمل آخر يقوم باود العيش ، فلا يملك الا ان يقول ما قاله الشاعر متذمرا من بني قومه الذين جهلوا قدره :

اضاعوني ، وأي فتى اضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

ثانيا : التسرب الكلي . ونجده عند من تتخلى نهائيا عن الانتاج قسم كبير منه يكتب في بلادنا باللغة الاجنبية ، ولهذا فهو معرض للضياع بالنسبة الى حضارتنا ، وللتسرب الى الحضارات الاخرى . والحقيقة أن الانتاج الفكري لا يندرج في اطار الحضارة الا اذا صيغ بلغة البلاد . فهل يعقل ان نترك نتاج عقولنا ، على ندرته ، يفلت من ايدينا ، فنغني الثقافات الاجنبية بجهود ابنائنا ، ونحرم ثقافتنا القومية من كنوز ثمينة ؟ ويمكن تصحيح هذا الوضع اما بالتعريب العاجل او بتقوية جهاز الترجمة .

رابعا : التسرب عن طريق ما يعرف بتهريب العقول والامخاخ ، او هجرة الكفاءات ، وذلك ان التعاون في المجال الفكري بين الدول ، وتكوين الاطارات في الخارج ، رغم النتائج الايجابية التي اسفر عنها ، الا انهما يخلوان من جوانب سلبية . ولكي ندرك العواقب الوخيمة المترتبة على هجرة الامخاخ ، استشهد بالمثال الآتي : « لقد تبين بالحسابات ان تكوين المهندس المحصل على الدبلوم يكلف الدولة في بريطانيا ٦٠٠٠ جنيه استرليني . فاذا هاجر ، فان الخسارة التي تصيب الاقتصاد البريطاني يمكن تقديرها بثلاثين الف جنيه استرليني ، وهي القيمة الحقيقية لكفاءته المستثمرة في مجال العمل . اما قيمة كفاءته بالنسبة الى الاقتصاد الاميركي الذي سوف يستفيد من خبرته ،

فتقدر بثمانية وسبعين الفا من الجنيهات الاسترلينية » (١٠) .
ومن حسن الحظ ان هذه المشكلة قائمة في بعض البلدان الصناعية، ولم تتخذ الى حد اليوم شكلا خطيرا في الاقطار النامية .

وتفاديا لهذه الامور كلها ، فمن حق كل من يعمل في مجال الفكر ان يطالب الدولة بتحديد وضعيته تحديدا واضحا ، واعتباره عاملا منتجا كغيره من العمال الذين يساهمون في تشييد البلاد . ولكن ، من حق الدولة ان تطالبه من جهتها باداء عمله والاخلاص لمهنته وخدمة الثقافة والعلم بكل نزاهة .

ويقول الدكتور احمد طالب الابراهيمي ، وزير الاعلام والثقافة بالجزائر ، بخصوص هذه النقطة :
« هناك شرطان اساسيان للخروج من الركود الثقافي ، وهما : التشجيع من طرف الدولة ، وايمان الاديب او الفنان بمبادىء الثورة. واذا توفر الايمان ، فان روضة الادب لا يمكن ان تقفر ، وان ميدان الفن لا يمكن ان يجدب » (١١) .

* * *

وبعد

فان تحديات العصر ، ومقتضيات الثورة التقانية المدهشة التي يشهدها القرن العشرون ، تفرض علينا اليوم ان نعنى عناية خاصة بالجانب الفكري ، وان نقيمه على أسس سليمة ، وان تحقق التوازن بينه وبين الجوانب الاخرى التي حظيت الى حد اليوم باهتمام المسؤولين . وما دامت الفلسفة التي خلفها لنا السلف الصالح هي « فلسفة العمل » ، فانه يتحتم علينا اليوم ان نحقق الانسجام بين الفكر والعمل ، وان يكون المعيار الوحيد للموازنة بينهما وتقديم احدهما على الآخر ، هو المردود والانتاج . وبذلك يتعاون رجال الفكر والفلاحون والعمال والتقنيون وذوو المهن الحرة ، في تشييد صرح هذه الامة .

الجزائر

حنفي بن عيسى

(١٠) راجع في هذا الموضوع كتاب :
Voir : « Apprendre à être » op cité p; p 277

(١١) انظر مقال الدكتور احمد طالب الابراهيمي : « التجربة الجزائرية في الثورة الثقافية » مجلة الثقافة – الجزائر ، السنة ٢ ، العدد ٨ – ٩ .

وقائع المؤتمر التاسع للادباء العرب

ـ تابع المنشور على الصفحة ١٢ ـ

الزراعي ، بل ان معركـــة البناء والتشييد واقامة نظام اجتماعي حر وعادل لا تقل خطورة ولا صعوبة ، لان العدو كامن فينا نابع من تخلفنا الحضاري .

واذا نحن أفردنا القول في الجانب الثقافي من هذ النضال قلنا اننا حريصون على أساس ذاتية قومية سالمة من مستعار النماذج ودخيل الانماط والاساليب وذاتيــة قومية سالمـــة ـ بالخصوص ـ من التحجر والتقليد واجترار الماضي المحنط ، فمطمحنا تجديد ثقافتنا كأحيا ما يكون التجديد وأصدق واخصب بحيث لا تبقى جاثمة في موقف الاستهلاك السلبي والاستجداء المشين ، بل تفرض نفسها وترد الفعل ويكون لها من الطرافة والانفساح والتدفق ما يبوئها مكانة مرموقة في عالم يقتضي الصحو الفكري ويتجـــه نحو التحاضن الثقافي . واصبح المثل الاعلى في كافة ارجائه امتلاء الانسان بالذات الانسانية ، بذلك نلتحق بالركب ونساهم في خلق المصير الانساني وبذلك نعرف لمنزلتنا قدرها في كيان هذا الكون .

وليس بلوغ هذه المقاصد البعيدة بالتمني وانتظار المعجزات ، بل بوضع خطة تربوية وثقافية شاملة ، وطويلة المدى لخلق عقلية تعتمـــد الروح العلمية والتفكـــير الموضوعي لفهم الحقائق والالمام بنواميس الاشياء ، قصد التأثير فيها والملاءمة بينها وبين مطامحنا في الحياة ، هذا يقتضي عقيدة دافعة وثقة في النفس راسخة ، اذ الافكار والمبـــادىء التي عاشت وغيرت مجرى التاريخ انمــا استمدت حياتها وحيويتها وطول نفسها من قلب انسان كبير وتغذت من طاقة مناضل صامد .

على ان الدرب طويل وشائك ، اذ نحن لا نزال في العالم العربي نعـــاني رواسب قرون الانحطاط وعهود الاستعمار ، ولا نزال نتجرع غصص الهزائم ونقاسي مرار التأزم والقلق والتيه ، والصهيونية تتحدانا وتمعن فـــي النيل من معنوياتنا وتشكيكنا في أنفسنا ومستقبلنا .

ويحسن ان نكون صادقين متشجعين عنـــد تحليل الواقع اذ لا دواء بدون تشخيص للداء . فقد كنا منـــذ سنوات قليلة نستعيض عن واقعنا المر بالخيال والخرافة، ونتسابق في مؤتمراتنا الى الحماسة كأننا نافرون الـــى غزو المريخ او قاصدون ساحات الوغى ، وفعلا سجلنـــا انتصارات باهرة في استديوهات الاذاعة وأبدنا أعداءنا على شاشة التلفزة .

ثم رجنا الواقع رجا فصحونا من غيبوبتنا فكـــانت الصدمة وحل الانكسار والفشل وكـــاد ان يعم اليأس . ولكن الانسان العربي ينهزم ولا ينسحق ويكبو ولا ينضبح بل يستلهم من ذاته التاريخية العريقة وارادته الفولاذية في الحياة ما يقوى به على النظر الصحيح للواقع ويوفق بفضله الـــى تبين طريق الشرف والنضـــال والصمود والمساهمة الايجابية في مغامرة الانسان يقرر مصيره في هذا الربع الاخير من القرن العشرين . وان الادب العربي في السنوات الاخيرة اذ يعكس هذه المتناقضات ويعبر عن تلك الحيرة يحمل تباشير وعي جديد ونظرة حصيفة وموقف مسؤول .

وانما يتجلى ذلك بالخصوص في الانتاج الادبـــي المستلهم من الثورة الفلسطينية المباركة التي أغتنم هذه المناسبة للتوجه الى كافة أبطالها بالتحية العارمة والتقدير الكبير ، واذ هي لا تحمل فقط آمال الشعب الفلسطيني في استرجاع أرضه المغتصبة وتشييد كيـــانه بل تبلور آمال الامة العربية قاطبة في التخلص من الظلم والتبعية والاستغلال وتستجيب الى مطامح الانسانية في القضاء على العنصرية والاستعمار وتوفير اسباب السلم والتآخي بين كافة البشر .

وفي هذه المرحلة المصيرية التي تجتازها الشعوب العربية وتعتبر ان للاديب دورا حاسما في كسبه الرهان وارجو ان تتضافر جهودنا جميعا للنهوض بما يحملنـــا التاريخ من تبعات وما تعلقه علينا أمتنا من آمال ، ويقيني اننا سائرون في الدرب الموصل وان شعورنا بالمسؤولية سيعيننا على تجاوز الجزئيات والهامشيات والاغراض بل يحملنا على النفاذ الى الجوهر والتمسك بالصدق في القول والاخلاص في العمل ، والله أسأل ان يلهمنا الواجب ويمدنا بالقوة على الاضطلاع به وعسى ان يكون هـــذا المؤتمر عامل تقارب ما وتآخ وان تكونوا معتزين بوجودكم في وطنكم الثاني تونس التي تتشرف اليوم بلقائكم وترجو لكم اقامة طيبة وعملا صالحا .

محمد مزالي

كلمة رئيس وفد لبنان

ايها السيدات والسادة

بانعقاد هذا المؤتمر التاسع للادباء العرب في تونس تنقضي عشرون سنة على انعقاد المؤتمر الاول في لبنان .

ولا شك في ان مؤتمرات الادباء العرب قد حققت ، في هذه السنوات العشرين ، بعض الانجازات على صعيد التعاون والتقارب وتعريف انتاج هذا البلد العربي او ذاك لدى سائر البلدان العربية .

ولكن الذي عجز مؤتمر الادباء العرب عن تحقيقه هو حمل الحكومات والسلطات العربية على احترام حريـــة التعبير لدى الادباء وحمايتها .

فطوال هذه الاعوام العشرين ، ظل الادباء في كثير من البلدان العربية ، يضطهدون في حريتهم ، ويخضعون لشتى الوان الارهاب والقمع .

واليوم ، ونحن نأتمر هنا في هذا البلد الكريم الذي يفتح لنا صدره واسعا ، يعاني عدد من الادباء والمفكرين والصحفيين ، من كبت حرية التعبير لديهم ، اما بالاعتقال كما حدث اخيرا في البحرين ، او بمنعهم من ممارسة

حقهم في الكتابة وتهديدهم بقوتهم ورزقهم ووسائـل عيشهم ، او بالايعاز بحجب اصواتهـم في المجـلات والصحف والاذاعة والتلفزيون ووسائل الاعلام الاخرى ، يستوي في ذلك بعض ممثلي التيارات الادبية الحديثـة الذين يرسمون خارطة مستقبل الادب العربي ، وبعض رواد الادب الكبار الذين صنعوا ، على صعيد الانتـاج الرفيع ، مجد البلد الذي ينتمون اليه .

ان الامانة تقتضينا ، ايها الاخوة الادباء ، ان نعترف بان مؤتمرات الادباء العرب قد قصرت تقصيرا فادحا في تطبيق هدف هام ، بل لعله اهم هدف من اهداف الاتحاد العام للادباء العرب ، وهو الذي تنص عليه المادتان العاشرة والحادية عشرة من اهداف الاتحاد في نظامه الاساسي حين تقرر ان الدعوة الى « العمل على رعاية الاديـب وحماية حقه في حياة حرة كريمة » « والعمل على حماية حق الاديب في حرية التعبير في نطاق المثل القوميـة العربية والانسانية » .

فلئن قصرنا في هذه السنوات العشرين الماضية في اداء واجبنا ، رغم ان بعض الاصوات في المؤتمـرات السابقة كانت ترتفع بالدعوة الى حماية حريه التعبير ، فان الاتحاد العام للادباء العرب مدعو اليـوم ، اذا اراد لنفسه الكرامة والاحترام ، واذا اراد لمؤتمراته وقراراته الجدوى والفعالية ، ان يتخذ موقفا واضحا وحاسما في هذا الصدد .

وبروح من هذه الفكرة يشرفني باسم الوفد اللبناني للمؤتمر ، وبصفتي امينا عاما مساعدا لاتحاد الادبـاء العرب ، ان اقترح على مؤتمركم الكريم التصديق عـلى « ميثاق شرف » يتضمن مادة وحيدة تنص على ان يتعهد الاتحاد العام للادباء العرب ، بجميع هيئاته ، وهي المؤتمر العام الذي ينعقد اليوم في دورته التاسعة ، والمكتـب الدائم ، والامانة العامة ، بان يبادر الى شجب كل محاولة، في اي بلد عربي لقمع حرية الفكر ، واتخاذ جميـع الخطوات الضرورية لرفع هذا القمع ، بتجاوز التنديـد والاستنكار ، الى مظاهرات الاحتجاج ، والاعتصام عنـد الحاجة في سفارات البلدان التي يقع فيها القمـع ، واستنفار المثقفين في العالم ، دفاعا عن حرية المفكريـن والادبـاء .

ان الوفد اللبناني سيتقدم بمشروع اقتراح ميثاق الشرف هذا الى لجنة الصياغة ليدرج في التوصيـات النهائية لمؤتمركم الكريم .

لقد آن لنا ، ايها الاخوة الادباء ، ان ندرك ان غياب صوت الفكر الحر الصريح هو سبب اساسي من اسباب النكسات التي تلم بالامة العربية ، وان محاولـه خنـق صوت الاديب حين ينتقد السلطة هي محاولة لقتل ضمير الامة وصوتها الصادق . وقد آن لنا ان نرفض الحجج والذرائع التي تلجأ اليها السلطة كلما ازعجها نقـد او احتجاج . وان التذرع بحجة المعركة التي يخوضهـا الشعب العربي للتحرير ، هو حجة مردودة ، لان المعركة التي لا يشارك فيها الاديب والمفكر بالتخطيط والتوجيه ، وحتى النقد والاحتجاج ، مآلها الى الخسران والهزيمة .

ان مؤرخي الادب العربي الحديث مجمعون على ان انتاج الادباء العرب منذ هزيمة حزيران١٩٦٧ مليء بالتعبير عن الجراح العميقة التي تنزف من الجسم العربي ولئن انتهى هذا التعبير ، في الشعر والقصة بصورة خاصـة الى ما يشبه اليأس ، فلان سياسة بعض السلطات العربية لا تفتح آفاق التفاؤل والامل . وان الاديب الملتزم بقضايا شعبه انما يخون رسالته اذا ارتضى ان ينظر متفرجا الى هذه الجراح النازفة ، من غير ان يحاول اعمال مبضعه في اسباب العلل وبواعث الامراض ، فاية مأساة تراهـا تكون مأساة هذا الاديب حين يجبر اجبارا على الصمت بالارهاب والاضطهاد ؟

ايها الزملاء ، اعضاء مؤتمر الادباء العرب التاسع

ان ما ستقدمونه من ابحاث ودراسات، وما ستلقونه من قصائد ليس الا مظهرا واحدا من مظاهر رسالتكم في هذا المؤتمر . اما المظهر الاخر من هده الرسالة فهو الدفاع عن حرية الاديب العربي ليتمكن من ان يقوم بواجبه في معركة التحرير ، وان يبدع الادب الاصيل الذي يكهرب الروح العربيه ليخرجها من وهدة اليأس ويفولدها لمزيد من المقاومه والفداء ، ونحن نؤمن بان من واجب كل مفكر واديب وشاعر ، على صعيده الخاص ، وعلى صعيـد اتحاد الادباء الذي ينتمي اليه ، ان يجند نفسه وحياته للدفاع عن حرية الكلمة التي يبدعها في وجه قمع السلطة وارهابها . ونحسب اننا اذا تحملنـا مسؤوليتنا في هذا المؤتمر ، وآلينا على انفسنا ان نخرج منه مصممين عـلى الدفاع عن هذه الحرية بشتى الطرق والاساليب ، فاننا سنشق دربا جديدة للقلم العربي الذي ينبغي ان يشارك اعمق فاعمق في قيادة الامة العربية فيمعركتها التحريرية الكبـرى .

ان معركة الحرية الفكرية جزء لا يتجزأ من معركـة التحرير ، فاذا تقاعس فيها الاديب او هادن ، فانما يتخلى عن واجبه في معركة التحرير ، وسيدينـه الفكر والادب والتاريخ بلا هوادة .

فلنبدأ في هـذا المؤتمر بالـذات معركة حريتنا الفكرية ولنهب بكل سلطة تحاول ان تقمع الفكر ان تتراجع عن محاولتها .

بل ينبغي ألا نتردد . أيها الاخـوة الادباء ، في ان نطالب الشقيقة الكبرى مصر ، طليعة معركة التحرير ،بأن تلغي التدابير التي اتخـذتها بحق عشرات من أدبائها وصحفييها وفنانيها المبدعين ، ولنحذر كل سلطة عربية أخرى من اتخاذ أي اجراء يطعن حرية الفكر وكرامـة الادبـاء .

وأننا ، نحنممثلي اتحاد الكتاباللبنانيين ، نعاهدكم أيها الزملاء الكرام ، ان نمضي في معركة الدفاع عن حرية الاديب العربي الى آخر الشوط ، وانه ليسعدنا ان ندعو مؤتمر الادباء العرب القادم الى الانعقـاد في لبنان تحت شعار « حرية الكلمة العربية » ، والسلام .

سهيل ادريس

كلمة الامين العام

ثم القى الاستاذ يوسف السباعي كلمة الامانة العامة لاتحاد العرب وهذا نصها :

السيد رئيس الجمهورية

ايها الاخوة الاصدقاء

انه ليسعدني ، ان اقف اليوم بينكم ، لكي اعبر باسم الامانة العامة ، للاتحاد العام للادباء العرب ، وبالنيابة عنكم جميعا ، عن اعمق آيات الشكر ، للسيد رئيس الجمهورية التونسية ، الحبيب بو رقيبة ، على تفضله بافتتاح مؤتمرنا هذا ، وعلى الرعاية الكريمة التي شمله بها ، كما اعرب عن الامتنان العميق لتونس الشقيقة، حكومة وشعبا ، لما لمسناه ونلمسه من مظاهر اكرم العربي الاصيل، والحفاوة الكبيرة ، والتعاون الصادق حتى يتحقق للمؤتمر التاسع للادباء العرب ، والمهرجان الحادي عشر للشعر العربي ، كل ما هما جديران به من نجاح وتوفيق .

ان انعقاد المؤتمر والمهرجان في تونس ، تلبية للدعوة الكريمة ،التي تقدم بها هذا البلد العربي الشقيق ، قد حقق امنية غالية ، على قلوب ادباء العربية وشعرائها واتاح لهم ذلك اللقاء ، الذي طالما تطلعوا اليه ، باشقائهم في هذا البلد المناضل العريق ، واننا لنعتز حقا بانعقاد هذا المؤتمر في تونس ، بتاريخها العربي الحافل ، وسجل كفاحها المجيد وانتصاراتها العظيمة في ساحات الجهاد والعمل والبناء معا ، بقيادة المجاهد الاكبر ، الرئيس الحبيب بو رقيبة .

ايها الاخوة الادباء

ان مؤتمرنا التاسع ينعقد اليوم ، وما زالت الامة العربية تخوض غمرات كفاحها الطويل الشاق ، ضد قوى الاستعمار والصهيونية والعدوان ، وتقف في صمود واستبسال لا هوادة فيه ، وقد عقدت العزم على المضي في نضالها ، ضد العدو الصهيوني الامبريالي ، حتى النصر الحاسم ، ونحن الادباء ، ندرك اعمق الادراك أن مسؤوليتنا التاريخية ، تفرض علينا المشاركة الكاملة في نضال شعبنا العربي ، حتى نسهم بدورنا ، في مقاومة قوى الامبريالية والاستعمار والصهيونية والعنصرية ، وفي ارساء وتوطيد قيم الحرية والتقدم والعدالة والسلام ، وعلينا ان نقف مع طلائع شعبنا العربي في كل مكان ، بصلابة وحزم ،في مواجهة العدو ، الذي يحتل ارضا عربية مقدسة ، لا يمكن ان تستباح وتغتصب حقوقا قومية لا يمكن ان تهدر ، وينتهج وسائل واساليب وحشية ، تتنافى مع كل القيم الحضارية والانسانية ويقترف جرائم بشعة ، هي في الواقع ، طعنة ضد ضمير الانسانية جمعاء .

وعلينا نحن الادباء العرب ان نناضل بكل ما نملك من وسائل، لكي نذكي جذوة الامل الخلاق ، في نفوس ابناء شعبنا العربي ،ونعيد توكيد ايماننا الحضاري العريق ، في مسيرة الانسانية كلها ،ونرفع صوت هذه الامة ، صادقا وقويا ،حتى يصل الى وجدان كل الشرفاء في العالم اجمع .

ان نضال شعبنا العربي ، انما هو جزء لا يتجزأ من نضال حركة التحرر الوطني في العالم كله ، ومعركتنا هي معركة كل قوى التحرر والسلام في هذه الجبهة العالمية العريضة ، التي تقف معنا في نضالنا ، من اجل استرداد الارض العربية المحتلة ، واستعادة حقوق شعب فلسطين القومية ، على ارضه وفي وطنه ، وتوطيد اسس التقدم والعدالة .

اننا نؤمن اعمق الايمان ، بالسلام والاخاء بين الشعوب المناضلة ولكن العدو الصهيوني الامبريالي يستهين بكل القيم والاعراف الحضارية ، ونحن ندرك ان السلام ، لا يمكن ان ينفصل عن العدالة ، وعن الحرية ، ولا يمكن أن يتوطد الا مدعوما بقوة الحق ، وبحق القوة معا ، وقد عقدنا العزم على ان نخوض معركتنا العادلة الشريفة ، مستندين الى الحق والقوة معا ، لنحرر الارض ونسترد الحقوق ، ونحرز النصر المرجو باذن الله .

ايها الاخوة الاعزاء،

هذا هو موقفنا الذي لا يتزعزع في صراعنا مع الصهيونية والامبريالية العالمية ، سوف نؤكده ونبرزه بلا شك ، في مؤتمرنا التاسع، اذ نجتمع لدراسة موقع الادب العربي من هذا العصر الحاشد بالقضايا والتطورات ، وما من شك عندي ، في ان ادبنا العربي قادر بما يحمل من عطاء ، على أن يغير وجه المستقبل ، نحو غد مشرق ،وهو في الوقت نفسه استمرار لاصالة حضارتنا ، بكل ما فيها من ثراء انساني ، ونحن اليوم ، اذ نقبل على تقييم الاتجاهات الادبية المعاصرة ، سوف ندرس اثرها ،في خدمة هذا المستقبل العربي ،وطنيا وقوميا وانسانيا على السواء كما ندرس العلاقة الضرورية ، التي نشأت وسوف تتطور بين الادب العربي والثورة التكنولوجيا في هذا النصف الثاني من القرن العشرين .

ولقد كان الادباء وسيظلون دائما ، طليعة هذه الامة ، يحمون حضارتها ، ويحرسون وجودها ، ويذودون عن اصالتها ويؤكدون حريتها ، ويستشرفون آفاق مستقبلها .

وانني لعلى يقين ، من ان المؤتمر التاسع للادباء العرب ، والمهرجان الحادي عشر للشعر العربي ، سوف يسهمان في تركيز رسالة ادباء العربية وشعرائها ، اسهاما ثمينا .

واسمحوا لي ،ان اكرر اتشكر والامتنان ، لتونس الشقيقة الحبيبة ، حكومة وشعبا ، لما لقيناه ونلقاه من كرم الوفادة ،وصدق الحفاوة ، وبخاصة لاتحاد الكتاب التونسيين لما بذله ويبذله ، من جهد رائع ، وعمل متصل في سبيل توفير النجاح الكامل ، لهذا المؤتمر ، الذي ينعقد لاول مرة ، في بلد من بلدان المغرب العربي الكبير ، واخص بالشكر والامتنان ، السيد رئيس الجمهورية، الحبيب بو رقيبة ، المجاهد الاكبر ، الذي قاد ويقود شعبه العظيم في معارك التحرير والنضال ، ضد الاستعمار حتى تحقق له النصر، في معارك العمل والبناء والتشييد والحفاظ على الاستقلال الوطني كاملا لا يمس . والتضامن مع الشعوب المناضلة ، والارتباط بقضايا الشعب العربي المجيد ، حتى يتحقق له الازدهار الثقافي والحضاري. ويتأكد له من جديد ، دوره التاريخي .

وشكرا لكم ..

كلمة ممثل الجامعة العربية

والقى الدكتور اسحق موسى الحسيني الكلمة التالية عن الجامعة العربية .

يواجه العرب اليوم محنة شديدة الوطأة تشبه المحنة التي واجهوها في القرنين الحادي عشر والثاني عشر يوم اجتاحتهم جحافل التتار فدمرت المدن ، وجلطت الدماء بالماء ، ويوم غزاهم الصليبيون فقتلوا في بيت المقدس وحدها سبعين الف مسلم وتشبه المحنة التي واجهوها في القرن التاسع عشر يوم غزاهم الاستعمار الغربي ليمتص دماءهم ويحرمهم خيرات بلادهم ويتركهم حفاة عراة .

ومحنة اليوم تختلف في وسيلتها عن محنة الامس ولكنها تتفق معها في الغاية فعدو اليوم يريد ان يقتلع شعبا من ارضه كما تقتلع النبتة من الارض وان يقيم مجتمعا دخيلا تكون له اليد العليا في احداث المنطقة العربية كلها . يبيد ويبقى يزرع ويحصد

ويبيع ويشتري يعز ويذل كآلهة الاساطير القديمة الذي نرى صورته في كتب العدو الدينية ووسيلته الى ذلك ارهاب منظم وغزو غادر ودبلوماسية خبيثة قادرة على جعل الحق باطلا والباطل حقا .

كانت امتنا في تاريخها الطويل تصبر على بلواها وتضمد جراحها بيدها وتعد العدة أنى ان يحين الوقت فترد العدوان وتعود سيرتها الاولى شريفة قوية . وكان يخرج منها رجال هم منها بمثابة الوجدان الحي والعين البصيرة والعقل المدرك وهؤلاء هم الذين نسميهم شعراء وكتابا . كانوا اصحاب رؤية بعيدة وقلوب شفافة وضمائر يقظة ينذرون بالخطر قبل أن يقبل ويصورونه وهم بينهم ويستثيرون الهمم لاقتلاعه . أذكر في هذه الكلمة القصيرة ثلاثة نماذج لن ينساها التاريخ . هم لقيط بن يعمر الايادي والقاضي الفاضل وابو المظفر الابيوردي . وكان بودي ان يتسع الوقت لذكر غيرهم بهم كي لا اثقل .
والافاضة في وصف آثارهم ولكي اجترىء .

عاش الايادي في الجاهلية . وحين علم أن كسرى مجمع على غزو قومه أرسل اليهم كتابا يتضمن قصيدة من اجود ما عرف العرب من شعر في قديمهم وحديثهم صدق عاطفة ووضوح رؤية وحسن بيان ، جاء فيها :

ابلغ ايانا وخلل في شراتهم … اني ارى الرأي ان لم اعص قدنصعا
يالهف نفسي ان كانت اموركم … شتى واحكم امر الناس فاجتمعا
اني اراكم وارضا تعجبون بها … مثل السفينة تخشى الوعث والطبعا
الا تخافون قوما لا ابالكم … امسوا اليكم كامثال الدبى صرعا
ابناء قوم تاووكم على ضيق … لا يشعرون أضر الله ام نفعا
في كل يوم يسنون الحراب لكم … لا يهجعون اذا ما غافل هجعا
فافنوا جيادكم واحموا ذماركم … واستشعروا الصبر لا تستشعروا الجزعا
صونوا جيادكم واجلوا سيوفكم … وجددوا للقسي النبل والشرعا
هيهات لامال من زرع ومن ابل … يرجى لغابركم ان التفكم جذعا
يا قوم أن لكم من ارث اولكم … مبدأ قد اشفقت ان يفنى وينقطعا
ماذا يرد عليكم عز اولكم … ان ضاع اخره او ذل واتضعا
لقد بذلت لكم نصحي بلا دخل … فاستيقظوا ان خير العلم ما نفعا
هذا كتابي اليكم والنذير لكم … لمن رأى رايه منكم ومن سمعا

وما اشبه الليلة بالبارحة . وان اردت اليوم ان يقرأ قومي قصيدة تنذرهم بالخطر وتثيرهم وتوحد صفوفهم ما وجدت اصدق من هذه القصيدة .

اما القاضي الفاضل العسقلاني البياني فقد روعته الحروب الصليبية ووجد في صلاح الدين البطل المنقذ فكتب نيابة عنه الرسائل الى المسلمين في المشارق والمغارب يستنفرهم ويثيرهم حتى هبوا واعادوا الارض المقدسة الى اهلها . وادرك صلاح الدين فضل القاضي الفاضل فقال عبارته الشهيرة « لا تظنوا اني فتحت البلاد بسيوفكم بل بقلم القاضي الفاضل » . كان القاضي الفاضل يوم ذاك ممثل العالم الاسلامي . ووهبه الله من الدراية ويقظة الضمير وقوة البيان واعانته على تحقيق النصر واداء الواجب في احلك الايام .

اما ابو المظفر الابيوردي فقد هزته النكبة اذ رأى الصليبيين يبنون القلاع ويوغلون في الفتوحات ويظلمون فقال :

يا دولة السوء لا لقيت صالحة … هل لا نقراضك من وقت فينتظر
وكيف نرجو خلاصا او نرى فرجا … وفيك طول وفي اعمالنا قصر

فعبر بذلك عن احساس المسلم بوطأة الظالم وتمنى ان تافل دولة السوء في حياتهم .

ان الادباء اليوم اشد احساسا بالمأساة وبالعاصفة الهوجاء التي تهب عاتية تبعثر القوى وتوهن انعزائم ، وأنهم يتمنون ان ترى الامة العربية بعين بصيرتها ما يرونه هم محاصرتهم من خطر داهم . ويتمنون أن تتوحد الامة العربية لتواجه الخطر بارادة واحدة وعزيمة صلبة متمثلين بقول عبيد الله بن قيس الرقيات الذي رأي اثر الفرقة فقال :

حبذا العيش حين قومي جميع … لم تفرق امورها الاهواء
قبل ان تطمح القبائل في ملك قريش وتشمت الاعداء
ايها المشتهي فناء قريش … بيد الله ملكها والبقاء
ان تودع الليين البلاد قريش … لا يكن بعدها لحي بقاء

ويتمنون ان تتدخل الامة العربية في عصر الحضارة الحديثة من اوسع ابوابها فلا تقنع بالتنعم بثمارها بل تصنعها بنفسها كما يصنعها اصحابها . ويتمنون ان يحظى الانسان العربي بما ينبغي من عناية فيرتفع مستواه وتستغل مواهبه الدينية ويوجهه توجيها سليما في خلقه وعلمه ومعاشه حتى يسترد ثقته بنفسه ويعيش في مستوى الانسان المتحضر ويتمنون أن تعنى الامة العربية بادبائها شعراء وكتاب لكي يظل ضميرها نابضا بالحياة يقظا ، متوثبا ، شجاعا لا يخشى في الحق لومة لانهم ينقد ويوجه يصور ويبدع ما شاء له الله ان يفعل .

وانتم ايها الادباء ادوا الامانة كما اداها الايادي وعبيدالله بن قيس الرقيات والقاضي لفاضل وابو المظفر الابيوردي وعشرات غيرهم من كرام الاجداد حملوا المشاعل واضاؤوا الطريق وخلدهم التاريخ ، وامانتكم اليوم هي توحيد الامة وهدايتها الى الحضارة لكي تكسب معركتين متلازمتين ، معركة مع المعتدي الاثيم ، ومعركة مع الحياة التي قررت قاعدتها منذ الازل وهي « البقاء للاصلح »

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

كلمة رئيس وفد البحرين

والقى الاستاذ علي عبدالله خليفة رئيس وفد البحرين الكلمة التالية :

من الطرف الشرقي للوطن العربي احيي تونس . الارض والانسان، واحيي لقاءكم هذا حاملا اليكم حب وتطلع ادباء البحرين وشعب البحرين .

ايها المؤتمرون :

الادب في البحرين رافد صغير من روافد الادب العربي ،لم ينقطع منذ البدايات الاولى للادب الانساني عامة . عبر كغيره فترات من التخلف والجمود .

وفي السنوات الاخيرة بدأت حركة الادب الجديد عندنا ،وتمثلها الان اسرة الادباء والكتاب . منذ اوائل الستينات اخذت هذه الحركة تشق لها مسارا تقدميا ، متجهة بجدية وصدق نحو التعبير عن هموم الانسان العربي في الخليج وقضاياه المحلية والعربية . وربط هذه القضايا بالظروف الموضوعية العامة التي يعانيها الانسان في ارجاء العالم .

ان هذا التوجه الجديد يضع الادب في الخليج عامة امام مسؤولية جسيمة ، فما زال الفكر والادب والتاريخ لهذا الجزء من الوطن الكبير مطموسا ، ومحكوما عليه بالعزلة الرهيبة التي فرضها الاستعمار منذ ما يقرب من مائة وخمسين عاما ، وحتى الان .. او مشوها على ايدي الكتاب العرب الرسميين والاجانب المستعمرين،

في ذات الوقت الذي تصل فيه الصورة الحاضرة للخليج معكوسة بفضل الصحافيين العرب المرتزقة .
ايها السادة :

ان للخليج العربي وجها اخر لا يراه المواطن العربي خارج المنطقة . بل ويجهله تماما ، هو ذلك الوجه المضيء بتراثه الاصيل وثوراته الفكرية والسياسية وانتفاضاته الشعبية الطامحة .

لذا فنحن في كل مؤتمر او تجمع للمثقفين العرب نحاول حسبما تسمح به الظروف ان نطرح الصورة الحقيقية لما نعانيه نحن الكتاب وما تعانيه المنطقة بشكل عام ، مدركين تماما ان واجبنا في ايصال هذه الحقيقة اليكم يوازي واجبكم جميعا في التوصل اليها ، خصوصا وانكم تعلمون مدى اهمية الخليج استراتيجيةفي معركة المصير وقضايانا المعاصرة .

انني باسم جماهير بلادي المحبة لكم اطالبكم بالتعرف على ارض الخليج وشعب الخليج بعيدا عن اي تصور خيالي او منقول .

ايها الاخوة . ان تجمعنا للادباء والشعراء والمثقفين العرب في مكان واحد وفي هذا الوقت بالذات يعد في حد ذاته انتصارا على الكثير من ظروفنا واوضاعنا العربية . ها نحن في المغرب العربي ... في مؤتمر جديد نحاول ان نثقب به جدار الصمت ونشعل هذا الخمود الرهيب الذي يملأ حياتنا من كل جوانبها .. ان صوتنا ما يزال ضعيفا خافتا لا نكاد نسمعه اذننا ، ذلك ان الاديب العربي يعاني ازمة انفصال كبير في ذاته ، ازمة انفصال الكلمة عن الفعل.. فهل نخرج من مؤتمرنا هذا - كالعادة - بالكلمة نلوح بها امام شعوبنا المتطلعة الينا بلهفة .. والى متى سيظل هذا الحال الخطير .اننا مطالبون ، وبالذات في هذا المؤتمر ، بالعمل على اعطاء الكلمة حرمتها وحريتها وطاقتها المفجرة ، لنعيد للانسان العربي ثقته بالكلمة وفاعليتها ودورها في التغيير والبناء والابداع .

هل من الممكن ايها الاخوة ان نحقق هذا في مؤتمرنا الحالي؟؟
ان الاجابة بصدد هذا السؤال ضرورية وملحة .

وختاما ، مزيدا ايها الادباء والمثقفون من الالتزام بقضاياكم وقضايا عصركم ، ومزيدا من النضال من اجل حرية التفكير والتعبير، مهما كانت التضحيات .

اتمنى لمؤتمرنا التاسع النجاح والفاعلية ، واشكر الامانةالعامة لاتحاد الادباء العرب ، واتحاد الكتاب التونسيين على الدعوة والضيافة ومجهود الاعداد والتنظيم لهذا اللقاء . وشكرا للجميع .

كلمة رئيس الوفد الجزائري

وألقى الدكتور صالح الخرفي كلمة الوفد الجزائري :

ان المؤتمر التاسع للادباء العرب في تونس الشقيقة يكتسي صبغة خاصة بالنسبة للوفد الجزائري ، فهو ينعقد في ربوع الخضراء التي تثير في قلب كل جزائري أعمق الذكرى ، وأبعد الصدى ، يوم كانت رحاب الزيتونة الخالدة تستقطب طلائع الشباب الجزائري منذ مطلع هذا القرن وعلى مدى خمسين عاما منه ، ويوم كانت كتائب الكفاح المسلح ، وموجات الشعب المضطهد ، تاوي الى هذا الشعب الوفي ، فتستبدل الاهل بالاهل ، والدار بالدار ، انها ذكرى القلم والفكر ، ذكرى الدم والسلاح .

وانها لفرصة تاريخية ان تلتفت المؤتمرات الادبية ، ومهرجانات الشعر الى هذا الجانب المغربي من الوطن العربي ، هذا الجانب الذي طالما شد انظار الادباء العرب ببطولاته التاريخية ، وهز مشاعرهم بوقفته الماردة في وجه الاستعمار .

فرصة للكلمة الفنية الصادقة ان تتلمس مواقع صدقها ، وللصورة الشعرية ان تقع على ارض البطولات .

فرصة للاديب العربي أن يقف على مشارف افريقية الصامدة في صراعها مع العنصرية ، والتغلغل الصهيوني ، فيوليها التفاتة وفية ، ويبارك تطلعها الى أن تكون اكثر وفاء للقضية الفلسطينية .

ايها المؤتمر الكريم :

استطاعت الجزائر في الخمسينات بوقفتها التاريخية ان تفرض نفسها على كل مؤتمر ، ويتردد اسمها فوق كل منبر ، بعد غربة ليست قصيرة في الاسم والمسمى ، فغدت الدماء السخية في قمم الاطلس ، والحشرجات المتصاعدة في سفوحه محك الاصالة من الزيف في الفكر العربي ، محك الصلابة من الرعشة في الوقفة الادبية .

وقد آن لقضية فلسطين أن تكون الموضوع الرئيسي لكل مؤتمر ، المأساة التي أطلت على العرب مع مطلع القرن والتي لا تزال تجر ذيولها المعفنة مع اواخره ، لتكن قضية العرب في القرن العشرين . وعلى هذا الصعيد تقف الجزائر وقفتها المعهودة ، وتمد يدها الوفية والى هذا المنطلق تحتكم الجزائر مع كل موقف عربي .

ان القضية ان تكن بلاء وابتلاء للزعيم السياسي ، والقائد العسكري ، فهي أحرى ان تكون محنة الفكر العربي ، تميز فزمه عن عملاقه ، ورسوله عن الدعي فيه ، ومن تصفح المسيرة الدامية لهذه القضية من عشرات السنين هاله ما لفظت على جنباتها من طفيليات ، وما طفا على سطحها من زبد رخيص ، على الصعيد السياسي ، والعسكري ، والادبي .

ان مؤتمراتنا هذه ، مهما تلونت بها المواضيع ، وطوح بها الزمان والمكان من عاصفة عربية الى اخرى ، لا تنفك حسية مثلث حاد الزوايا تجسمه سنوات ٤٨ - ٥٦ - ٦٧ ، وقد آن لهذه المؤتمرات ان تتساءل بلهجة حادة وصريحة عن العوامل التي لا تزال تسلمنا من نكسة الى اخرى .

واذا كانت هذه اللقاءات منذ منطلقها قد أولت للتراث العربي التفاتات وفية أو أعطت للعدوان المسلط علينا من الخارج اهتماما صادقا ، فاننا لفي حاجة الى ان نكون اكثر صدقا ووفاء في مواجهه العدوان النابع منا والتابع فينا .

اننا لفي حاجة لان نتبين موقع الادب العربي لا من الصهيونية او الامبريالية ، ولكن موقعه من الصراع مع انفسنا . موقعه من الاصالة والزيف في مجتمعنا . ان ابشع مظاهر المأساة ان شبح الانتكاسة لم يعد قاصرا على الفوهات المغروسة في الرمال ، او الرصاص المرتد الى الصدور ، ولكن كأني به متصاعد لان يقضي على أضعف الايمان في الصراع ، القضاء على الكلمة الصادقة الحجة ، فهل هو (حزيران) فكري جديد ان ترتد الى تحررنا الابيات التاريخية لخليل مطران .

ان هذه المؤتمرات ان كانت حريصة على وجودها فلتربأ بنفسها أن يأتي يوم لا تلتئم فيه على وقفة شريفة او جلسة مثمرة ، مؤتمرات التحية والوداع أدت دورها كاملا غير منقوص ونحن نتطلع الى اللقاء الجاد الصريح ، لقاء النقد الذاتي ، لقاء التمييز بين الكلمة الرسمية والكلمة المسؤولة .

أيها الحفل الكريم :

ان الجزائر التي ودعت منذ شهور الذكرى العاشرة لاستقلالها ، وتستقبل بعد شهور الذكرى العشرين لانطلاقة ثورتها ، ثورة غرة نوفمبر التي عشتموها أحاسيس وخلجات ، وحلقتم بها رؤيا وأبعادا ، جزائر البناء الصامت الجاد ، والاشتراكية الواعية ، الزاحفة عبر الحقول والضيع التي شهدت ابشع مظاهر الاستغلال والاقطاع .

جزائر الثورة الصناعية ، والثورة الزراعية ، والثورة الثقافية، حريصة أن تتيح للمفكر والاديب العربي فرصة التأكد من المسيـــرة المتواصلة لثورة نوفمبر الخالدة في ذكراها العشرين فتوجه دعــــوة كريمة للمؤتمر العاشر للادباء العرب للانعقاد في الجزائر .

كلمة الوفد السعـودي

والقى الاستاذ عبدالله بن خميس كلمة الوفد السعودي:

من مهد العرب ، ومنطلق الاسلام ، ومبدأ الفصحى .. نحمـــل الى الحبيب ، وشعبه الحبيب ، والى رواد الشعوب وحمله مشاعـل الهدايـة .. وامناء الضاد ... يفدون الى تونس الخضرة النضرة .. ليؤدوا رسالة القلم ، وامانة التاريخ ، نحمل اليهم تحايا واشواق جزيرتهم الام ملكـا وحكومة وشعبـا معطرة بنشر شيحها وقيصومها ، محفوفـة بنور خزامـاها وعرارها ، مشبعـة بنسائم صباها ،ونفحات نعاماها ..

فحيا الله تونس ربع السحـر والجمال ، ونجع بني هلال ،ومهد الزيتونـة والقيروان وباجة ... ووطـن سحنون ، وابن رشيـق ، وعبدالرحمان بن خلدون وابي القاسم الشابي واضرابهم ..

وحيا الله تونس المجاهدة الصابـرة ، والمناضلة الظافــرة ، ضحت في سبيل حريتها حتى انتزعتهـا من بيـن فكي الاسد ، بقيـادة بطلهـا الحبيب وصحبه الصبر البواسـل ..

وحيا الله تونس تغار على لغـة القرءان وتذب عـن مجد العرب، ونصل الحاضر المتحضر . بالماضي المشرق .. وحيا الله تونس ممثلـة في اتحاد كتابها الاكارم تستقبل اعلام العرب ، وتفتح لهم ذراعيهـا ويقـوم سوق الادب في سرحها ، وتتجاوب في عرصاتها اصداء الامة العربية من خليجها الى محيطها .. لينصرفوا الى قومهم بثمرة جنيـه ونتيجـة مرضيـة ..

وان مؤتمرا ادبيـا تجمع الامة العربيـة على عقده في هـذه الاونة ويلتقي فيه صفوة من رواد الفكر ، وقادة الرأي .. وقد احاط بالامـة العربيـة ما احاط بها من حوالك الظلم ،وعوادي البغي .. لامر صادف وقتـه ، وعامل دعت اليه الضرورة واستوجبته الدواعي .. مما جعل الامة تستقبله بكـل ارتياح ، وتنتظر نتائجه الايجابية بكل لهفـة واشتياق .. ان مـا نسمعه يتردد على الالسنة في بلادنا وتتناولـه الاوساط الادبيـة وترجوه لهذا المؤتمر ومنه تقتضينا الامانة حملـه اليكم ، ويقتضيكم التاريخ ان تبينوا موقفكم منه .. وهو يتخلص في الجـوانب الاتيـة :

١ ـ نحن امة معجزتها البيان ، ومهمازها اللسان .. وللكلمـة شرف هناها ، وسلم بناها .. تنطلق من قلم سيال ،او لسـان قوال.. لهـا في عقول الامة العربيـة وعواطفهـا ما يهزهـا طربا او يهيجهـا غضبـا والشواهـد التاريخيـة بذلك قائمة ناطقة .

وما ابتلينا عبر تاريخنـا الطويل في كرامتنـا واصالتنا ومكانتنا بيـن الامـم مثل البلوى التي نواجهها في قضيتنا القائمة مما جعل الامـم تغمزنـا والانظار تقتحمنا .. في الوقت الذي يسود الوسط الادبـي لدينـا ركـود خطيـر تعد به عـن نعيشة الامة ، وصدف بـه عن منهجه في احياء كوامـن الثأر وحمايـة الذمار وغسل العار .

٢ ـ يوجه الى الامة العربيـة غزو فكري سافـر ومقنع يستهدف عقيدتهـا ، وقوميتها ولغتها .. ويشكهـا في اصالتهـا ومجدهــا وتراثهـا ..

ولا بد من عمل جاد لصده ومحاربته ..

٣ ـ تتعرض اللغة العربية لتنكر في صميمها واستخفاف بحرماتها وتجاهل بعض قواعدهـا .. بمـا تظهر اثاره بارزة في بعض الصحف العربيـة ومن بعض الاذاعات ووسائل الاعلام في الوطن العربي ، وبمـا تدفعه بعض دور النشر من مؤلفات جل اهدافها تملق الغرائز ومداعبـة العواطف ، ربمـا نرى اثاره بارزة في مظاهر الحياة لدى بعض الاقطار العربيـة ..

في سبات عميق من النقـد وغفلة من غيارى لغة العرب عــن رسالتهـم الهامـة ...

٤ ـ حفظ لنا الشعر العربي الاصيل مجدا وتاريخا ولغة ..وامتزج بدم العربي وروحه وخاطب عقول الامة العربية وعواطفها وافكارها فتأثرت به وآمنت برسالته عبر القرون والاجيال .. فهل ما دخل علـى هذا الشعـر من فلسفـة تريد تغيير معالمه وتنقيـر جوانبه ونقله الى شعـر جديد ابتدأت فلسفته من اليوت ، وانتهت بمـن تدعوهم بعض اتجهات باشعراء المبدعين ممن لا يحسنون قراءة بيت اصيل موزون فضلا عـن نظمه ..

ما مصير ما يحمله شعرنـا الاصيل ممـا اسلفت بعضه اذا فتحت ناشئتنا اعينها على غيره ، وصدفت عـن تـــذوق شعرهـا وتلمس شخصيتهـا من خلاله ..

٥ ـ تؤدي المجامع العلميـة واللغويـة في بعض الاقطار العربية واجبا لهـا واجب الشكر عليه ولكنه في اطار محدود .. فمـا هـي الوسيلة لتوحيـد هذه المجامع في مجمع واحد ، يعمل للغـة واحدة، وفي امة واحدة ، وعلى مستوى اقوى وامضى .. ليصدر اللســان العربي في تعريبه وتهذيبه وتصحيحه وترجيحه .. عن مصدر واحد.. يتلقى عنه القول الفصل والحكم العدل ...

هذه بعض الجوانب التي نحملها ونطرحها بين ايديكم رجعا لمـا سمعنـاه وصدى لما يعلق على مؤتمركم من آمال تتجاوز حد القرارات والتوصيات الى حيز العمل والانتاج ..

ان هذه الجوانب المحسوسة ملموسـة لديكم وانها لتنتظر حكمكم وبراءة ذمتكـم منها .. وان الرجاء في مؤتمركم ينتظـر خيرا كثيرا ..

كلمـة الوفـد السوري

والقى الاستاذ جورج صدقني رئيس الوفد السوري الكلمـة التاليـة :

نجول في خاطري وانا اقف على منبر من منابر هذه العاصمـة العربيـة الاصيلة . وامام هذه النخبة من قادة العرب ، ادباءوسياسيين شعـراء ومفكرين . تجول في خاطري فكرة واحدة هي تحية سوريـا العربيـة اليكـم : ان نعيد وحدتنا من حيث بدأت .

فالكلمة العربية ، بيانهـا خصبا ،ابعادها هي التي وحدت بيننا في الماضي وهي التي تجمع بيننا اليوم .

صحيح ان الاقتصاد هو اساس الوحدة ، وان السياسة هي التي اذ تخطط ترسم لهـا اهدافهـا واستراتيجيتها .

ولكن الادب اكثر من ذلك : انه روحهـا فالادب شعرا كـان ام قصة ، مسرحية كـان ام فكرا ثقافـة . والثقافـة ليست امرا يضاف الى الانسان ولا ترفا ، ولا بعـدا من ابعاده ، بل هي الانسان ينشىء ذاته اذ يقـول مصيـره .

او هي تربية ، والتربيـة هي فـن الكشف عـن امكانات الانسان عن مستوياته القوميـة والانسانية وتفجيرهـا وتنظيمها عالما حرا يسهم في انشاء الحضارة العالميـة .

لقد اغتصب تاريخنا ، وارضنا سبيت ، كما تعلمون فحركتنا هي حركة استعادة الارض والتاريخ استعادة الوجود .

والادب جزء لا يتجزأ من هذه المعركـة الحاسمة هو وهي امــر واحـد .

ان يلتقي ادباؤنـا من مختلف اقطار العروبة ، ان يتعارفوا ،ان يبحثـوا مشكلاتهم ومشكلات امتهم ذلـك هـو الطريق للوحدة والحرية والاشتراكيـة .

ونجول في ذاكرتي الموضوعات التي بحثتم في مؤتمراتكم السابقة، في ثلاثـة متكاملة ترتد الى مـا ذكرت ، كل منهـا يلخص ويحتـوي مـا يلـي :

ان يلتقي ادباؤنا من لقاء يعالجون جانبا من جوانبها البارحـة زج كل الامكانات وحشد كل الطاقات في سبيلهـا واليوم ، صراعهـا مع الامبرياليـة التي اصطنعت اسرائيل ((كلب طروادة)) كمـا قال او بالاحرى رسم احد كبار رسامينا ، وقد تصطنع غيرهـا وغيرها ،ساحا تنفذ منه الى عقـر دارنـا .

الثاني : الادب من حيث هو حريـة والتزام ، صياغة فنيـة لقضايا نستشرف عبرهـا مستقبلنـا .

ذلك كان في العام الفائت وقبله التراث واليوم علاقاتنا بالتكنولوجيا نقولهـا كـي نسيطـر عليهـا . فاذا انت لم تكـن سيـد الالة التي تستخدم ، سيطرت عليك واخضعتك لسلطان الذي يصنعها .

الثالث : هـو الاديـب ، حريته ،الكتاب وتداوله . فالاديـب الحق هـو الذي يقول للحاكم كلمـة الحق تبيـن فينصاع لها .

ولقد رأينـا حتى الان ونحـن نستيقظ من غفلة التاريخ رأينـا في الاديب اداة نستخدمها ، وفي الكتاب سلعـة تخضع لكل ضوابط السلـع فترسخ القطريـة .

فالحرية للاثنين ، هذا هـو شعارنا اليوم . هذه هي معركـة الاديـب .

فالحرية لا تعطى بل تؤخذ . فالادب سياسته ، هي التي ترتسم تدريجيـا في مؤتمراتكم وعليكـم ان تواصلوا رسمهـا باصرار فالنصر لمن يصعـد على ارض المعركـة .

ان الاديب صنو السياسي ، كل منهمـا يكمل الاخر :

الاول يكشف لنـا عـن ثغرات السياسة ، وعلى الثاني أن يسدها فتعريـة التزييف هي التي تعصم الحاكم من الشطط .

الاول يفتح آفاق المستقبل طرفا يختار الثاني منهـا ما يلائـم المرحلـة الراهنـة .

الاول قول والثاني انجاز . والقول الحق يستحيل لتوه عملا . اما العمل بدون القول فتخبط في الظلمه .

كـان مغربنـا منارة يـوم كبا مشرقنا . وها هـو اليوم ينضـم الى المشرق لتستكمل الامة شروط وجودها فـلا مشرق ولا مغرب ، بل امة واحدة تنهض لتصبح كمـا كانت ، بمقياس الانسانية .

هذا الهدف العظيم ، لا يعلو عليه اي هدف اخـر في الحيـاة الدنيا . هـو الذي تنشده سوريـا العربيـة لكم منهـا تحيـة حارة ، اذ ان الهدف واحد هـو حرية الامة ووحدتها .

كلمة رئيس الوفد الفلسطيني

والقى الاستاذ يوسف الخطيب كلمة الوفد الفلسطيني :

يجمعنا اليوم في رحاب هذا البلد العربي العريق اننا ابناء امـة واحدة وابناء وطن واحد .. ولكن .. لعل مـا يجب ان نجتمع مـن حوله اكثر من ذلك ، واخطر من ذلك ، هـو اننا جميعا ، على اتساع رقعة ما بين المحيط والخليج . نقع ضمن دائرة تحد واحدة ، ويخطط لنـا مصير مظلم واحد ..

ولذلك اسمحوا لنـا ايهـا الاخوة ان نقرر الحقائق في صيغتهـا المبسطـة التاليـة : وهي ان رجالنـا الذيـن سقطوا ويسقطون منـذ نصف قـرن ،على ساحـة الصراع المحتدمة في فلسطين انمـا هم في الوقت نفسه خط الدفاع المتقدم عـن الامة العربية كلهـا ، وعن الوطن العربي كله .. وما لـم نستوعب هذه الحقيقـة بادراك عميق مـن مستوى الخطر المصيري الداهم ، فـان علينا اذن ان ننتظـر حتـى نـرى الخطر الصهيوني وهـو يقرع هنـا على ابواب تونس ، او وهو يزحف هناك على امارات الخليج العربي ، او وهـو ينصب اعلامـه على مداخل المدينة المنورة .. ومعذرة ايهـا الاخوة ان كان في مثـل هذا النذير ما يثير لدى البعض نوعا مـن الاعراض او الاستخفاف ،فلقد سبق لنـا منذ خروجنـا الفلسطيني الاول سنة ١٩٤٨ ان طرقنا علـى ابواب عواصمكم ، نحذركم ، ونستنفركم ، ونستجمع قواكم على اساس اننا واياكم يستهدفنـا تحد خارجي ، وعلى اساس اننا واياكـم ، كفارة جديدة من الهنود الحمر ، موضوع مذبحـة تاريخية واحـدة .. ولكـن .. وعلى الرغم من انقضاء قرابة جيل من الزمن ونحـن نحذر ونستنفـر ، وعلى الرغم ايضـا ممـا اسفرت عنه معارك الايام الستة في حزيران ، فاننـا ،على مـا يظهر ، لـم نع الدرس جيدا ، ولـم يزل بيـن ظهرانينا من يفضل ان ينظـر الى القضية الفلسطينية فـي حجم ترابها ، وفي حدود اصحابها ومن هنا بالذات ، يتعيـن علينـا نحن حملة اقلام هذه الامة ، ان نشرع رؤوس اقلامنـا كأسنة الرماح، وان نخز او نوقظ او نستفز كل خليـة في جسد شعبنا العربي ، وان نستحضرهـا بقوة في معركـة المصير الحاسمة .. وان نتحمـل في سبيل ذلك كله مـا يقرب من عذاب الانبياء ..

هذا على ما نعتقد هو الهم الاساسي الاول الذي ينبغي ان يتصدى له كل اديب عربي ، وان نتحرك في مجاله كل قريحـة وكل الهمم .. واما على مستوى المرحلة الراهنة ، فاننـا نطالب مؤتمركم بان يقف معنـا بقوة في مواجهـة مخطط الحصار الذي اخذ يلتف مؤخرا حول الثورة الفلسطينية ، وحول عنق شعبنـا العربي الفلسطيني بالذات .. اننا نطالب مؤتمركم ايضا بـان يعمق قضيتنـا المشتركـة فـي اذهـان الجماهيـر في مختلف اقطار الوطن العربي ، وبأن يناضل معنـا على مستوى الرأي العام العالمي على اساس اننـا نخوض اشرف معركـة انسانية مرت بذاكرة الانسان ، وعلى اساس أن لنـا الحـق في أن نستخدم جميع الوسائل المتاحـة لنـا في سبيل بلـوغ اهدافنا الانسانيـة تلـك .. .

اننا نطالبكم ، وهذا من ابسط حقوقنا عليكم ، ان تقفوا معنا في مواجهـة حملة تصفيـة القضية الفلسطينية ، عـن طريق تصفية العنصر البشري الفلسطيني نفسه ، لانه اذا قدر لهذه الحملة ان تأخذ مداهـا فسوف تنعكس بأخطـر الآثار على مختلف اقطار الوطن العربي

ايهـا الاخـوة :

صحيح ان شعبنـا العربي الفلسطيني لا يملـك السيادة علـى ترابه القطري الذي يقع تحت احتلال الصهيونيين .. ولكن الصحيح ايضـا هـو ان شعبنـا هذا يملـك الشعور القوي القومي بان الوطن العربي باكمله هو فلسطينه الاخرى .. فلسطينه الكبرى وانطلاقـا من هذا فان وفدنـا الى مؤتمركم يملك الحق ان يدعو مؤتمركم الى عقد دورته القادمة ، او مـا بعدها ، ان لم يكـن على أرض الوطن الفلسطيني فعلى ارض القضية الفلسطينية التي نعتقـد انهـا تتسع وتمتد مـن المحيط الى الخليج ..

اننا نسجل في هذه المناسبة حقنا في دعوة مؤتمركم على ساحـة القضية الفلسطينية . وفي الوقت الذي نعلم فيه جيدا ان هناك اكثر من قطر عربي واحد يرحب بحرارة ، ان نحقق هذه الدعوة فوق ترابه لدرجة ان قطـرا كالعراق لا يرى بأسا ان يضيع جزء من خريطته الوطنية تحت علم الثورة الفلسطينية فان مخيم الرسول في قطرنـا العربـي السوري الصامد هو المكـان الاكثر ملاءمة لتوجيه مثل هذه الدعوة ،

لانه اكبر مخيمات شبابنا الفلسطيني منذ عام ١٩٤٨ ولئن لم نحصل من اخواننا العرب السوريين على ايما اذن مسبق بذلك ، فلانهؤلاء الاخوة قد منحونا الشعور دائما باننا نقيم معهم بين اهلينا ، وفوق ترابنا ، ولا حاجة بنا الى مثل ذلك الاستئذان .

وختاما ، نأمل ان يعمل مؤتمرنا في دورته الحالية هذه على تقريب الادب العربي اكثر فاكثر من صميم القضية الفلسطينية لانها باختصار هي التسمية الاخرى لقضيتنا العربية الواحدة ، وشكرا .

كلمة رئيس الوفد المغربي

والقى الدكتور عبد الكريم غلاب كلمة المغرب :
سيداتي سادتي .

باسم اتحاد كتاب المغرب أحيي المؤتمر التاسع للادباء العرب وأرجو له كامل التوفيق لاستخلاص نتائج فكرية وعملية مهمة من الموضوعات المعروضة على بساط الدرس .

وأعتقد ان الادباء العرب جديرون باستخلاص هذه النتائج . فلم يعد الاديب العربي يتطلب منا ان نعقد المؤتمر تلو المؤتمر نجتمع فيها ونتعارف وجوهنا بعد أن تعارفت أقلام البعض منا ثم نفترق ليبقى هذا المؤتمر ذكرى في نفوس الذين يذكرون بعض مقرراتنا تكون التزامات فكرية وأخلاقية ، وبعضها التزامات عملية قد يكون لها لو نفذت اثر مهم في تقارب الفكر العربي ازاء القضايا الاساس في الوطن العربي وأثر مهم في كسر الطوق عن الفكر العربي سواء منه الطوق الذي يقيد حريته داخل الاقليم الذي يعمل فيه او داخل الوطن العربي الكبير ، او الطوق الذي ما يزال يفصل بين البلاد العربية مصرها وشامها وعراقها ومغربها فيمزق وحدتها ويفرق بين المفكرين والكتاب العرب فلا يقرأ أحدهم للاخر ولا يتجاوب معه فكرا وكتابة وعملا .

أعتقد ان مقرراتنا فيصف المؤتمرات يجب ان تستهدف - في مقدمة ما تهدف اليه - كسر الطوق والتحام المفكرين والكتاب العرب حتى يكونوا مجتمعين طليعة رائدة لعملية التحويل والتطوير التي نريدها للوطن العربي ، وأكثر من ذلك يجب ان تكون مقررات عملية حتى تخرج من نطاق الالتزامات النظرية والاخلاقية الفردية ، وحتى يمكن للاتحاد العام للادباء العرب أن يسهر بجد على التنفيذ والتطبيق ، وبذلك يخرج من نطاق الالتزامات الفردية ، وحتى يمكن للاتحاد العام للادباء العرب أن يسهر بجد على التنفيذ والتطبيق ، وبذلك يخرج من نطاق هيئة تحضيرية للمؤتمرات الى هيئة منفذة عاملة تعكس العمل الحركي الذي يعتمد داخل الاتحادات الاقليمية للكتاب والادباء العرب في مختلف الاقطار .

ولعل أهم رسالة يضطلع بها مؤتمر كهذا هي تدعيم حرية الكلمة والدفاع عنها ، فما من شك في ان حرية الادباء والمثقفين في التعبير عما به يؤمنون من رأي وفكر ما تزال نقطة الضعف في الانفصال الثقافي والفكري الذي يقوم به الادباء في الوطن العربي عامة ، والحكومات في مختلف هذه الدول ما تزال تمنح لنفسها الوصاية على الفكر والادب وتعتبر التزام الادباء والكتاب التزاما لها ومن هنا يبتدىء سوء التفاهم الذي يفصل احيانا ، وفي بعض البلاد العربية ، طبقة كبيرة من الادباء عن مجال العمل المتجانس مع المسؤولين السياسيين لخير الوطن العربي ، وقد يتطور سوء التفاهم هذا الى اصطدام بين رجال الفكر ورجال السياسة نتيجته الاولى انسحاب الاقلام عن المعركة التي تخوضها شعوبنا ، وهي نتيجة محزنة للادباء والمثقفين الذين يفصلون عن اداء رسالتهم ، ومحزنة للمعركة المفروضة على شعوبنا من جهة أخرى . وهل رأيتم معركة تخوضها شعوب في انفصال عن رجال الفكر والثقافة والكلمة ؟

لذلك أصبح نضالنا نحن المؤتمرين في سبيل حرية الكلمة في مقدمة رسالتنا في هذا المؤتمر . ولذلك أقترح أن نضيف نقطة الى جدول الاعمال نؤسس لجنة فرعية من لجان المؤتمر لدراستها والتقرير فيها هي :

تقييم الحريات المكفولة للفكر والتعبير في الوطن العربي قانونيا وتطبيقيا ودراسة وسائل ضمانها والدفاع عنها .

على ان تتكفل الامانة العامة لاتحاد الادباء العرب بتتبع هذا الموضوع والعمل لتنفيذ مقررات المؤتمر عنه .

أيها الزملاء .

اذا كنا نجتمع اليوم - ولاول مرة - في تونس العربية فاني أعتبر هذا الاجتماع الخطوة الاولى لاجتياز القنطرة المسدودة بين المغرب والمشرق العربيين ، فقد فصلت عهود التخلف بين المثقفين هنا وهناك بعد ان كانت دنيا العرب والاسلام متصلة الحلقات وخاصة في ميدان الفكر والثقافة . وجاء الاستعمار فأحكم القطيعة ووثق الحدود ، ثم نفضنا أيدينا من الاستعمار وما تزال الحدود الفاصلة قوية محكمة متينة ، ما يزال الاديب في المغرب غريبا في المشرق ، والاديب في الشام أو العراق او السودان غريبا في بعض هذه البلاد ، وما نزال نعالج في اجتماعاتنا واحيانا في كتاباتنا موضوعات بدائية تتعلق بوسائل الانتصار على القطيعة وبطريقة تعريف الادباء بانفسهم حتى لا يظل الادب العربي الحديث غريبا في بلاده ، في الوقت الذي نرجو له ان يجتاز حدود العالم العربي ليطرق باب العالمية ، ثم ما يزال الباحثون منا والكاتبون يقدمون مثلا دراسات عن أفق من آفاق الادب العربي الحديث يعالجونه في مصر او السودان أو الشام ثم لا ترد في هذا البحث أو الدراسة كلمة عن حظ بلاد المغرب من هذا الافق ، وما تزال الاغلبية الساحقة من قرائنا في المشرق تجهل كل شيء عن القصة او الرواية او الشعر أو الدراسة في بلاد المغرب .

ما أريد ان أكرر البحث عن اسباب هذا التخلف في ادراك معنى العالم العربي ونحن ننتمي اليه قوميا او سياسيا ، ونحن نقرأ أدبه او ندرس انتاجه ، ولكني اريد فقط ان اجعل من هذه البادرة الفريدة حتى الآن ، بادرة اجتماع مؤتمر الادباء العرب في تونس ، فاتحة لتغيير المفاهيم - التي عمقتهـا في افكارنا عصور التخلف والاستعمار - عن العالم العربي ، وعن الادب والبحث والدراسة في شؤون الفكر العربي .

وحري بتونس ان تنهض من جديد بالرسالة التي نهضت بها من قديم ، فقد كانت القيروان سبيل العروبة والاسلام الى اقطار المغرب الاخرى ، واليوم ينعقد في تونس هذا المؤتمر الذي نرجو له النجاح ليحمل هذه المدينة رسالة تحطيم السد - على الاقل في الميدان الثقافي - بين شرق الوطن العربي وغربه ، وأعتقد انه لم يعد لاحد منا عذر بعد هذا المؤتمر في ان يتجاهل اقطار المغرب وهو يكتب او يدرس او يقرأ او ينشر عن الفكر العربي عموما ، فسيعرف الاخوان المشارقة من زيارتهم لتونس - باب المغرب الكبير - ومن اتصالهم بادبائها وادباء الجزائر والمغرب اية مسؤولية يتحملونها من جهتهم في كسر السد واجتياز الحدود .

اننا نعلق آمالا كبيرة على هذا المؤتمر لا من اجل تحقيق مقرراته النظرية والعملية فحسب ، ولكن من اجل تقوية الصلة بين المغرب والمشرق في كل الجهود الفردية والجماعية التي يقوم بها المثقفون لبعث نهضة ثقافية ادبية في الوطن العربي .

وشكرا لتونس الشقيقة التي تحملت العبء ، مرة اخرى ، لتؤدي رسالة هذه الصلة ، شكرا لها على المجهود الكبير الذي تموه به لانجاح هذا المؤتمر ومهرجان الشعر ، وعلى الضيافة الكريمة التي خصصتها لهذه النخبة من المثقفين الذين وفدوا عليها والعافية للجزائر والمغرب .

كلمة رئيس الوفد اليمني

والقى الاستاذ عبدالله فاصل فارع رئيس الوفداليمني الكلمة التالية :

السيد المجاهد الاكبر الحبيب بو رقيبة .
رئيس جمهورية تونس الحبيبة
السيد رئيس المؤتمر الموقر السادة والسيدات والاوانس من الحاضرين والحاضرات .
السلام عليكم .

يسعدني التقدم اليكم باسم وفد اتحاد الادباء والكتاب اليمنيين الذي يسابق ويواكب ركب الوحدة اليمنية المرجوة هذا العام والذي يشمل ممثلين عن شمال اليمن وجنوبه .. يسعدني التقدم اليكم جميعا وعموما بخالص التحية والود والتقديروللشعب العربي في تونس الشقيق تحياتي واعجابي بتقدمه الحياتي بقيادة زعيمه الحبيب بو رقيبة الذي شمل الادباء العرب بعنايته وباعطائهم منه الاهتمام البالغ وهذا دليل على وثاقة الروابط التاريخية الاصيلة التي تشد الامة العربية الى بعضها في الوطن العربي .. بكل آمال الامة العربية وطموحها الى التقدم والازدهار .

ان الشعب اليمني العريق الفتي ، الذي جاء وفد اتحاد الادباء والكتاب اليمنيين ممثلا له في هذا المؤتمر ، انما يتطلع وهو وهو يضع اللمسات الاولى في خططه لبناء المجتمع الجديد والموحد وشيكا .. انما يتطلع الى المزيد من الانجازات المحلية في عقر داره والانتصارات العربية الشاملة في شتى نضالات التحرر من التخلف والتمزق والى ارساء قواعد حضارة وحياة جديدتين من كل التجارب الانسانية اساسهما العلم والاستفادة من كل التجارب الانسانية الايجابية في مصلحة الانسان العربي .

وان الاديب ـ بصفته ـ المعبر عن طموح شعبه بالكلمة الهادفة تقع عليه مسؤولية كبرى يحددها التزامه بالقضايا العربية المصيرية، وتبنيه للافكار الانسانية البانية الايجابية الهادفة الى اعادة الكرامة للانسان العربي .

ولا شك ان انعقاد المؤتمر التاسع للادباء العرب في تونس ـ الارض العربية ـ المطلة على الحضارتين الشرقية والغربية ، انما جاء مؤكدا ان الفكر العربي بمجمل تجاربه ـ قديمة وحديثة قادر على التطور وعلى مواكبة التقدم العلمي التكنولوجي في العالم . وان سلسلة المؤتمرات العربية واللقاءات الادبية تعبير صادق وامين عن طموحات الادباء العرب في تجسيد آمال امتهم وتنظيم افكارها ونشرها، وفي تنسيق العمل الريادي الى آفاق حضارية واسعة يرفدها الفكر الانساني المعاصر ، بشروط ايجابية بناءة هادفة ، ليثري الثقافة العربية فتواكب التقدم العالمي .

وان توحيد معطيات الثقافة العربية وحماية الاديب عامل هام في توحيد الامة العربية ، وان وحدة الادباء بكل ما يحملون من افكار مخلصة هادفة وحرة من اجل الانسان العربي ، ووضع الاسس السليمة للمجتمع العربي المتحرر باوسع جماهيره ، تعتبر وسيلة مهمة من الوسائل التي يجب ان يعتني بها .

انني ووفد اتحاد الادباء والكتاب اليمنيين نأمل من صميم قلوبنا ان يتحقق لهذا المؤتمر النجاح ، وان يخرج بنتائج ايجابية في ظل القضايا الفكرية التي حددها جدول أعماله .. وشكرا .. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الوفود المشاركة في المؤتمر

الوفد الليبي

علي مصطفى المصراتي (رئيسا) ـ خليفة التليسي ـ حسن السوسي ـ علي الفيتوري رحومة ـ احمد ابراهيم الفقيه .

وفد اتحاد الكتاب الجزائريين

صالح خرفي (رئيسا) ـ ابو العيد دودو ـ ابو القاسم سعد الله ـ حنفي بن عيسى ـ عبد الله الركيبي ـ محمد الاخضر السائحي .

وفد اتحاد الكتاب العراقيين

محمد مهدي الجواهري (رئيسا) ـ شفيق الكمالي ـ ابراهيم اليتيم ـ سامي مهدي ـ جميل نصيف ـ فؤاد التكرلي ـ يوسف الصائغ ـ عبد الامير معله .
الملاحظون : علي الشوك ـ طراد الكبيسي ـ مالك المطلبي ـ محمد مبارك .

وفد اتحاد الكتاب اللبنانيين

سهيل ادريس (رئيسا) ـ خليل حاوي ـ ميشال سليمان ـ ادونيس ـ فؤاد الخشن ـ احمد ابو سعد ـ ميشال عاصي ـ انطوان ملتقى .

وفد اتحاد كتاب المملكة السعودية

عبد الله بن خميس (رئيسا) ـ حسن عبد الله القرشي ـ حسن زيدان ـ محمد سليمان الشبل ـ عثمان القرعاوي .

وفد اتحاد كتاب البحرين

علي عبد الله خليفة (رئيسا) ـ يعقوب يوسف المحرقي .

وفد اتحاد الكتاب الكويتيين

احمد السقاف (رئيسا) ـ عبد الرزاق البصير ـ محمد المشاري ـ خالد سعود الزيد ـ سليمان الشطي ـ عبد الله محمد الشيتي .

اتحاد كتاب فلسطين

يوسف الخطيب (رئيسا) ـ محمود درويش ـ خالد ابو خالد ـ حسام الخطيب ـ رشاد ابو شاور ـ عبد الكريم الكرمي ـ خالد علي مصطفى .

وفد اتحاد الكتاب اليمنيين

عبد الله فاضل فارع (رئيسا) ـ عبد الله البردوني ـ عبد الله الملاحي ـ محمد سعيد جرادة ـ عبد الله سلام ناجي ـ القارصي عبد الرحيم ـ جعفر رفاعي ـ احمد محفوظ عمر .

وفد اتحاد الكتاب السوريين

جورج صدقني (رئيسا) ـ انطوان مقدسي ـ خلدون الشمعة ـ محيي الدين صبحي ـ عزيزة هارون ـ احمد سليمان الاحمد ـ شوقي بغدادي ـ عبد الكريم الناعم ـ فائز خضور .

وفد اتحاد الكتاب المصريين

عزيز اباظة (رئيسا) ـ صالح جودت ـ احمد هيكل ـ محمد عبد الغني حسن ـ احمد رامي ـ محمود حسن اسماعيل ـ ابراهيم الورداني ـ عبد العزيز الدسوقي .

وفد المكتب الدائم للادباء العرب

يوسف السباعي ـ عصام الحيني ـ زكي ابراهيم غنيم ـ عثمان خليل ـ صلاح الدين عبد التجلي ـ حسين فؤاد رزق ـ شرفي فهيم .

وفد اليمن ((صنعاء))

ابراهيم حضراني ـ علي بن علي صبرة .

المدعوون بصفة شخصية

الدكتورة بنت الشاطىء ـ الطيب صالح ـ يوسف عز الدين ـ عبد الوهاب البياتي ـ امبرتو ريزيتانو .

الوفد التونسي

محمد مزالي (رئيسا) ـ محمد العروسي المطوي ـ مصطفى الفارسي ـ ابو القاسم محمد كرو ـ البشير بن سلامة ـ احمد القديدي ـ جعفر ماجد ـ الحبيب الجنحاني ـ الطيب العنابي ـ سليمان مصطفى زبيس ـ الطاهر قيقة ـ المنجي الكعبي ـ عز الدين المدني ـ الحبيب عباس ـ احمد المختار الوزير ـ عبد العزيز قاسم ـ محجوب بن ميلاد ـ التهامي نقرة ـ الميداني بن صالح ـ نور الدين صمود ـ محسن بن حميدة ـ محيي الدين خريف ـ البشير خريف ـ الهادي المدني ـ عمر بن سالم ـ ابو زيان السعدي ـ محمد صالح الجابري ـ الجيلاني بن الحاج يحيى ـ عبد الواحد ابراهيم ـ المختار جنات ـ محمود طرشونة ـ محمود التونسي ـ محمد المرزوقي ـ جلول عزونة ـ ابراهيم بن مراد ـ رضوان الكوني ـ نور الدين بن بلقاسم ـ ليلى مامي ـ محسن بن ضياف ـ محسن الحبيب ـ محمد الشعبوني ـ بوبكر عبد الكافي ـ عبد القادر بن الشيخ ـ رشيد الذوادي ـ الهادي عبد الملك ـ محمد الحبيب ـ البشير الزريبي ـ محمد الحليوي ـ فاطمة سليم ـ الطيب الرباحي ـ حسين التريكي ـ منور صمادح ـ جمال الدين حمدي ـ عبد المجيد بن جدو .

البيان الختامي للمؤتمر

ان العصر الذي تجتازه الانسانية اليوم ، والذي يتميز باستبسال الشعوب المقهورة وصمودها في مواجهة الامبريالية العالمية بما يحمل من تطورات عميقة الاثر بعيدة المدى ، يفرض مسؤولية خطيرة على الامة العربية جمعاء ، وعلى الادب العربي بصفة خاصة ، وهو الصوت المعبر عن وجدانها والعامل الخلاق الذي يسهم في اثراء ثقافتها كما يشارك في صنع الحضارة الانسانية كلها .

وادراكا من الادباء العرب بهذه المسؤولية التاريخية ، انعقد مؤتمر الادباء العرب التاسع في تونس ، في الفترة بين ١٨ و ٢٥ مارس ١٩٧٣ وشاركت في المؤتمر وفود من خمسة عشر بلدا عربيا هي : البحرين ، تونس ، الجزائر ، السودان ، سورية ، السعودية ، العراق ، فلسطين ، الكويت ، لبنان ، ليبيا ، مصر ، المغرب ، وجمهوريتا اليمن ، كما شارك فيه ممثلو جامعة الدول العربية واتحاد الكتّاب الافريقيين الاسيويين .

ان الادباء العرب لعلى يقين من ان العصر الذي يعيشون فيه اليوم هو العصر الذي تقف فيه الامة العربية كلها على عتبات تطور حضاري شامل لا سبيل امامها الا ان تسهم فيه اسهاما خلاقا ايجابيا ويستلهم روح تراثها العريق كما يستشرف آفاق المستقبل ، اسهاما ينبثق من القيم الروحية والانسانية السامية التي كانت ـ وما تزال ـ من الاصول الراسخة للانسان العربي بل ونبعا فياضا للحضارة الانسانية كلها يتمثل ويستوعب كل الانجازات العلمية والتكنولوجية التي حققتها هذه الحضارة ، اذ ان التحدي الذي يفرضه العصر على هذه الامة يلزمها بان تتجاوز مرحلة التخلف والتلقي والسلبية الى مرحلة الافاضة والخلق والابداع الحضاري وهي التي تملك كل مقومات الخلق والابداع .

والادباء العرب يدركون أعمق الادراك ان هذا التحدي يمتد على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي والثقافي على السواء ، وانه يرتبط أوثق الارتباط بمعركة المصير العربي كله في مواجهة العدوان الصهيوني الامبريالي ، وبالرغم من ان قوى الاغتصاب والتوسع والعدوان الصهيوني ما تزال تحتل أرضا عربية غالية وتهدر حقوق شعب فلسطين المقدسة ، فان الامة العربية تقف في صمود واستبسال لا هوادة فيه وقد عقدت العزم ، وطيدا صلبا لا يتزعزع ، على ان يسترد شعب فلسطين حقوقه القومية على أرضه وفي وطنه كاملة لا تمس ، وعلى أن يستعيد أرضه المغتصبة التي لن تسمح بأن يستباح منها شبر واحد ، وعلى ان تواصل معركة البناء والتشييد والتقدم الاجتماعي والحضاري ، كما يؤكد الادباء العرب التزامهم بدورهم الطليعي الايجابي في معركة تحرر الارض العربية واستعادة الحق الفلسطيني وبأن يضعوا كل طاقتهم في مواجهة التحدي الصهيوني سواء كان ذلك في النطاق العربي او العالمي .

ويؤكد المؤتمر ان قضية تحرير التراب العربي الفلسطيني ، والتراب العربي المحتل بأكمله ، هي القضية المركزية التي ينبغي ان يتحرك من خلالها النضال العربي على مختلف ساحاته السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية ، ومن هنا يتوجب على الاديب العربي ان يضع القضية الفلسطينية في صميم اهتمامه على اعتبار ان حرية الانسان والوطن العربيين ستظل منوطة بهزيمة التحالف الصهيوني الامبريالي ودحره الى غير رجعة عن ساحة الوطن العربي ، وفي هذا النطاق ، فان مؤتمر الادباء ليستنفر جميع الطاقات الادبية العربية ان تقف في صف الثورة الفلسطينية ، وان تهيىء جماهير الامة العربية لخوض حرب تحرير شعبية شاملة تسهم فيها القوى الشعبية المسلحة جنبا الى جنب مع القوات النظامية ، وان ترفع اصواتها عالية ومؤثرة ضد جميع قوى الظلام والقهر التي تتحالف حاليا او مستقبلا ضد هذه الثورة على أي مستوى وبمختلف الوسائل والاساليب ، كما يطالب المؤتمر الادباء العرب ايضا بأن يناضلوا الى اقصى الحدود ضد مؤامرة تصفية القضية الفلسطينية التي اتخذت مؤخرا مظهر تصفية العنصر البشري الفلسطيني ، وبان يناضلوا كذلك لتمكين الشعب العربي الفلسطيني من مواصلة نضاله حتى بلوغ أهدافه النهائية في تحرير أرضه وممارسة سيادته الكاملة .

وان الاديب العربي مدعو اليوم لتفهم الظروف التاريخية الاجتماعية للقضية الفلسطينية وظروف النضال العربي ضد الصهيونية والاستعمار بحيث تكون معالجة هذه القضية وما يتصل بها مستندة الى

الفهم والتحليل العميقين ، وبحيث تسفر عن طرح نظرة متوازنة مسؤولة لمستقبل النضال العربي وتحرير فلسطين ، من شأنها ان تكون الرد الفعال على موجة التشاؤم والاستسلام التي تكاد تطبع المرحلة بطابعها الخطير هذا .

على ان يأتي موقف الادباء العرب مبرزا للعناصر الايجابية الكامنة في الموقف العربي بغرض توجيه النضال العربي باتجاه الثقة بالنفس والايمان بامكانية تحقيق اهداف الامة العربية عن طريق النضال الواعي العتيد .

يسجل المؤتمر انطلاقات تجربة الكفاح الطويل البعيدة المدى مع الصهيونية . ان الكفاح المسلح هو الطريق الوحيد لاستعادة الكرامة العربية الجريحة ، لا سبيل الى هذا الكفاح المسلح الا بتوحيد الجبهة العربية في أي قطر عربي ، واخراجها من ازمة التشتت الذي تعانيه .

ويدرك الادباء العرب ادراكا تاما ان مسؤوليتهم التاريخية اذ يقفون في طلائع هذه الامة ، ويشاركون ، بكل ما يملكون من وسائل وأدوات، في نضالها ضد قوى الامبريالية والاستعمار والصهيونية والعنصرية ، وفي توطيد قيم الحرية والعدالة والتكافل الاجتماعي والبناء الاشتراكي ووحدة الشعب العربي والسلام القائم على العدل وفي العمل الجاد المسؤول من أجل مواجهة تحديات العصر ، ودحر فلول التخلف الحضاري ، وتوكيد المقدرة على الاسهام في الثقافة الانسانية، والسيطرة على المنجزات الحضارية بل والاضافة اليها واثرائها .

يؤيد المؤتمر تأييدا مطلقا كل الحركات التحررية في آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية ويحيي باكبار انتصار الشعب الفيتنامي ويسجله كمثال يحتذى في الشعوب المضطهدة .

ويؤكد الادباء العرب التزامهم بالدفاع عن قضايا التحرر الوطني في كل مكان من العالم تخوض فيه الشعوب نضالها ضد قوى العدوان والعسف الامبريالي ، وضد جور الطغيان الاستعماري ، وضد امتهان التفرقة العنصرية ، وضد جشع الاستغلال الاقتصادي والاحتكارات الدولية ، اذ انهم يدركون ان قضايا التحرر الوطني من اهم معالم هذا العصر ، وهي محور التغير الحضاري فيه بمواجهة القوى الامبريالية والعنصرية والصهيونية ، وان قضية التحرر الوطني العربي وكفاح الشعب الفلسطيني جزء لا يتجزأ من الكفاح التحريري في العالم كله ، يدعمه ويضيف اليه كما يستمد منه قوة ومددا على السواء ، وان الادباء العرب ليدركون أعمق الادراك انه على عاتقهم تقع مسؤولية الوصل بين تراثهم الأصيل الحي وقيمهم الحضارية الباقية وبين روح العصر المتطورة ، وانه من اوجب واجباتهم مواكبة الابداع الحضاري المعاصر الذي ينطلق الى المستقبل بلا توقف .

كما يؤمنون اعمق الايمان بحتمية التمسك بحرية الاديب النابعة من مسؤوليته والتزامه بدوره في معركة تحرير الارض واستعادة الحق ومن اجل البناء والتقدم والعدالة الاجتماعية ووحدة الشعب العربي والسلام ، كما يؤمنون بضرورة مقاومة كل ارهاب فكري وكل قيد على حرية التعبير ، وعلى الامانة العامة ان تبادر فور وقوع مثل هذا في أي قطر عربي الى ممارسة مسؤولياتها كاملة ، كما يطلب الادباء جميع الحكومات العربية توفير الحرية للاديب العربي ، الحرية المسؤولة للتعبير عن آرائه وأفكاره .

ان الحرية النابعة من المسؤولية عامل من اقوى العوامل في اداء هذه الرسالة ، والنهوض بهذه التبعة ، وان التزام الاديب بقضايا شعبه ونضاله وهمومه وآماله انما هو التزام بمواجهة قضايا العصر ورصيد ضروري للانتصار في هذا التحدي الحضاري المعاصر ، ولقد كان الادباء – وسيظلون دائما – طليعة هذه الامة ، يؤكدون حريتها ويذودون عن اصالتها ، ويشقون الطريق الى مستقبلها ، بما يصدر عن القيم الحية في تراثها ، وما يتسق مع واقعها الراهن وما يندرج في سياق تطورها نحو الغد المشرق .

ويضع الادباء العرب في مؤتمرهم التاسع قراراتهم وتوصياتهم امانة بين ايدي مختلف اتحادات الادباء والكتاب وهيئاتهم الثقافية في شتى أقطار الوطن العربي مطالبين حكوماتهم ان توفر لهم جميع الامكانات اللازمة لوضع هذه القرارات والتوصيات موضع التنفيذ .

ويسجل المؤتمر تقديره واعتزازه بدور الادباء في العالم الذين يقفون وقفة مشرفة شجاعة لشجب الاعتداءات الاسرائيلية على الادباء ومنها حادثة الطائرة الليبية ، كما يسجل بمرارة تخاذل بعض الكتاب الآخرين الذين ينطلقون في مواقفهم من مثل هذه الاعتداءات منزاوية عنصرية حاقدة متحاملة .

ويؤكد المؤتمر على وجوب الحفاظ على اصالة اللغة العربية واحترام قواعدها ، ويدعو الجهات المسؤولة في العالم العربي الى تبني ذلك والدفاع عنه .

ويحيي المؤتمر في ختام أعماله الكتاب والشعراء الصامدين ضد البطش الصهيوني في الأرض العربية المحتلة ، وكذلك قافلة شهداء الكلمة العرب التي بدأت بالشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود ولن تنتهي بالشهداء غسان كنفاني ووائل زعيتر ومحمود الهمشري وعمر فهمي وصالح بويصير وسلوى حجازي ، كما يحيي الادباء المناضلين في جميع أرجاء العالم ، ولا سيما الادباء الفيتناميين الذين اسهموا الى ابعد الحدود في انتصار ثورة الشعب الفيتنامي ، والادباء الافارقة الذين يخوضون النضال في طليعة شعوبهم ضد الامبريالية والاستعمار والعنصرية .

ويعرب المؤتمر عن تقديره الكبير للدور الذي تنهض به الجمهورية التونسية في الارتباط بالقضايا العربية ارتباطا ايجابيا فعالا ، كما يعرب عن اعتزازه بأنه ينعقد ، لاول مرة ، في بلد عزيز من بلاد المغرب العربي الكبير بما يوثق الاواصر التاريخية التي لا تنفصم بين الشرق والمغرب في الوطن العربي الواحد ، ويزجي المؤتمر أعمق الشكر والامتنان للسيد الحبيب بورقيبة رئيس الجمهورية التونسية والمجاهد العظيم الذي قاد ويقود شعبه في نضال متصل تحقق فيه النصر على الاستعمار ومخططاته ويمضي فيه الجهاد متصلا من أجل البناء والتقدم، لتفضله برعاية المؤتمر وتشريفه لافتتاح اعماله ، وللتعاون الصادق والعمل الرائع الذي قام به اتحاد الكتاب التونسيين والامانة العامة لاتحاد الادباء العرب ، ومكتبه الدائم ، في سبيل الاعداد للمؤتمر وتحقيق النجاح له وللشعب التونسي الشقيق العزيز كله ، لما لقيته الوفود جميعا من حفاوة وطيب وفادة وكرم أصيل .

بيان من بعض الكتاب التونسيين

تلقينا البيان التالي من الكتاب التونسيين الموقعين أدناه :

لقد أردنا بمناسبة هذا المؤتمر الادبي الشامل أن نقول كلمة طالمافكرنا في قولها وعملنا على تجسيمها خاصة منذ بدأ الخلاف يتضح ويحتد ويتشكل بين موقفين من الادب والفكر على الصعيدين المحلي والعربي : العودوية والطليعة . ومما لا شك فيه أن الكثيرين على علم بعلل واسباب ومظاهر هذا التباين الموقفي الذي لا نعد التعبير عنه جديدا اذ سبق ان نشرت في شانه هنا وهناك بعض الكتابات وان

كانتغالبا ماتتسم بالوصفية الانطباعية وتقتصر الى الجراة والموضوعية والشمول .

ونحن لذلك ، ووعيا منا ، وتقديرا لما يمكن أن يكون للكتاب والمثقفين عامة في العالم الثالث من دور نضالي طليعي بدونه لا يبقى للكتابة ولهم أي مبرر ، فاننا نصدر البيان التالي ، متعرضين فيه بالتقييم الى المؤتمرات الادبية العربية عارضين وجهة نظرنا ، انضمنيا وان مباشرة ، فيما يجب أن يكون :

اولا : المؤتمرات الادبية العربية :

١) شعاراتها وابعادها منذ بدأت .

أ) مواجهة التحدي الصهيوني والامبريالي،وهي مواجهة متحتمة لا جدال في ذلك لكن طريقتهم في طرحها لايمكن أن ينتج عنها غير صرف الاهتمام عن المشاغل الحقيقية للجماهير الشعبية وتوجيهه نحو عدو يتعذر التصدي له باستمرار الاوضاع الداخلية على ما هي عليه أو اخر موهوم . واتجاههم هذا يعتمد استغلال الترسبات الحماسية لدى الشعوب حديثة العهد بالاستقلال فتستجيب له وان استجابة وقتية سرعان ما تزول .

ب) الالتزام بقضايا المجتمع ، وهو في نظرنا لا يمكن أن يكون غير الموقف النقدي العملي المستقبلي من الواقع وتناقضاته ، والمرتكز على نظرية علمية تقدمية ، لكن الالتزام الذي يرفعونه شعارا التزام يسفه الواقع وتكذبه الاحداث اذ طالما ظلت التوصيات والمقررات حبرا علىورق وبقي أصحابها علىكراسيهم والقضايا تتعقد باطرادوالمجتمعات تنتظر .

ج) تحقيق عالمية الادب العربي

والى حد هذا المؤتمر ظلت العالمية حلما وذلك لانعدام جواز السفر الحقيقي للادب وهو قيمته الفنية والنضالية كفرع من أخطر فروع الثقافة ولاستمرار رواسب منها النزعة العرقية والقومية العشائرية وما تخلف من المدارس الادبية كالرومنسية البدائية وكل ذلك حائل دون الالتقاء الوقفي الشامل .

د) الاصالة واحياء التراث : بدعوى صيانة الشخصية العربية وتمكينها من مجابهة تحديات العصر والتناقض بين في هذا المنطق اذ ان الحاضر ليس تكرارا للماضي واذ أن الاصالة في مفهومها الاصلي والحقيقي عمودية تنغرس في الحاضر الزماني والمكاني لا أفقية مجردة واذ أن أحياء التراث لا يمثل غاية في ذاته نعبيء لاجلها الادمغة ودور الطباعة والنشر ونصرف الاموال الطائلة بقدر ما هو طريق الى انتشال ما يستحق البقاء .

٢) وفودها الموفدة ومقاييس اختيارها :

لقد رجعنا الى قائمات الوفود التي تم ايفادها رسميا للمشاركة في المؤتمرات السابقة مثلما راجعنا جداول اعمالها وتبينت لنا جملة من المقاييس المعتمدة في اختيار المشارك أهمها الحرص على :

أ ـ توفر الصبغة الرسمية وعمق الانتماء للانظمة والحكومات القائمة واعتبار المنزلة الاجتماعية بحيث قد تطغي على ما سواها .

ب ـ توفر صفة الوداعة في شخص المشارك وأدبه .

ج ـ الاقتناع بصلاحية حضوره من خلال مشاركاته السابقة .

د ـ اجادة تطبيق المراسيم التشريفانية .

وتبعا لهذا نشأ جماعة من « المرتزقة » وتكونت طبقة من الكتاب الرسميين أصبحت تحن حنينا الى مثل هذه المؤتمرات لغايات عديدة يتمثل بعضها في الارتزاق والسياحة والترف خلال :

ـ المواكب والمآدب والحفلات وغيرها ؛

ـ الجولان في كواليس الاجهزة الرسمية .

ـ تعاطي افيون الكلام والتشبه بفرسان الهواء وفي ذلك تعويض عن غياب المواجهة الحقيقية وتشف وهمي من العدو بتناشد العصماوات والمعلقات وحمل اليمانيات والسمهريات واطلاق الصيحات العواقر .

ـ انتهاز وابتزاز الفرصة لتجسيم الوطنجية مع الحذر الدائم من الانزلاق ولو بكلمة تسقط في أذن .

ـ ربط شبكة الاصدقاء وتدعيمها للتندر والتذاكر بعد المؤتمر وتوسيع رقعة التحالف المصلحي . وقد نتج عن هذا كله أن :

ـ تجمدت القضايا المطروحة جملة وتفصيلا .

ـ تركز الاعتقاد في لا جدوى الكتابة واتسع الشك في دورها بل واليأس منها .

ـ تضخمت المصاريف والاعتمادات المخصصة التيكان يمكنانفاقها في ما يعني ويفيد .

ثانيا : حرية التعبير ايها المؤتمرون .. الحريات ..

ولعل ما ذكرنا يهون امام هذه القضية المبدئية اذ بدونها يكون كلحوار لاغيا مهما رفعت له الشعارات ، ولطالما تجاهلها البعض بل أن من بين المؤتمرين اليوم من يتولى في بلاده مهمات رقابية ارهابية ويخلص في تاديتها .

ونحن قد قاطعنا اجهزة النشر عندنا لا عجزا منا ولا انتهاء بل وعيا بما يمارس باستمرار ضد أية ظاهرة تقدمية من أساليب الالغاء والاستقلال ، ورفضا له واحتجاجا عليه .

ونعتقد أن غيرنا من الكتاب الواعين في البلاد العربية والعالم الثالث عموما يواجهون نفس المواجهة ويقفون نفس الموقف بل وبعضهم الان يتحمل مسؤوليته داخل المعتقلات فهلا اجتمعتم علىقضيتهم ؟؟
أيها المؤتمرون !

اقلبوا كراسيكم وانهضوا ان كنتم .
ان المواقف لا تكون حولية موسمية ولا صياغة أدبية لمؤتمرات القمة العربية !

الامضاءات

الطاهر الهمامي ـ الطيب الرياحي ـ المنصف الوهايبي ـ محمد صالح بن عمر ـ سالم ونيس ـ ابراهيم بن مراد ـ حسين السواد ـ يوسف الحناشي ـ رضوان الكوني ـ الهادي بوحوش ـ محمد الحبيبالزناد ـ المنصف غشام ـ مصطفى التواني ـ عبد السلام خروف .

الأدب والحرية مترادفان ..

بقلم عز الدين المدني

العالم العربي اليوم محكوم عليه بأن يخترع أدبه، وحريته، وحضارته لأنه يعيش أزمات تاريخية حادة ويشهد تقلبات اجتماعية ضارية ،ويحيا في هذا النصف الثاني من القرن العشرين الذي لم يجد فيه حظه كسائر شعوب العالم الثالث وبلدانه .

نعم ! ينبغي أن يخترع العالم العربي أدبه ، لان الادب الذي عاش عليه منذ عهد النهضة الى اليوم هو في خطوطه العريضة اجمالا اما سلبيا يدعو الى الرجوع الى الماضي بأية صفة من الصفات بواسطة الدين ، أو عن طريق الاصالة ، أو بقداسة العربية الفصحى ، بينما الماضي انقرض،وفات، ولن يعود ، واما مرقعا ، ملفقا، مدروشا ،يتتبع عن كثب خطى أوروبا الغربية بالخصوص .فماراجت موضة الا وتبناها لكن بعد سنوات .، كموضة « العبث » التي روجها بعض التجارظنوا أنفسهم من المثقفين العرب اواعين ،ثم تغليفة «الالتزام والابراج العاجية»، ثم « اللامنتمي » وغيرها من الشنائع الفكرية المجهضة !

فالاتجاه الاول سلبي أي في اعتقادي انهزامي في مواقفه من القضايا العربية ، فمن جرائه وقعت حروب طاحنة على رؤوس العرب اشهر من ان تعرف في هذه الكتابة . بالاضافة الى انه اتجاه كسول لأنه يعتمد على الماضي ، ومتواكل ، لانه ملتفت الى الماضي متوكىء عليه ، عاجز لانه فارغ الدماغ من آية ايديولوجية فيها أمل نحو المستقبل ، اذا استثنينا أمله الذي كان يريد الرجوع بنا الى القرون الوسطى !.

وهذا الاتجاه يتضمن مفارقة ، بعدا بين الاديب السلبي والشعب وقضاياه لا اليومية فقط بل المصيرية ايضا . اذ هو يعالج تلك القضايا الجديدة بأدوات خماء ، قديمة ، عتيقة .. واذ الشعب يبقى بحكم ذلك الاعوجاج بعيدا عن ادراك الحقائق الاجتماعية .

اما الاتجاه الثاني فهو لا يقل خطورة عن الاول . لان الكاتب الذي يتتبع الاتجاهات الادبية والفنية والفكرية وينقلها بعد سنوات ويقدمها الى القارىء العربي بدعوى التفتح وغيرها من الكلمات المزيفة لا يدرك الكاتب العربي الا نادرا ان هاتيك الاتجاهات الاوروبية الغربية ـ ولو كانت تقدمية الايديولوجية ـ انما هي أعلاق الاخطبوط الاستعماري الجديد .

وهذا الاتجاه يتضمن مفارقة ايضا ، بعدا بين الكاتب الملفق المرقع المرتق والشعب وقضاياه . اذ هذا الكاتب يخاطب النخبة كالسلبي بالضبط ، لا الشعب وازاء هذين الاتجاهين الذين تتحكم فيهما المفارقة لا يسعنا الا ان ندعو الى مراجعة الماضي مع الغاء القداسة التي تحيط به ، بما في ذلك اللغة العربية التي هي في حاجة ماسة الى التفكيك ثم الى اعادة التركيب مع مزجها باللهجات العربية وادخال المعرب والدخيل عليها ، وتيسيرها حتى يستسيغها الاجنبي وتغريه ، وحتى تتمكن هي بالتالي ان تجد حظها الى جانب اللغات الكبرى في عالم اليوم :

ومتى لم يدرك بعض الكتاب في العالم العربي اليوم انه من الواجب القيام بثورة هائلة داخل اللغة العربية بوصفها الاداة الكبرى لايصال الادب المكتوب والمنطوق والمرئي فان الادب العربي اليوم لن يكون له المد المنتظر منه سواء ليعالج أهم القضايا التي يتخبط فيها الانسان العربي في حياته اليومية والمصيرية أيضا ، أو ليخرج من البلاد العربية في اتجاه أقطار العالم لمقاومة الامبريالية والاستعمار الجديد .

لا بد للكاتب ان يكتب بكل حرية اعني بلا تقليد الماضي، ولا « تقريد » الموضات الغربية،لانه يواجه قضايا من نوع جديد لا عهد للمجتمعات العربية بها من قبل ، وعليه ان يحلها او على الاقل ان يثيرها بأداة جديدة يقتبسها من واقعه هو ، لا من واقع ماضيه ،ولا من واقع الدول الغربية .

فاذا تم تحوير وجهة الادب العربي اليوم ، فان كثيرا من الكتاب سيمسكون حتما عن الترامي على اعتاب جائزة نوبل للحصول عليها ، ليؤسسوا جائزة كبرى تضاهيها قيمة ومبلغا ، وليعملوا على ترجمة احسن ما لديهم من الانتاج شعرا كان أو قصة أو مسرحية الى اللغات الغربية الكبرى ، ولينشؤوا دورا للنشر في اوروبا ذاتها ، او ليروجوا بضاعتهم الفكرية عن طريق دور النشر الكبرى في باريس ولندن ونيويورك وفرانكفورت وروما .

كما يستوجب هذا التحوير في اتجاه الادب العربي الحرية المطلقة في التعبير شكلا ومضمونا ـ وهنا ألح على المضمون وأؤكد عليه ـ بكامل الشجاعة والجراءة ومهما كان الثمن . لان دور الكاتب في العالم العربي اليوم هو دور قيادي ومشاركة في الحكم احب ذلك الساسة ام لم يحبوا او رموا المثقفين في السجون او احالوهم على المعاش قبل الاوان ، او تملقوهم ومنحوهم المناصب العليا في الدولة .

وهذا الدور يتسم دائما بالصبغة النقدية اكثر من صفة المدح والاطراء ودق الطبول ، لانه دور حر ، لا يعمل من اجل مصلحة شخصية او في سبيل تحقيق منفعة خاصة . لان الادب الناقد هو ادب نابع من الواقع بل من وعي الواقع وعيا تاريخيا قويا .

ولان الادب الناقد هو في خدمة الشعب الذي يطمح الى بناء الحضارة الجديدة بكل قواه لا في خدمة بعض الاشخاص الذين اثروا على حساب استقلالات بعض البلاد العربية ، فهادنوا القوى الرجعية ،وتملقوا الاستعمار الجديد ، وانهزموا امام غزو الامبريالية.

اذا كانت للكاتب رسالة ،واذا كان للكاتب دور، فما عليه الا ان يوطد اركان الحرية ويعززها في بلاده ، وان يلقن الشعب معناها العميق ، حتى يكون لهذا الشعب غد افضل حقا ، لا غد مزعوم فضفاض مليء بخيبة الامال ، ومرارة الاوهام ، وبشاعة الاحلام .

تونس — عزالدين المدني

النشاط الثقافي في الوطن العربي

من مراسلي «الآداب»

ع. ع. س

عن الشاعر الراحل وصفي قرنفلي

١ ـ من ذكرياتي معه :

دخلت عليه أعوده في مرضه الطويل ... كان ذلك منذ سنتين ، بمناسبة عيد الفصح . ما أن فتحت باب الغرفة حتى نظر في وجهي نظرة المعاتب لغيابي عنه فترة مديدة ، وقال لي بصوت يتحشرج فيه الالم والاسى :

ـ « أين كنت طوال هذه الغيبة ؟.. » .

كان ممددا على سريره بهدوء واستسلام ، ووراء رأسه متكأة طرية وبجانبه رادبو « ترانزستور » صغير الحجم جدا يتصل من خلال موجاته بالدنيا من حوله ، والظلام الشمس يخيم على جو الغرفة ، وكذلك الصمت ... لست أدري لماذا احسست آنذاك انني في دير قديم له طقوسه الجنائزية الخاصة .

كان هذا هو كل عالمه بعد ان حرم متعة القراءة لانه لم يعد يستطيع ان يمسك الكتاب او المجلة ، بين يديه ، فيداه مشلولتان .

الواقع لم تكن يداه فقط مشلولتين وانما كان جسده كله مشلولا راكدا .. كان جسدا يذوب كالثلج تحت شمس المأساة .. كان كومة من لحم بارد وعظم متيبس . شيء واحد كان فيه حيا متقدا ، بل شيئان ، عقله وذاكرته أولا ، وقلبه وعاطفته ثانيا ، انه يحدثك عن ذكريات بائدة مندثرة عمر بعضها اربعون عاما ، فلا يفلت من جزئياتها شاردة ولا واردة الا ذكرها وكأنه يروي لك أمرا جرى البارحة . وهو يعتز بهذه الذاكرة الشابة المتيقظة التي لا تخونه : (لقاؤه مثلا بالشاعر الفلاني سنة كذا والابيات التي قالها كل منهما في جلسة خمر ... مظاهرة في حمص قامت عام كذا ضد الفرنسيين ، من استشهد فيها ومن نجا من الزعماء ، وماذا قال الشعراء في وصفها ... زيارته للاتحاد السوفياتي ، وموازاة غرفته لغرفة مولوتوف في المستشفى الخ .. الخ ..) .

طافت فيخيالي صور حياة (وصفي قرنفلي) هذا الشاعر العربي الكبير قعيد المرض منذ سنوات ، شبابه المناضل ضد الاحلاف الاستعمارية التي أرادت تطويق قطرنا في الخمسينات ، عمله المبدع في المساحة (طوبوغرافيا) فريدا من نوعه يقطع البلاد طولا وعرضا تحت قيظ الشمس اللاهب وصقيع البرد الجارح ليمسح الارض التي أحب ، شعره الفزل الذي تنبثق فيه المعاني والصور والتعابير بكل جديد انبثاقا فنيا رائعا وخاصة في قصائده الاولى المبكرة التي نشر جزءا منها في مجلة « الآداب » في منتصف الخمسينات ، وكنا ننتظرها انتظارا .

طافت في مخيلتي هذه الصور وغيرها من سلسلة الصور البيضاء والسوداء في حياة هذا الشاعر الفنان الذي كرّمته الدولة فمنحته وسام الاستحقاق من الدرجة الاولى وطبعت له وزارة الثقافة في القطر العربي السوري ديوانه « وراء السراب » وقلت في نفسي :

ـ كيف يستطيع انسان كان يدمن معايشة الناس يوميا ان ينقطع عن الناس فلا يراهم الا لماما من خلال زيارتهم العابرة له ؟!

ـ وكيف يستطيع انسان كان يدمن معايشة الطبيعة دائما انينقطع عن مرآها فلا يتملى منحها الالهية الا من خلال شجرة أكاسيا وحيدة تواجه نافذة غرفته ، بعد ان كانت هذه الطبيعة كل حياته ومرتع عمله ومثار صبواته واستغراقاته الفكرية والروحية ؟..

ـ وكيف يستطيع انسان ان ينقطع عن المشاركة في بناء المجتمع العربي التقدمي الاشتراكي الذي كان يحلم بتحققه بعد ان كانت هذه المشاركة تشكل محور همومه وطموحه ونضاله وخبزه اليومي ؟..

ولكي أنتشل نفسي من بئر تصوراتي العميق ، اقتربت من سرير الشاعر الصامت وسألته ـ كما هي العادة ـ عن صحته ، فأجاب بتفاؤل :

ـ هل أخبرتك ؟.. هناك دواء جديد أتعاطاه ، أرسل لي من اميركا خصيصا وهو مجرب ويشفي حالة مثل حالتي ...

وأردف بفرح طفولي :

ـ ولن تمر شهور حتى أعود كما كنت ، أخرج وأمشي وأطالع وألقى الحياة واعيشها ، واعود الى اصدقائي ونفسي ...

كان يقول هذه الكلمات بثقة وأمل كأنه يتحدى مرضه المزمن وواقعه المؤلم ويخلق من صميم مأساته لحن غبطة وسعادة ، ويفتّق من ظلام نهاراته ولياليه الطوال المتشابهة المتآكلة ضياء وابتساما ، وكنت من جانبي أتساءل :

ـ هل يمكن لدواء مهما كان فعالا ومؤثرا ان يشفي مريضا في الستين من عمره أقعده الشلل الرعاش الكامل في الفراش منذ ست سنوات وأفقده الحركة والحسّ والنطق الواضح ؟..

كان يرافقني في زيارتي صديقي الشاعر الشاب (احمد دحبور) وكان قد شارك في مهرجان المربد الشعري لذاك العام ، وأراد أحمد ان يسلي وصفي فحكى له عن المهرجان قائلا :

● بعد أن أنهيت القاء قصيدتي ونزلت عن المنصة سألني (الجواهري) :

ـ من أين أنت ؟..

قلت :

ـ فلسطيني مقيم في حمص .

قال الجواهري بحماسة :

ـ من بلد وصفي قرنفلي أنت ... انه شاعر كبير .. سلم لي عليه ...

(وانفجر وصفي لدى سماعه هذه الكلمات بعاصفة مرة قوية من البكاء والاجهاش لم تكن تنفع معها تهدئتنا له حتى بللت الدموع خديه دون ان يقوى على مسحها) .

عندما صمت قلت له :

ـ يا صديقي وصفي ، نحن آتينا نعايدك ونعودك .

قال بحسرة :

ـ الماضي يبكيني .. النغم .. الذكريات .. الشعر ..

وتابع احمد روايته قائلا :

ـ واقترب مني (عمر ابو ريشة) وقال : وأنا أيضا سلم لي عليه بالرغم مما بيننا من خلاف (يشير ابو ريشة هنا الى قصيدة لوصفي قرنفلي يهاجمه فيها لسبب ما) .

وعاود وصفي ثانية البكاء متأثرا بتحية ابي ريشة اليه .

طوال ساعتين كنا نحن نجاذبه أطراف الحديث ، نحاول انننسيه عنه ، ننسيه المحنة التي يعيشها بأعصابه المنتهية . لم يكن هو قادرا على الكلام ، كان الشلل قد قارب الوصول الى لسانه وكان هذا اكثر

ما يضنيه ويعذبه : ألا يستطيع القراءة ولا الكتابة ولا حتى التمتمة .

ومن طرفي كنت من امهر اصدقائه الذين يتمكنون من ترجمة غمغماته اللسانية اللامفهومة وتحويلها الى معان مفهومة . لقد حفظت تذكاراته وحكاياته التي يرددها في كل زيارة بعد ان اصبح عالمه جد محدود : ((غارسيا)) أسم اصله عربي ، افتح البخلاء للجاحظ، في الصفحة كذا تجد اسم غارسيا محرفا في الهامش الثاني ... صحيح انني لم أدرس النحو ولا علوم العروض ، لكنني أتحدى الخطأ نفسه فيهما .. الخمرة والمرأة .. لا .. الخمرة والجنس هما دائي ، وكذلك الكبرياء ، لولا الثلاث ما وصلت الى هذه الحال البائسة ... هل ترى صديقي الشاعر (فلانا) - ويتحشرج صوته بالبكاء - ما زارني منذ سنتين (ويتنهد) . لندن اذاعة مخططة جدا ، الاغنية فيها والحديث والتعليق والموسيقى والاخبار والمقابلة وجميع البرامج تسير نحو تحقيق هدف واحد مدروس . الانكليز يحفرون قبر الشعوب بالابرة و ((يضحك))) .

خرجنا أنا وصديقي أحمد دحبور من الزيارة منهكين مرضا ، بكينا معه وعليه اكثر مما بكى . أنا في الثالثة والثلاثين شعرت بعد مغادرتي لبيت وصفي انني في الثمانين من العمر وان الحياة سخرية لا تطاق ، واننا نحن البشر ضحاياها وذلك بالرغم من انني أزور وصفي في مرضه منذ لازم الفراش بين الشهر والآخر (لكنني لم أره على مثل هذا النمط من الانتهاء المفجع ، والاحساس الاكيد بالموت والتعلق الاسطوري بالحياة ، والبكاء الطفولي العجيب) .

مشينا في الطريق ذاهلين ، حزينين ..
أخمد أحمد احزانه في صمت قارس قارس ...

وانا اخمدت احزاني بان عدت الى شريط ذكرياتي مع وصفي قرنفلي على مدى عشرة اعوام كانها رفة الحلم وتهويمة الخاطر واطراقة الجفون ...

ثم ... ثم افترقنا دون كلمة وداع .

٢ ـ وقفة مع ديوانه ((وراء السراب))

كانت الحركة الشعرية في حمص بعد الثلاثينات ناشطة ملونة لدواع عديدة ، منها شيوع تيار العبث والاحياء على ايدي الشعراء التقليديين في المدينة ، ومنها مناوأة الشعراء للاحتلال الفرنسي كطليعة للشعب ، مما فتح أمامهم مواضيع خصبة للنظم والتحميس ، ومنها تحرك المجتمع نحو بناء حضاري جديد ، ومنها مأساة فلسطين بعد النكبة الاولى وما تركته في القلوب من جروح وفي النفوس من أسى وثورة .

وكان للشعر في حمص يومئذ مدرستان ، او منزعان ، تقليدي وتجديدي بينهما صراع ومنافسة ، وكان من زعماء المنزع التجديدي بل من غلاته ورؤوسه وصفي قرنفلي .

كان وصفي رومانتيكيا بطبعه واحساسه وغربته الروحية الدائمة، وكانت حياته في بداءتها ضربا من البوهيمية اللامسؤولة ، فاشتركت النزعة الرومانتيكية مع النزعة البوهيمية في خلق شاعر تصدى منذ راح ينظم الشعر عام ١٩٢٧ لمحاربة الشعر السلفي المحافظ واستطاع بعد جهاد طويل متواصل ومعارك أدبية عنيفة شهدتها الصحافة السورية في الخمسينات شعرا ونثرا أن يرسي ما يشبه الاسس لاتجاه المدرسة الكلاسيكية الحديثة ((نيوكلاسيك)) وما يتفرع عنها من تيارات واتجاهات تتراوح بين الواقعية والبرناسية والرمزية لا في الشعر الحمصي فحسب - ان جازت التسمية ، وهي ليست بجائزة - بل أكاد أقول في شعر القطر العربي السوري عامة ، تلك المدرسة التي تخلصت الى حد ما من اللهجة الخطابية التي سادت سابقا واتكأت على معطيات الرومانتيكية شكلا ومضمونا وأصبحت تغني آلام الذات الشاعرة ، وتعبر باخلاص عن التجربة المعاشة وتعتمد في صياغتها على النغم الشعري الهامس وتتأنق في اختيار ألفاظها الناعمة الهفهافة ذوات الجرس المهسهس والظلال ، وتصب في القصيدة جماع عواطفها المحترقة ولا تقيم للمقاييس الفنية الصلبة او العقلية الاجتماعية الجامدة كبير اهتمام .

والواقع ان وصفي يملك موهبة ممتازة في التعبير عن خلجات النفس الانسانية والعواطف الملتهفة والاحاسيس الطاغية ، لذا فالكلمة عنده شحنة من الشعور المتدفق والصدى الرمزي المسموع فيالموضوع واللفظة والصورة ، غير انه لا بد لنا ان نتساءل : من اين أتت وصفي هذه الايحاءات الرمزية وكيف تسنى له ان يطعم بها شعرنا المعاصر ، وهو الذي يعد ذا اطلاع محدود على أفق الشعر الفرنسي الرمزي وأعلامه الكبار كبودلير ورامبو وفيرلين وMallarmé وفاليري وجانموريااس وغيرهم ؟ وجوابنا على ذلك ان وصفي تابع قراءة مؤسس الرمزية الاول في لبنان الشاعر المقل ((اديب مظهر)) بعد ان استطاب عطاءه فاخذ يقتفي خطاه ويصوغ شعره على شاكلته ، مستعينا بابداعاته الخاصة حتى تفرد بشخصيته الشعرية اثر قبسه اول ملامح الرمزية من ((اديب مظهر)) في مثل قوله (أي مظهر) :

وهناك في الوادي غدير تائه ... متلفت بين الجبال نفور
يهفو الصباح فيستحم بمائه ... وينام عند ضفافه الديجور

والخلاصة ان وصفي خلق ما يقرب من مدرسة شعرية لها تلاميذ يستعيرون ريشته وألوانه وخياله ويقلدونه في معجمه اللفظي الشفاف وفي بعض اغراضه الشعرية واستغراقاته الوجدانية وعلى رأسهم الشاعران الفقيدان عبدالسلام عيون السود وعبدالباسط الصوفي ، وقراء معجبون ينتظرون انتاجها ويدافعون عن خطى التجديد والجرأة عند شعرائها .

واذا تعمقنا في قراءة وصفي ودراسته من خلال ديوانه ((وراء السراب)) خرجنا بالملاحظات التالية :

الاولى : فالصورة في شعره وليدة الكلمة وضلع من حروفها فهي أحيانا مثقلة بالضباب مضمخة بالغموض ، واحيانا اخرى صافية كجبهة الطفل ، مشرقة كالصباح الوليد ، وهو في هذين النوعين من الصور ، مخلص للصورة نفسها في بيتها الواحد ، بل شطره ، ابعادها وجوها وجدتها ، ولا يهمه ان يرسم لوحة يؤطرها بالخطوط الزغبية ، ويظهر هذا الاخلاص للصورة المفردة في قصيدته الوصفية الرائعة ((صلاة)) حيث يهمي فيها على صباح الربيع شوق العطور ونشوة الارض ، وحيث تتجلى حاسة النظر عند الشاعر ودقة التقاطها للصورة الفنية وشفافية رؤيتها في تداخل الالوان وصفائها : لون الصبح الازرق ، والبراعم الخضراء ، والندى اللؤلؤي ، والخمر الارجواني كانها قوس قزح :

هزّني صاحبي وقال : ((أفق ، فالصبح نديان ناعم يتفتح
قم أخا الشعر فالقوافي عذارى ، عاريات كالصبح فيالمرجتصدح
همّ نيسان بالعتاب : أيغفي في صباحي ؟.. والكأس باللوم أفصح
فتثاءبت والكرى في جفوني ، وتناهضت نحوه ، أتارجح
فاذا الصبح في غلائله الزرقاء ، سماح ينهلّ طيبا ويلمح
رفّ وانسل من براعمه الخضر ، طريا ، مهفهف الخطو ، أفيح))

وتتمتع صورة وصفي بالحركية الجسدية والمعنوية تعبيرا عن حالة عضوية او نفسية معينة . وادخال الحركة الطبيعية في التصوير الشعري ، فن صعب ، اذ يحتاج الى الالتقاء بين الالفاظ في تتابعها وزخمها كالطعن المتلاحق وما يقابلها من معنى حركي لتكتمل الاندفاعة ويتضح المجهود :

ومن الشاعر المدل بما يندى جبين الاحرار من بهتانه

انه .. انه واغمدت سكيني وراء الوريد من شريــانه

أو :

فتن تقـــول : ــ هنا ، وتوميء فتنــة وتهم أخرى
ماذا أرى ؟.. سبحان ما ... وأبيك ما أضمرت كفرا

والثانية : تتعلق بشخصية الشاعر ذات الابعاد الحضاريــــة والنفسية والاجتماعية والسياسية ومواقفــــه من الحياة والاحياء ، فوصفي انسان ثائر ، رافض ، غاضب ، جموح ، متمرد على معطيات العلم التي جعلت من المخلوق البشري آلة صماء ، رافض للموروثـات الشرقية التي كبلت تقدمنا الاجتماعي ، غاضب على الزعانف التــي تفكر بعقلية العصر الحجري ، جموح في التأمل والهدف . وهــذه الخصائص النفسية والسمات الشخصية والاعتقادات الذاتية تنعكس كلها في قصيدته الخالدة « سراب » . ومن يقرأ هذه القصيدةالطويلة يقف امامها دهشا ، فهي ملحمة النفس الانسانية في صراعها الراعف وسفر الازل في تناقضاته الغريبة . واذا كان لكل شاعر قصيــدة كما يقول الفرنسيون فان قصيدة وصفي قرنفلي هي « سراب » . وسراب تعبير شعري شاهق عن مأساة « الفراغ والعدمية » بمعناها العميـق ووصف تراجيدي لتهافت الانسان في عــالم المادة الرخيص والدنس الوجودي وعرض مجسم لارتخاء الذات امام معضلات الحقد :

عصف اليأس بالبقية منكأسي فأفرغتفيالتراب شرابي
ونفضتالمنىفأهوينانقاضا: «الىالنار يا سياط العذاب»
ان شر الجراح جرحك يا يأس بلالموتدون هذا العذاب
يا لرجسالعلوم أنقىوأسمى،منجميع العلوم طهر الغاب
يا لفقري حرمت حتى منالدمعومنرعشةالاسى فياهابي

لكن هذه المواقف التمردية الرافضة لا تعني سلبية وهروبا فـي نظرة الشاعر للانسان ، فهو عطوف عليه ، رفيق به ، محب لبنيوطنه وقوميته العربية ، مدافع عن كيانها ، ومن هنا كثر الشعر السياسي في ديوانه عندما حاول ان يجعل قصائده هادفة تخدم قضايا السياسة والمعترك النضالي ، مما احالها في بعض الاحيان معنى وصياغة أشبه بافتتاحيات صحف شعرية تخلت عن الفن وأشاح عنها الابداع وماجت فيها النثرية ، وقد لمح هو نفسه هذا التدني في الشكل والمضمـون فكفّ عن الشعر السياسي والمنظومات النازعة قبل ان يتوقف نهائيـا عن النظم ، الا ان هذا لا يلغي قيمة بعض قصائده السيـاسية ، ففي عدد محدود منها ، يرتفع فنيا الى الذروة ويبرهن على اصـــالة وجودة وشعور جماهيري لهاب :

عرب نحن ، والعروبة انسان شريف يستنكر العدوانا
كل تاريخنا انطلاقة أحرار وشعر يستصغر العبدانـا
كلما همّ فاتح او غزانا، ضاع فيالسفحواستطالتذرانا
نحن معنى الربيعنورا ودفئا وازدهارا فمن رآه، رآنا
نحنمعنى منالطليعة فيالشعباذا الشعبهزنا أو نخانا

والثالثة : تتجه نحو محاولات التجديد الجذرية في شعره ، فقد استطاع ان يوحد فكرة القصيدة ، ان يجعلها كلها تدور حــول منطلق واحد ، لا ان يستقل كل بيت بفكرة ثم لا يربط بين الابيات وافكارها رابط او ناظم كلي ، وأجود مثال على هذه التجربــــــة قصيدته « كآبة » :

عقدتهدبها على حلم ميت   ولفت آلامها بابتســـامه
ولوت جيدها كما لوت العنق على مرهف الشعـــار حمامه
ووراء الضلوع تنتحب الروح انكســارا ، ذبيحة مستضامه
ماتت الذكريات الا ظلالا ، حضنت قلبهـا ولمت حطامه ...
يبس الدمع في الجفون وغض النظر الميت لا يرى ما امامه

واستطاع ايضا ان يميز غزله بالبوح الحواري الحار ، وكثرة الالتفات والمخاطبة ، ثم السؤال وانتظار الجواب ، بين جمـــل معترضة متكررة بجمال وحيوية ، وهذه الحوارية الشعرية ، ان صح التعبير ، تكاد تكون ميزة عرف بها وصفي من دون شعرائنا المحدثين ، ولذا يصعب تقليدها :

عـلى شفتيك ، متكأ المعاني	وفي الهدبين قافية وبحر
ونهدك ــ آهظالنهد ــ حلم	تفتح فيالصدار فقيل:فجر
خطى..نغم..وخصر مستجيب	سرى فالافق أنى سرتخمر
فاما قلت ، برغم كل حرف	وماج فهلسقيتاللفظعطر

★ ★ ★

عاش وصفي حياته مرتحلا « موكلا بفضاء الله يذرعه » من قريـة الى اخرى ومن بادية الى بادية ومن مشروع الى مشروع بحكم وظيفته في المساحة والري ، فولد فيه هذا الترحل الدائم صفة القلق وعـدم الاستقرار حتى بالنسبة للافكار الايديولوجية التي يعتنقها ، الا انهذا السفر الطويل المستمر ــ من زاويـة ثانية ــ اعطـى تجربتـه الشعرية فيضا من التنوع والحرارة ، وكان ان الهبت طبيعة المناطق التـــي يتنقل فيما بينها من جفاف ويبوسة وبوار الى جنان خضراء ثرة المياه، مخيلته الطليقة فاختزنت صورا ابدع الشاعر في استغلالها بالـوصف على نوعيه : الخارجي ــ الطبيعة ومعطياتها ــ والداخلي : ــ النفس ومعطياتها ــ . ومع ان عمله أنهك صحته وأضنى جسده وأبعده عـن اصدقائه وأهله ودنيا الحضارة الالهية التي يعيشها الناس وما فيهـا من ترف ورفاه ، فانه يعتز به اعتزازا اصيلا ، لانه مثل عمل الكثرة الكاثرة من هذا الشعب الذي يسعى وراء اللقمة بالدم المكدود والعرق المتساقط وهو ابن الشعب ، عايش الصميمي المعذب من طبقاته :

انا للشعب ما حييت وللدرب	يمينا لا تعـرف التأويـلا
انا للكادحين ، منهم، وفيهم	سل جبالا ذرعتها وسهولا
بي منالبؤس ما بهم ومكاني	بينهم حيثما تولوا سبيلا

الا أن وصفي عاش حياته عريضة عميقـة طويلة ، بكل دقيقـة.تمر وصباح يشرق ومساء يهوّم ، ونرجيلة تقرقر ، وكأس تجهش روحه علـى ضفافها ، وجسد امرأة قدّوس يتعبد مفاتنه ، ومنظـر سحري ندي ، على كتف (الميماس) يصلي له وحلقة من الاصدقاء الاوفياء حول منضدة يدور فيما بينها حوار في الشعر والسياسة وصبوات النفس وآمال المستقبل ، ولكن اجمل حديث وألصقه بالشاعر ، كان حديث الحب والصبابة ، فهو يميل الى المرأة جحيم شهوة ، ويرى فيها عالمه الاسمى الذي يخلصه من أدران عالمه اليومي وارهاق الغبار ووهج الشمس ولغة الارقام والحسابات الهندسية بعد نهار بل قل نهارات مديدة ، وينقله الى سحر العطور وبرعمة النهد وغلالات الحرير وهمس النشوة :

غمزت وزاف (البنطلون يلفهـــا ساقا وخصرا
وتأودت في الضفتين ، تأود النغمــات ، نضرا
ماذا ترى ..؟ وترامت اليمنى وشال الفنج يسرى
ــ ماذا أرى؟..سبحان ما، وأبيك ما أضمرت كفرا
وسجدت بالهدبين أمسح جسمها وأخط شعرا
في السفح قافية ، أدغدغها ، ودون الركن عشرا
وعلى الشفاه تقطر (الكرز) اللذيذ وزف عطرا
وعلى ظلال الهدب اغفت قبلة كالخمر سكـرى

. . .

أنا شاعر القبلات بيضا ، ما لهن صدى وحمرا

. . .

٣ ــ حفل تأبين الشاعر الراحل

أقام اتحاد الكتاب العرب بسورية في نهاية شهر شباط الماضـي حفلا تأبينيا تكريما للشاعر الراحل وصفي قرنفلي في صالة سينمـــا الزهراء بحمص حضره ما ينوف على الفي شخص بين أديب وصديــق ومعجب جاءوا تقديرا لذكرى شاعر عربي بارز ، وهب نفسه وفنــه لقضية العروبة والاشتراكية وكان صوتا حرا جهيرا من اصوات الالتزام

المبكرة في هذا القطر ووقف شعره على محاربة الاستعمار وأعوانه في مطالع الخمسينات حيث كانت الهجمة الامبريالية على وطننا في ذروتها ، ولون قصائده بلون الكفاح القاني من أجل غد عربي مشرق ترفرف عليه رايات التحرر والوحدة والعدالة الاجتماعية ، وأخلص العطاء لوطنه فكان وطنه حبيباً به ، مقدراً نبوغه .

● اشترك في تأبين الشاعر الفقيد (الذي ولد عام ١٩١١م ومات في ١٢/ ١٢/ ١٩٧٢) مراد السباعي ، شوقي بغدادي ، عبد المعين الملوحي ، حامد حسن ، الياس خليل زخريا ، عبدالرحيم الحصني ، نزار قباني ، انطوان مقدسي ، وعفيف قرنفلي عن آل المحتفى بأربعينه .

● شوقي بغدادي لفت الانظار بالشكل التجديدي لقصيدته التي حوت شعرا عموديا ، وشعرا حديثا ، ونثرا موسيقيا موقفا ، جاءت جميعها لترسم لوحة حزن انساني شفاف ، يرصد فاجعة المخلوق البشري بالموت ونهايته بالعدمية .

● هاجم كل من الشاعرين السلفيين عبدالرحيم الحصني وحامد حسن الشعر الجديد والشعراء المجددين ، دأبهما في كل مناسبة منبرية فقال الاول :

يا ساكب الشعر من مكنون مهجته   عدت على الشعر في أيامنا الغير
اذا انتخى نفر للذود عنه بدا   يسعى ويمعن في تهديمه نفير
من كل مستأجر باغ يكاد على   جبينه ينطق البهتان والاسر
ولوا على الضاد غلمانا وما علموا   أي الاواصر من امجادهم بتروا

وقال الثاني :

والشعر..والشعر كرم الله، دنسه   وعاث يعبث فيه الثعلب الولد
كنوزه نهب أيدينا ، نبعثر ما   شاء الهوى، ننتقي ما طاب، ننتقد
ينهل كالغيث ،يبقى في مساقطه   ما ينفع الناس ، لكن يذهب الزبد

● كان نزار قباني نجم هذا الحفل التأبيني الضخم ، ولان نزار ، لا يرضى ان يرخص شعره ويجعله مطية تمتطى في الاخوانيات، ولانه صديق حقيقي لوصفي قرنفلي الذي لم يجامله ابدا يوم رد على قصيدته المشهورة (خبز وحشيش وقمر) بقصيدة مضادة منشورة في (وراء السراب) لم يكن لها بالطبع وقع قصيدة نزار الثورية في وقتها، ولا اصداؤها الاجتماعية والادبية ، لهذا ولذلك لم يكتب القباني قصيدة رثاء في رفيقه الراحل ، بل كتب كلمة ((نزارية)) كانت تدبيجا والقاء اروع من الشعر ، وقوبلت بالاعجاب الحار من جماهير الحاضرين ، وترددت ، ولا تزال ، اصداؤها في حلقات حمص الادبية والشعبية .

● وبمناسبة زيارة نزار قباني لحمص (وهي الاولى في حياته) نظم له اتحاد الكتاب العرب أمسية شعرية في سينما الزهراء تدافع لحضورها الشباب من الجنسين (وخاصة الناعم) بشكل لا يصدق ، حتى عدّ محسودا من أتيح له موطىء قدمين ، يعلو بهما مشرئبا من نهاية القاعة الكبيرة ليرى الشاعر وهو يلقي قصائده .

وبعد اختتام الامسية (التي استمرت ساعة ونصف الساعة) حاصر الجيل الجديد من فتيات حمص الشاعر القباني وقدمن اليه أوتوغرافاتهن ليوشحها بتوقيعه .

وقد سأل المحرر الادبي لجريدة (العروبة) المحلية الاستاذ نزار عن انطباعاته حول زيارته لحمص فرد قائلا :

((لم أندم في حياتي على شيء بقدر ندمي على أنني لم أضع حمص على خارطة تنقلاتي الشعرية ... فهذه المدينة الرائعة أعادت اليّ الايمان بالشعر وأكدت لي ان الحماصنة هم أنقى واطهر من يصغون الى الشعر ويذوبون فيه ذوبانا كما يذوب الصوفي في ربه)) .

حمص   **ممدوح السكاف**

العراق

رسالة من ماجد السامرائي

نشاط فني كبير

تميز النصف الثاني من شباط ، وآذار بنشاط ملحوظ في مجال الفن التشكيلي في العراق .. بما قدم من معارض ، لم تتميز بكثرتها وحسب ، وانما بما قدمته من اعمال ، امتاز الكثير منها بجودته . ومن هذه المعارض : معرض سعاد العطار ، ومعرض ليلى العطار ، ومعرض الفنان السوري غياث الاخرس ، والمعرض العراقي ـ السوري المشترك ، الذي اشترك فيه ثلاثة فنانين من العراق (صالح الجميعي ، ضياء العزاوي ، رافع الناصري) وثلاثة من سوريا (نعيم اسماعيل ، الياس زيات ، غياث الاخرس) .. ومعرض الفن الفرنسي.. وافتتاح ((كاليري ٣)) الذي بدأ يقيم معارض ثابتة ، وبشكل مستمر. هذا بالاضافة الى معارض اخرى كثيرة .. حتى ان النشاط التشكيلي كان هو الاكثر سيطرة على الحياة الثقافية خلال هذين الشهرين .. مستقطبا الكثير من كتابات الصحافة الفنية في القطر ..

ونقدم هنا ، في هذه الرسالة ، ملامح عما قدمته بعض هذه المعارض ، واختيارنا لهذه المعارض دون سواها لا يعني انها افضل المعارض .. وانما يأتي ذلك من منطلق اعتقادنا بانها قدمت ما أثار التعليق ، وتعدد وجهات النظر .. ولان بعضها يمثل مسارا جديدا في الحياة الفنية لاصحابها ..

معرض سعاد العطار :

بلا عناوين ، قدمت الفنانة سعاد العطار معرضها الشخصي السابع الذي ضم مجموعة من اعمال البورتريت .. مكتفية بكلمة قصيرة في دليل معرضها هذا ، تؤكد ان ((هذه المحاولات اكثر من مجرد تمثيل للوجه الانساني ، أو تجسيد مسحاته الجمالية . ذلك لانه يظل بالامكان دائما ان يطل علينا ذلك الوجه ، من خلال ابسط الخطوط ، مرآة يختلج على ابعادها ذلك الخضم من الانفعالات الداخلية)) !

وقد أثار المعرض وجهات نظر عديدة ، ومتباينة في تقويم هذا المعرض .. فالفنان ـ الناقد شاكر حسن آل سعيد يرى ان الابعاد الفكرية لاسلوب سعاد العطار هي ((في كونها محاولة لتثبيت المظهر الخارجي للوجه الانساني منظورا ، لا من عدة زوايا للنظر فحسب ، بل لعدة مرات للموضوع الواحد)) ، اذ ((نعطي لنا هذه المحاولة الجديدة دفقا جديداً لفنها الذي يمكننا ان نصفه ب ((التجريبية)) انقاذا له ، على الاقل ، من كونه فنا مترفا ..)) .. بينما يرى الناقد سعدون فاضل أن المتتبع للمسار الفني لسعاد العطار يستطيع ان يستشف من معرضها الحالي ما يمكن ان يوصف بنفس التقنية الفنية، والمعالجة اللونية . ويعيد الناقد قول بيكاسو ، في معرض حديثه عن فان كوخ : ((ان ما يهمني هو عذابات الرسام)) ، ليتساءل : ترى هل استطاعت الرسامة سعاد العطار أن تعبر من خلال الصور الشخصية لمعرضها عن تلك العذابات ، أو ((المذابح الداخلية)) التي يقدّر للانسان أن يعاني منها ؟)) .. ليجد ((ان المعرض الحالي يمثل رغبة ، وان كانت لا واعية ، للتأكيد ، من قبل الرسامة ، على انها قادرة على ان تنجز ((اعمالا كلاسيكية)) .. ولها القدرة ايضا على تمثيل المرئيات ..)) ... ((ومع كل هذا ، يظل الاحساس بأن الصور الشخصية التي تناولتها سعاد العطار تعطي الاحساس بأنها ، في معظم الاحيان ، يمكن ان تقترب الى فن الملصقات ، مع ان الفنانة تهدف ، بالشكل الرئيسي ، الى استعمال الوجه الانساني للتعبير

عن الابعاد الداخلية ، الا انها تظل ، مع ذلك ، تواجهنا بوجـوه مترفة لا يبدو عليها اي شيء من القلق والانفعال النفسي » ..

لكن السؤال الذي يمكن ان يطرح امام اعمال معرضها هـذا ، هو : هل حققت الفنانة لاشكالها لغة يمكن أن تماثل لغة اشكالهـا السابقة ، أو تقف نظيرا لها ؟

هذا السؤال يعيد مسألة تقويم ما قدمه المعرض السابع لسعاد العطار من جديد ، بتحليل مضمون عملها ، وقراءة اشكالها السابقة، والحالية . فاذا كانت لوحات هذا المعرض سهلة القراءة ، كما يبدو للوهلة الاولى .. فان ذلك « التساؤل » الكامن وراء تلك الوجوه .. وفي العيون .. في تناثر الشعر ، كما في ملامح الوجوه ذاتها ، يبقى هو الصعوبة الوحيدة القائمة ، والتي تحتاج بالفعل الى استعـــادة « المضمون الفكري » لاعمال الفنانة ، وتتبع مساره من اول معرض لها، حتى هذا المعرض . ولا اشك في اننا سنجد الصلة قائمة ، بهـــذا الشكل او ذاك ، من الماضي والحاضر ..

شهرزاد وشهريار :

اما الفنانة ليلى العطار فقد قدمت معرضها في موضوع واحد ،: هو « شهرزاد وشهريار » ..

وربما هي الآن ، واكثر من اي وقت مضى ، تترك ليلى العطار تلك « اللغة الحائرة » تتجد مسارها الفني .. فيكون للوحة تكوينهـا الخاص بها ، وموضوعها الواضح الابعاد .. والاهم من كل هـذا ، انها تمنح اللوحة بعدا شديد الايغال في جوهر الحياة الانسانية ... حيث جعلت من « الموضوع الواحد » محورا للوحات عديدة .. ومن اللون لغة تعبر عن احساس ، في الغالب هو احساس داخلي ، كأنه «*هاجس » ..

في هذا المعرض هناك ثلاثة مستويات للعمل الفني ..

ـ هناك اولا وحدة الموضوع .. وهو ما تشكـــله « شهرزاد وشهريار » أو هو بعد واحد من أبعاد هاتين الشخصيتين ..

ـ وهناك ، ثانيا ، المضمون ، والذي يبرز في هذه العلاقـات اللونية التي يطرح المضمون بأجرأ أساليب التعبير كثافة وتركيزا ..

ـ وهناك ، ثالثا ، المضمون الكامل ، وهـــو تجسيم لواقع ، وتلخيص لنظرة الى قضية العلاقة الانسانية (بين المرأة والرجل) . تنفذ الفنانة الى أدق التفاصيل ..

ان الفنانة في معرضها هذا تخلق للاسطورة ، او الحكايـــة ، معنى تقتحم من خلاله هذا المجهول القائم الذي اسمه « الانسان » ، لتكشف عن اشياء في طبيعته . وهي أذ تحدد « أسطورتها » بنطـاق من المعنى يفصح عن أبعاد هذه العلاقة ، فانما لتعكس ذلك « الجانب الوجداني » في الفن . وبرغم ما يستشف من اعمال الفنانة هذه لمحات « وجدانية » ، فانها ، وببراعة ، سيطرت عـلى موضوعها ، وحولته الى نطاق انساني عام .. بحيث جاء تداخل الوجدان المعاصر بموضوع الاسطورة تداخلا شفافا حقق للوحة بعدها : الفني والفكري.

ولعل المهم في لوحات معرض ليلى العطار هذا ، هو ان «الحكاية» التي اعتمدتها اساسا في بناء موضوعها قـد ملأت فراغـا في نفسها .. او هي فجرت ينابيع معطيات كثيرة ، ليتحقق ، وبفعل ذلك ، بعـد ثالث يتلخص في منح الاشكال « كينونتها » الحية .. وقد عمدت الى اظهار ذلك وتجسيده من خلال الامتدادات التي تشبه الجـــذور او العروق ... فاضفاء ما يشبه « النسيج النباتي » الى التكويـــن العام للوحة هو ما يرمز الى « الامتداد الموضوعي » للفكرة التي تنحدر من « الاسطورة » الى « الواقع » ، ومن «الماضي» الى «الحاضر» ، بنوع من التواصل والتعاطف ، او حتى الاندماج الكلي ..

المرأة عند « ليلى العطار » تعيش في عالم بسيط يسيطر عليـه الرجل .. ولكنها ، وبالرغم من ذلك ، لها وجودها ، وكينونتهـا المتحققة بأشكال (معنوية) مختلفة . وتكتسب هذه الاعمال اهميتهـا بما توجده الفنانة من عناصر « التفاهم » بينها وبين موضوعها ..

فتنفذ الى ماهيته ، وتعيد بناءه وفق تشكيل ربما هو جزء من حضور لفكرة ، او هو هذا « الحضور » ذاته .. فتنفتت « الحكاية » ، مستحيلة الى « تصور » لعالم قائم وجدت الفنانة امتداده التاريخي (الموضوعي) . ومن هنا اصبحت « شهرزاد وشهريار » مرآة لواقع (نفسي واجتماعي) .

من هذا الفهم لاعمال « ليلى العطار » يمكنني القول ان اعمالها في معرضها هذا هي من المحاولات الجادة لاعادة صياغة الواقع مـــن خلال الاسطورة ، بحيث يلتقي هذا الواقع بعالم الاسطورة ، متخـذا مداه الابعد بالتقاء الظاهر بالباطن ، والحياة بالموت .. وبالتالي ، فهو جانب من قلق عالمنا الشرقي ..

أهمية اخرى لمعالجات ليلى العطار هذه .. هي ما يتحقق فيها من تفاعل بين « الذات » وبين « جوهر الحكاية » ، ليتشكــل ، في النهاية ، جانب من الحياة مهم ، بقدر ما هو غامض ، مستتر .. فهو واضح يعيش حضوره في اقصى درجات الوعي . ولعلها جـــرأة نستأهل اكثر من تقدير هذه التي تمثلت بالفنانة ، لتكشف حقيقـة العلاقة الانسانية بين الرجل والمرأة ، بنوع من النشاط الذهني ، الشاعري ، الممتزج بكثير من النبضات الرومانسية ... ولعلهـــا باقدامها على « تشخيص » كهذا انما تطلب ان ننظر الى هذه «العلاقة» من داخل نطاق الممارسة ذاتها ، بهدف التوصل الى استجلاء ابعـاد كائنة في صميم هذه « العلاقة » من داخل نطاق الممارسة ذاتهـا ، بهدف التوصل الى استجلاء أبعاد كائنة في صميم هذه العلاقـة . وبهذا المعنى يمكن ان تكون اللوحة تجسيدا لواقع ، ونقدا صريحا له ، من خلال الكشف عن طبيعته ، وجوهره ..

أهمية أخرى لهذا المعرض .. تتلخص في تجاوز الفنانة للمنطـق السائد في اعمال الكثيرين ، خصوصا في اعمال بعض الرسامـــات العراقيات .. وهي : ان الفن ليس ترفا ، ولا لهوا .. وانما هـــو تعبير عن « حاجة » ، فكرية ، او نفسية ، وعن « احساس ملح » .. وبالتالي فهو حوار مع عالم ..

تبقى هناك مسألة اساسية تخص مستقبل ليلى العطار ، الفنانة. هي انها ، وفي هذا المعرض بالذات ، بدأت رحلة بحث من نوع فريد. وكما ان كل فنان يخلو عمله من البحث محكوم عليه بالانتهاء .. كذلك فان توقف هذا « البحث » عند نقطة بذاتها هو الآخر انهاء لمسيـرة فنه في خط التطور ... ولقد بدأت « ليلى » مـن نقطـة استطيع اعتبارها البداية الحقيقية لها . فاذا ما ارادت الوصول الى ما يطمح اليه كل فنان من تطور ، واستمرار لهذا التطور ، فان عليها انتواصل « رحلة البحث » هذه ، مع تأكيد على ضرورة الاكتشاف الدائـم ، بغية التوصل الى تجسيد الحقيقة التي تشغلها والتي بدأ بحثهـــا الجديد فيها ، بظني ، من هذا المعرض .

معرض غياث الاخرس :

بلغة فنية بسيطة .. ولكنها عميقة ، عفوية عفوية رسوم الاطفال، الا انها بارعة .. وبالوان فرحة ، مشرقة ، ولكنها لا تخلو من تعبير عن ازمة او حزن .. بكل هذا .. قدم لنا الفنان الســوري غياث الاخرس معرضه لاعمال الكرافيك في بغداد في مطلع آذار ..

هذا الفنان ، في جميع اعماله شديد الالتصاق بعصره ، وبزمنه، وبقضية الانسان فيه . وقد استغل ما يمتاز به « الكرافيك » مـــن امكانات تقنية في تحريك « المناخ التعبيري » للوحـة من خلال أدق التفاصيل ..

تحدث غياث عن نفسه .. وعن فنه .. وأجد ان اجزاء مـــن حديثه هي الاكثر قدرة على تشخيص معالم فنه ..

ـ « انا فنان اعتمد على ما تتركه الرؤية البصرية من حـــدس

العصر » .

ـ « اعتقد انني ، كشخص ، مباشر مع الآخرين .. ومباشر وتلقائي مع كل شيء اواجهه ، او يواجهني . وأتصور بأنني افرح بسهولة ، وبسرعة .. واحمل ردة الفعل العكسية بنفس السهولة والسرعة . ربما أكون انفعاليا .. الا انني أحس اكثر مما أفكر .. أي ان مواجهتي الحسية للاشياء اكبر من مواجهة الوعي لها » .

ـ « أعتقد انه بأقل ما يمكن من العلاقات الفنية ـ الفكرية احاول ان اعبر عن اكثر ما يمكن من انطباعات وانفعالات واحاسيس اعيشها بشكل دائم مع الانسان .. مع البيئة .. ومع الطبيعة بشكل عام » .

ـ « اني ابحث عن هوية تحدد عن زماني ومكاني من هذا التراث، وهذه الحضارة لاجد اللغة التي استطيع التحدث بها بلهجة تشكيلية ، فنية معاصرة تتناسب والزمن الذي أنتمي اليه ..

.. انني لا انظر الى المحليه بشكل متعصب ، بقدر ما أنظر اليها كمنطلق يشدني الى الارض ، والتراث .. ومنه انطلق الى العالم .. الى انسان اليوم » .

ربما تكون هذه الفقرات هي التفسير الاوضح لاعمال الفنان غياث الاخرس ، سواء في معرضه هذا ، ام في اعماله الاخرى .. لانها تتضمن تشخيصا دقيقا لمعالم اتجاهه ، وتفكيره ، ورؤياه ..

فنانون فرنسيون معاصرون :

وكان معرض الفن الفرنسي الذي شغل اكبر قاعات المتحف الوطني للفن الحديث من ٢٠ شباط حتى ٢٠ آذار ، تظاهرة فنية كبيرة ، أتاحت للفنانين ، والنقاد ، ومتذوقي فن التعرف على جوانب عديدة من اتجاهات الفن الفرنسي المعاصر .. من خلال اعمال : كرومير ، فوتربيه ، هيربان ، فالش ، أوباك ، هارتونك ، سولاج ، كروبير ، فييرا دا سيلفا ، سانجيه ، بوليأكوف ، بنيون ، بودان ، بيسيير ، بوريس ، نساستيل ، دينوييه ، ديرول ، آيستيف ، كيشيا ، هيليون ، لابيك ، لوموال ، مانيسييه ، مارشان ، موزيك ، نالار ، براسينوس ، شنيدير ، ناكلوات ، زاوو ـ وو ـ كي ..

وعلى الرغم من اهمية هذا المعرض .. وعلى الرغم مما يمكن ان يثيره من مناقشات لاتجاهات الفن المعاصر ، أن في العراق ، او العالم ، في ضوء ما يطرحه فنانو هذا المعرض .. فان شيئا من هذا لم يحدث .. للاسف !

مهرجان أفلام وبرامج فلسطين :

من التظاهرات الفنية الضخمة التي شهدتها بغداد في الفترة من ١٩ ـ ٢٢ آذار « المهرجان الدولي الاول لافلام وبرامج فلسطين » الذي عقد تحت شعار : « تحرير فلسطين ركيزة للسلام العالمي » . شاركت فيه وفود سينمائية واذاعية وتلفزيونية كبيرة من ست عشرة دولة ، عربية واجنبية .. وعرضت خلاله افلام عديدة ، حول القضية الفلسطينية ، وحركات التحرر العالمي .. كما القي العديد من البحوث، ودارت مناقشات .. سنقدم في العدد القادم من « الآداب » تقريرا شاملا عنها ..

مؤتمر التاريخ العالمي :

كما عقد في الفترة من ٢٥ ـ ٣٠ اذار ، مؤتمر التاريخ العالمي ، الذي نظمته جمعية التاريخ والآثار في العراق .. حضرته شخصيات عالمية كبيرة ..

وسنقدم في رسالتنا القادمة تقريرا مفصلا عن اعمال المؤتمر ، وما انتهى اليه .

بغداد — **ماجد صالح السامرائي**

الصعود (كرافيك) لغياث أخرس

وانطباع .. كما اعتمد على معطيات التراث بشكل عام ، وعلى مؤثرات البيئة (الريف السوري) . ومن خلال ما يتركه ذلك من انطباعات ، اتعامل مع المعدن تعاملا مباشرا » .

ـ « الانطباع وجد ، ويتواجد باستمرار ، من خلال رؤيا وتفاعل مستمرين مع الحياة التي أحياها على أرضي .. تتهذب احيانا حسب ثقافتي التي اكتسبتها ، وخبرتي التي توصلت اليها لتلك الفكرة ـ اللوحة » .

ـ « في لوحاتي هناك موقف من الانسان . ربما اكون انا مرحا ، ومتفائلا .. الا انني ابن هذا العصر بكل ما يحمل من تناقضات تواجه انسانه .. وبكل ما تحمل البيئة التي أحيا ضمنها من فرح وتفاؤل وسعادة . احيانا تتأزم وتجرح بعنف امام العالم المأساوي لانسان هذا